

دون خوان مانويل

الكوندي لوكانور

كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة



ترجمة

عبد الهادي سعدون

دون خوان مانويل

الكوندي لوكانور
كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة

ترجمة وتقديم: عبدالهادي سعدون

مراجعة: د. طلعت شاهين

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ6401. A112 2016

Manuel, Don Juan, 1282- 1348

[El Conde Lucanor]

الكوندي لوكانور: كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة/ تأليف دون خوان مانويل؛
ترجمة عبدالهادي سعدون؛ مراجعة طلعت شاهين. ط. 1. أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،
كلمة، 2016.

384 ص.؛ 12*18 سم.

ترجمة كتاب: El Conde Lucanor

1- الأدب الشعبي الإسباني - القرن 14.

أ- سعدون، عبدالهادي. ب- شاهين، طلعت. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني:

Don Juan Manuel

El Conde Lucanor

لوحة الغلاف لفنان مجهول من إسبانيا في القرون الوسطى

ص. ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: +971 2 6215 300 فاكس: +971 2 6433 127



**إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.**

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الكوندي لوكانور
كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة

مقدمة بقلم المترجم

كتاب الكوندي لوكانور El conde Lucanor المترجم من «الإسبانية» إلى اللغة العربية، يضم حكايات ومواظ شعبية معروفة في تلك الفترة، وقد جمعها وشذبها وأعاد كتابتها دون خوان مانويل Don Juan Manuel، الأمير والسياسي والكاتب البارع وأهم صوت أدبي في آداب إسبانيا في القرون الوسطى. والمؤلف قد صاغها صياغة أدبية أشبه ما تكون بحوارية ومسامرات شخصية بين بطلي الكتاب وهما: الكوندي لوكانور ومستشاره باترونيو. إذ قبل كل حكاية يسأل الكوندي لوكانور مستشاره في معضلة ما وباترونيو يشير على سيده بالصائب منها عبر مثال أو موعظة أو حكاية متداولة.

الترجمة العربية هنا هي الترجمة الأولى الكاملة للكتاب، أي ترجمة الأجزاء الخمسة كاملة، إذ لم يحظ سابقاً بأية ترجمات سوى من بعض النصوص القليلة ضمن أنطولوجيات منتخبة سواء نشرت في كتاب أو في بعض المجلات الأدبية. كما أن ترجمتنا تستخدم طبعة معاصرة للنص مع مقدمة مطولة عن حياة المؤلف وظروف تأليف الكتاب، يضاف لها تعليقات وتسلسل تاريخي عام حافل بالمعلومات، ولا ننسى الهوامش العديدة المكملة لفهم النص، وهي على كثرتها، تعد مرجعاً لا غنى عنه لفهم واستدراك العديد من المناطق والزوايا الغامضة من الكتاب.

الكتاب المعروف من حكايات الكوندي لوكانور أو كما وضعنا له عنواناً فرعياً مكملاً هو (كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال المفيدة) جاء في جزئه الأول والمتضمن 51 قصة وحكاية وموعظة، وهي الجزء الأكبر من الكتاب، وهو الأمتع والأغزر بالمعلومات والمصادر والمؤثرات الشعبية الإسبانية أو العربية الإسلامية الواضحة. بعد ذلك أضاف المؤلف في فترات لاحقة أجزاء أخرى للكتاب الأصل، ليكون الكتاب بأكمله مؤلفاً من خمسة أجزاء كاملة، أي أربعة أجزاء أخرى

تضاف للجزء الرئيس الأهم والأكبر. وإن كانت الأجزاء الأربعة المتبقية لا تشكل إلا الربع الأصغر من الكتاب الكلي، وهي الأجزاء التي تتمسك بطبيعة الأمثلة والأقوال الشائعة آنذاك أكثر من إيراد الحكايات والقصص الشعبية. وقد أراد بها المؤلف أن يضيف للكتاب ما تناساه أو ضاع منه في الجزء الأول الرئيس أو ما استدركه فيما بعد من خلال التذكير بالأوضاع والمناسبات المختلفة، أو لزيادة الحس النقدي والتحليلي للظواهر من قبل المؤلف والتي غفل عنها في الجزء الأول، كما جاء على لسانه في تبرير كتابتها.

لقد حظيت قصص وحكايات الحكمة باهتمام الأدباء قديماً، ولعل أبرز تلك القصص ما ضمه كتاب «كليلة ودمنة»، التي يعتقد أن ابن المقفع ترجمها عن لغات شرقية أخرى، فيما يؤكد البعض أنه هو صاحبها ومؤلفها الحقيقي، ولكنه نسبها إلى مؤلف من لغة أخرى حتى لا يتحمل وزر ما تضمنه من قصص وحكايات موحية تدين بعض الممارسات السياسية في زمنه لو حاول أحدهم أن يحملها هذا الوزر. هذا الاهتمام بقصص الحكمة من الشرق إلى الغرب، سواء بترجمة ما تضمنه كتب قصص الحكمة الشرقية من اللغات العربية والهندية والصينية والفارسية، أو بكتابة قصص على منوالها، امتد لأزمنة أخرى ومناطق جغرافية مختلفة، وانتقل بفعل التأثير والتأثر من الشرق إلى الغرب، وبشكل خاص أوروبا الغربية التي كانت تتوق إلى الخروج من عصور الظلام التي عاشتها في القرون الوسطى إلى عصر التنوير الذي بنت خلاله أسس حضارتها الحديثة والمعاصرة. ومنها بطبيعة الحال رمز الإمبراطورية الغربية آنذاك إسبانيا.

كانت إسبانيا الكاثوليكية الأقرب إلى التأثر الشرقي من غيرها من دول أوروبا الغربية، وذلك بفضل ما ورثته عن الحقبة الأندلسية التي كانت فيها شبه الجزيرة الأيبيرية منارة للحضارة والعلوم عندما كانت أوروبا غارقة في الظلام، ويعتبر المؤرخون أن الأمير «دون خوان مانويل» أحد أمراء الأسرة المالكة الكاثوليكية الحاكمة في القرن الثالث عشر كان أول من اهتم بفتح كتابات القصص والحكايات في إسبانيا الكاثوليكية بعد سقوط الممالك العربية في غرناطة بقليل.

كان معروفاً عن الأمير دون خوان مانويل أنه عاشق لكل ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وبشكل خاص الأدب الذي كان يقدره ويرى فيه حكمة تعكس فكر هؤلاء الذين أقاموا تلك الحضارة الباهرة في أوروبا، ولم يكن يرى في هزيمتهم وانحارهم أمام الجيوش الغازية الكاثوليكية خطأً من قدر هؤلاء، لذلك أراد أن يستفيد المسيحيون من تلك الحكمة التي

خلفوها، فأمر بجمع كل الحكايات والقصص وصاغها على منواله، وأضاف لها مما عرفه وسمعه وألفه بنفسه من حكايات أخرى جديرة بضمها في الكتاب، وكان أن طبعها فيما بعد في كتاب باسم «حكايات الكوندي لوكانور». وربما كان ذكياً ذكاء ابن المقفع، أو خائفاً من عاقبة نسب تلك القصص إليه، فقرر ألا تكون تلك القصص على شكلها الذي تم جمعها به، فتقابل بالرفض من الشعب المسيحي الكاثوليكي المتعصب، الذي كان لا يزال ينظر إلى العرب والمسلمين على أنهم أعداء لم تجف في أيديهم الدماء التي أراقوها في حروبهم مع الكاثوليكين، لذلك قرر الأمير أن يضعها في إطار يجعلها أقرب إلى قصص «كلييلة ودمنة» من الناحية الفنية، ويقربها من العامة باعتبارها قصصاً تخص نبلاء إسبانيا المسيحية، وإن كان الكثير من أبطال تلك الحكايات من العرب.

اخترع الأمير دون خوان مانويل شخصية «الكوندي لوكانور» وتابعه «باترونيو» ليقترب تلك القصص بحكمتها من العامة، فكان يقص النبيل «الكوندي لوكانور» على تابعه موقفاً من المواقف التي تواجه بعض أصحابه أو رعاياه رداً على سؤال حول موقف من مواقف الحياة التي يتعرض لها أحد رعاياه، وتنطوي القصة على مشكلة ما والنبيل يطلب من تابعه المشورة حول كيفية نصح الصديق أو التابعين الذين لجأوا إلى الكوندي للتوصل إلى حل معقول ومقبول لمشكلتهم، من دون أن يكلف الصديق أو الرعية جهداً كبيراً في فهم النصيحة.

يبدو في تلك الحكايات والقصص أن «باترونيو» تابع الكوندي كان حكيماً، وعلى قدر كبير من الخبرة بالحياة، يقدم لسيدة المشورة من خلال قصة من القصص أو حكايات من الحكايات القديمة، التي تحتوي على عظة أو حكمة معينة، ولأنه لا يستطيع أن يبدو ناصحاً لنبيل بفعل اختلاف الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، كان يطلب من سيده أن ينصت وأن يستخلص من الحكاية حلاً مشابهاً لما تحتويه مشكلة من طلبوا عون الكوندي. وبما أن التابع «باترونيو» كان شخصية تتمتع بثقافة واسعة، فقد كانت تلك الشخصية في كتاب الأمير دون خوان مانويل تحاول أن تستخلص العظات والحكم من القصص الشفاهي في إسبانيا، والتي معظمها متوارث عن الأدب العربي والإسلامي في الأندلس.

ومن تتبع تلك الحكايات، نجد أن التصريح بأن تلك الحكاية وقعت لهذه الشخصية العربية أو تلك من الأمور الطبيعية جداً في هذا الكتاب، الذي يبدو في النهاية كجمع ثري للحكايات العربية التي

كانت منتشرة في الأندلس قبيل سقوطها، أو حتى حكايات وقصص وقعت لشخصيات مسيحية أوروبية عندما وقعت في أسر بعض القادة المسلمين، وواجهوا الأسر بكرامة، لكنه يبين - على غير العادة في كتابات تلك الفترة التاريخية التي يعود إليها تاريخ نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب - أن قادة المسلمين وبشكل خاص الناصر صلاح الدين عاملوا الأسرى المسيحيين بالقدر الذي يستحقونه، لأن الشخصيات المسيحية في هذه الحكايات في الغالب تنتمي إلى طبقة النبلاء.

والغريب أن بعض تلك الحكايات تشبه كثيراً بعض الإنتاج الأدبي المعروف حالياً في أوروبا، والذي أبدعه أديب قدامى في التاريخ أقرب إلى الفترة التي نشر فيها الأمير دون خوان مانويل كتابه «الكوندي لوكانور»، مثل بعض الأعمال لثربانتس الإسباني صاحب رواية «دون كيخوته»، التي تعتبر أول رواية أوروبية وضعت قواعد القص الروائي، أو حتى من أعمال المسرحي الإنجليزي الشهير «وليم شكسبير». ومن أكثر القصص تشابهاً في هذا الأمر قصة بعنوان «ما جرى للفتى الذي تزوج من امرأة عنيدة وسينة الطباع» التي يضمها كتاب «الكوندي لوكانور»، وتشبه كثيراً مسرحية «ترويض النمرة» للكاتب الإنجليزي الشهير «شكسبير»، ونظراً إلى وجود دلائل تؤكد أن هذا الكتاب، الذي صدرت منه طبعة جديدة هذا العام، لا يعرف أحد ولا حتى الناشر المعاصر رقمها، وهو كتاب تم طبعه في العديد من البلاد الأوروبية، وتمت إعادة طبعة عشرات المرات، بل مئات المرات في إسبانيا، ويعتبر من كتب التراث الأدبي الشهيرة التي تلقى رواجاً، وهناك دلائل تؤكد أن هذا الكتاب تمت ترجمته إلى عدد من اللغات الأوروبية مما يجعل من المستحيل القول إن وليام شكسبير لم يطلع عليه، أو حتى لم يسمع عنه، وهنا لا بد من القول إن هذا الكتاب ربما كان له تأثيره على المسرح الإنجليزي الذي استوحى منه - على أقل تقدير - مسرحيته «ترويض النمرة».

ولو وقع هذا الكتاب بين يدي باحث يغوص في أعماقه وأعماق الأدب الأوروبي بحثاً عن تأثيرات واضحة للأدب العربي لوجد أن هناك العديد من الأعمال الأدبية والفنية التي اتخذت من هذا الكتاب مرجعاً أو ملهماً لها، وذلك بفضل عشق أمير من الأسرة المالكة الكاثوليكية للثقافة العربية، على الرغم من العداء الذي كان مستحكماً بين الثقافتين المسيحية والإسلامية الناتج عن صراعهما في الأندلس، وأيضاً يؤكد أن الحضارة الإسلامية على الرغم من هزيمتها في الأندلس، إلا أنها استطاعت أن تترك أثراً لا يمحي في عقول الكثيرين، الذين استطاعوا أن يتعاملوا معها كقيمة

إنسانية بغض النظر عن الموقف المعادي سياسياً لمن أبدوها، لأن التأثير هنا يكون من حضارة سابقة أكثر تقدماً، ويمكنها أن تكون عاملاً مساعداً لبناء الحضارة الجديدة التي هي هنا الحضارة التي كانت تبحث عنها أوروبا المسيحية للخروج من ظلام القرون الوسطى.

على شح ما لدينا من مخطوطات الأدب القشتالي في العصر الوسيط، أن يتم الاحتفاظ كما عليه في حالة (الكوندي لوكانور)¹ بخمس مخطوطات يشير ذلك للشهرة التي تمتع بها الكتاب. إن عمل دون خوان مانويل، إلى جانب ذكرى حياته المضطربة والزاخرة بالأحداث، لم يسقط في غياهب النسيان.

في القرن السادس عشر يظهر الكتاب مطبوعاً للمرة الأولى في مدينة أشبيلية عام 1575. القليل جداً من أعمال القرن الوسيط كانت قد طُبعت بشكل مبكر. أعوام فيما بعد، في 1642، يُعاد طبعه مجدداً؛ ويكون قد قرأه كبار كُتاب القرن السابع عشر الإسباني، كما عليه وضع الكاتب المعروف غراثيان بالتاسار صاحب العمل الضخم (الناقد El Criticón) معجباً به بعمق وكتب عنه الكثير من التقریظات النقدية المهمة. لقد اعتبره رجال القرن الثامن عشر نموذجاً يُقتدى به في الأسلوب والمحتوى. إن الإعجاب بعمل دون خوان مانويل وتتابع طبعاته على مدى القرن التاسع عشر، جعل من قيمته الأدبية لا جدال فيها. تعايش الملايين من القراء مع صفحاته المرة تلو الأخرى. وما يزال العمل حياً لأن القُرّاء حافظوا عليه طوال ستة قرون. إن قراءة الكوندي لوكانور اليوم لا تعني العودة إلى الماضي وحسب، بل أن تحمل هذا الماضي إلينا، الماضي الذي مازال يهمننا، ويجعل منه حاضراً في المقومات الحياتية والثقافية التي بذرها والأثر الذي تركته حتى أيامنا هذه.

عندما انتهى دون خوان مانويل من كتابة الكوندي لوكانور في عام 1335، كان قد بلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً (ولد في عام 1282). وكان قد كتب أعماله الرئيسية وهي: كتاب الفارس والتابع (حامل الدرع) Libro del caballero y el escudero وكتاب الأحوال Libro de los estados. في الأعوام التي تتوسط 1330 و1335 والتي كان فيها في قطيعة مع ألفونسو الحادي عشر، كانت أعوام نشاط أدبي مكثف. لقد كانت حياته السابقة مكتظة بالنشاط السياسي، نتيجة لوضعه الاجتماعي. لقد كان دون خوان مانويل ابناً للإنفانتى (الأمير) دون مانويل وزوجته الثانية بياتريث دي سوابيو (أي أنه ابن أخ الملك ألفونسو العاشر). وُلد في إسكالونا في يوم 5 مايو (أيار)

من عام 1282. بعد موت أبيه وله من العمر أقل من سنتين، بقي في رعاية أمه حتى موتها في عام 1290. لهذا أصبح وريثاً لأملاك واسعة وهو لايزال ابن ثمانين سنوات، وقد حملته طموحاته الكبيرة منذ حينها إلى العمل على توسيعها بكل السبل المتاحة، وهذا الطموح الثابت بجوار تفاخره بمكانته وشعوره كوريث لنسب ملكي، جعل من شخصيته السياسية تكتسب أبعاداً محددة منذ فترة مبكرة لتضعه في المصاف الأول للتاريخ الإسباني.

جرت حياة دون خوان مانويل في أعوام أزمة مضطربة في وضع شبه الجزيرة الإيبيرية. فمئذ موت ألفونسو العاشر عام 1284، دخلت كل ممالك شبه الجزيرة، خاصة قشتالة، في عصر يسمها بشكل رئيس بسمة التمزق السياسي والذي استمر لوقت طويل. إن الخلافات والنزاعات بين فرق النبلاء المتعددة كانت مستمرة خلال فترة حكم الأقلية في زمن فرناندو الرابع وألفونسو الحادي عشر. في نظرة عامة، تأثرت بالواجهة والخلاف المتجدد بين النبلاء والشعب، كما أن الانحطاط الاقتصادي كان في وضع قائم.

بعد ألفونسو العاشر صعد إلى العرش سانشو الرابع، الذي ضم دون خوان مانويل تحت رعايته بعد موت أمه. لقاؤه بالملك يسرده لنا في كتاب الأسلحة. في عمر اثني عشر عاماً (1294) بعد أن يستقر عند حدود مدينة مرسية Murcia، ويقول في المؤلف في هذا الشأن: «لقد أرسلني الملك إلى هناك، وقد كان لي فريق جيد من خاصة الجنود والتابعين في مواجهتهم لقوات الحسن بن بكر بن زيان». لم يشترك خوان مانويل في هذه المعركة لأن حاشيته لم ترغب في أن يشارك معهم لأنه كان مايزال صبياً يافعاً.. لقد تم اللقاء مع سانشو الرابع في مدينة بلد الوليد وقد استقبله بعطف وزاد له من الأراضي وسعى لتزويجه ب الأميرة إيزابيل ابنة ملك مايوركا. بعد استقباله فيما بعد في بينيافييل Peñafiel، منحه الملك الأموال لبناء قلعته، ومن هناك يمضي إلى مدريد، حيث يحدث اللقاء المؤلم مع الملك المحتضر والذي يؤثر فيه بعمق مما يتسبب في إشعال فتيل النزاع على العرش الملكي. على الرغم من سنه الصغيرة التي جعلته لا يتدخل في النزاعات حول السلطة التي نشبت بعد موت الملك سانشو عام 1295 مباشرة، إلا أنه سرعان ما يصبح طرفاً فيها، بحيث إن النزاع، بالإضافة إلى الصراع السياسي، سوف يسيطر على الجزء الأكبر من حياته.

يلتقي في عام 1303 في شاطبة Jativa مع خايمه الثاني، والذي يعرض عليه الزواج بابنته كونستانثا، الطفلة صغيرة السن، والتي يتزوج بها فيما بعد في عام 1311. وحصل بقبوله وعد

الزواج على مهر يتيح له عوائد ووضع اليد على مدن إشبيلية وسانتا بوليا والمودوبار ومقاطعات أخرى. قبل ذلك، في عام 1296، كان قد عقد قرانه على دونيا إيزابيل المايوركلينية، والتي ماتت بعد هذا الزواج بسنتين. وهكذا يقترن مرة أخرى بالعائلة القشتالية المالكة عن طريق زواجه بابنة الملك. يطمئن النبيل الطموح مجدداً على أملاكه في مواجهة الأخطار الطارئة. ولم يكن هدفه سوى الإبقاء على أحواله بصورة كبيرة أقرب إلى أحوال أية مملكة، معتمداً على تحالفاته مع مملكتي أراغون وقشتالة بصورة متبادلة، كل حسب مصالحه.

بعد سنوات من الحرب، تم إقرار السلام بين مملكتي أراغون وقشتالة. وفقد الدون خوان مانويل مدينة إشبيلية نتيجة أنه كان أحد مهندسي هذا الاتفاق، والتي ستلتحق نهائياً بمملكة أراغون، لكنه بالمقابل يضم لأملاكه مقاطعة ألكون (كوينكا) الشاسعة والاحتفاظ ببيينا. لقد تحول النبيل القشتالي إلى رجل ذي نفوذ؛ فأملكه من الاتساع، بحيث إنه كتب لابنه فرناندو في كتاب الأبد: «يمكنك أن تمضي من مملكة نابارا Navarra حتى مملكة غرناطة، وفي كل ليلة يمكنك النوم في ضيعة مسيجة أو في قلعة مما أملك».

مضت أعوام عديدة لم يتعكر فيها سلام النبيل سوى من بعض المناوشات مع المسلمين، فقد انتهت أوقات التآزم والخلاف التي حدثت في علاقات ملكي قشتالة وأراغون. في عام 1309، وبعد لقاء أريثا Ariza الذي شهده خوان مانويل، حتى أن الملكين فرناندو وخايمه قررا تنظيم حملة مشتركة ضد غرناطة. إلا أن الفشل الذي نتج عن الحملة زاد من حدة التوتر مجدداً بين المملكتين؛ ومن ثم فرار خوان مانويل ودون خوان (الشقيق الأصغر للملك سانشو الرابع) أمام أسوار الجزيرة الخضراء Algeciras مما أوجع الغضب الملكي والمواجهة من جديد مع فرناندو الرابع، هذا الخلاف الذي سرعان ما ينتهي نتيجة لجهود المصالحة التي قامت بها ماريا دي مولينا.

في عام 1312 يتزوج دون خوان مانويل بكونستانثا، ابنة خايمه الثاني، التي كانت محتجزة آنذاك في بيينا Villena، لأنها كانت ماتزال صغيرة السن على الزواج. في العام نفسه يموت فرناندو الرابع. ويصبح كاتبنا من النبلاء المشهود لهم في السياسة القشتالية، مما يجعله طرفاً مباشراً في النزاعات على السلطة أثناء فترة حكم الصغير ألفونسو الحادي عشر. في عام 1319 يموت في غوطة غرناطة كل من دون خوان ودون بيدرو، اللذين كانا رفقة دونيا ماريا مولينا، بعد أن شكلا مجلس الأوصياء، كانت الخلافات تبرز بينهما في بعض الأحيان، مما أتاح لـ دون خوان

مانويل القفز إلى الخط السياسي الأول. مما جعله يسبق منافسيه دون خوان تويرتو (الأعور) والإنفانتي دون فليبي بإعلان نفسه وصياً ملكياً ووالياً على الأمور، ويعترف به عدد من المدن. وتخيم الدسائس على مدى السنوات التالية. وبموت ماريا دي مولينا في عام 1321، يعلن نفسه وصياً على إكسترامادورا وطليلة، بينما يعلن منافسوه ذلك في أماكن أخرى. ووجدت مدن وإقطاعات نفسها في نزاعات كبيرة، تنسحب أحياناً أو تعلن تأييدها لواحدة عن أخرى. في عام 1325 بإعلان بلوغه سن الرشد (كان قد ولد في 1311) يمنح ألفونسو الحادي عشر المناصب الرئيسية في مملكته لنبله متضامنين مع عمه الدون فليبي. ويتحالف دون خوان مانويل مع دون خوان التويرتو، إلا أن هذا التحالف تنفصم عراه عندما يطلب الملك يد دونيا كونستانثا للزواج، وهو ما دفع دون خوان مانويل الطموح إلى الموافقة في الحال حالماً برؤية ابنته جالسة على عرش قشتالة. لكن هذا الزواج لم يتم أبداً، فقد حبس الملك دونيا كونستانثا في تورو وتزوج بالأمريرة البرتغالية لإنفانثا دونيا ماريا. مما أحبط طموحات دون خوان مانويل، فبقي ساخطاً وجريحاً في كرامته، يضاف إلى هذا موت زوجته (1327) وأبيها، فقد خلع دون خوان مانويل تأييده لمملكة قشتالة وبدأ العمل ضد ألفونسو الحادي عشر في واحدة من أكثر تمرداته دموية. توغل النبيل في الأراضي الملكية، الأماكن المخصصة للقلاع الملكية، وتوالت المواجهات، التي تتخللها فترات من السلام والهدنة على مدى السنين، حتى يحل السلام مع الملك (1329). يشمل التحالف إعادة الأراضي المسلوقة والمناصب الملكية وتحرير ابنته كونستانثا. كان ذلك إعلاناً عن سلام هس لم يستمر طويلاً، بسبب عدم الثقة المتبادل. انفصم الوفاق بينهما عندما رفض دون خوان مانويل تأييد الملك في حصاره لجبل طارق. فيما استمرت الدسائس والهجمات الدبلوماسية. كان ألفونسو الحادي عشر قد اتفق على تزويج شقيقته ليونور من ملك أراغون وذلك للحد من تأييده لصهره دون خوان مانويل، مما حدا بالنبيل القشتالي الحاذق أن يبادر بالزواج فوراً من دونيا بلانكا نونيبث دي لارا (1327) والتي ينجب منها ولداً هو فرناندو، وأيضاً تزويج ابنته بالأمير إنفانتي دون بيدرو، وريث العرش البرتغالي.

مع استمرار فترات السلام والهدنة: التوتر والشك المتبادل بينهما. في عام 1336 يشتعل فتيل المواجهات والذي انتهى بهزيمة البرتغاليين المؤيدين له، وحصار قلعته في بينيا فييل، مما اضطره إلى الهرب إلى أراغون. في النهاية، في العام التالي، كان قد توافق بشكل تام. مع ألفونسو الحادي عشر واشترك ولو بصورة متأخرة في انتصاره في معركة ديل سالادو (1340) وفي

احتلال الجزيرة الخضراء (1344). لكنه دون شك لم يغفر للملك، الذي حاول إقحامه في مواجهات مع الأراغونيين والبرتغاليين. عن طريق الدسائس والمؤامرات التي لم تنته إلا بموته في عام 1348. ودُفن جثمانه في دير بينيا فييل، الذي كان قد شيده هو بنفسه في عام 1318، وأمر أن يدفنوا معه أيضاً مجلد مؤلفاته كجزء من بقايا رفاتة.

على الرغم من الاضطرابات المستمرة، فقد بقي دون خوان مانويل وفيّاً على نقل مؤلفاته، فالمجلد الذي يضم أعماله وكان قد راجعه بنفسه وأخفاه في بينيا فييل لم يتم العثور عليه. وعلى الرغم من هذا الاهتمام، بنتاج ضميره الفني، فلا معرفة لنا بكل أعماله، وهو الكثير الكتابة نوعاً ما. في الوقت الذي كان فيه الزعيم القشتالي مشغولاً بالنزاعات والدسائس السياسية، كان لديه الوقت الكافي للكتابة، وإن كنا لا نحتفظ له إلا بـ«كتاب الفارس وتابعه» (حامل الدرع)، و«كتاب الأسلحة» Libro de las armas، و«كتاب الأبد El libro infinito»، و«كتاب الأحوال» Libro de los estados، و«كتاب القنص» Libro de la caza، و«التاريخ المختصر» Libro abreviado، و«تفسير الارتقاء» Tratado de la Asunción، وإن كان الكتاب الأكثر شهرة من بينها وهو كتاب «أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو»، كتابه الذي نضع له الترجمة العربية هنا.

إن التحليل الإجمالي يدفعنا إلى اعتبار أننا أمام رجل مثقف - رغم أن التأهيل الذي تلقاه يشمل إلى جانب المعرفة بفنون الحرب، المعرفة بتلك الأشياء التي لها علاقة بالتاريخ واللغة اللاتينية- وكتابه يعتبر الأول في بانوراما الأدب الإسبانية القشتالية - وكان على وعي بأدوات مهنته. هذا الوازع الفني، إضافة إلى الانشغال بمظاهر مادة كتاباته، تنطوي على انشغال عملي مرهف، تجره إلى درجتها القصوى في كتاب اللوكانور، والكمال التدريجي في عمله، باجتماع الوازع الفني مع الطموح والتفاخر، جعله يدرك بدرجة كبيرة أهمية الأدب كوسيلة للسمو بالذات: وهذا ما يشير لكثرة ذكره لأعماله والاختباسات الذاتية المباشرة. كمقياس للتمكن في مقابل مما هو معتاد من أعمال في العصر الوسيط، أو بصورة غير مباشرة باتباع الابتعاد الظاهر دون أن يترك التجلي الذهني للنبييل الكاتب، والتي تعلي من شأنه في مناسبات عديدة وبلا خجل.

إن كثرة الاقتباسات الشخصية، قد حملت جانباً كبيراً من النقد على تحليل أعمال دون خوان مانويل، خاصة كتابه الكوندي لوكانور، باعتباره مفتاحاً لسيرة ذاتية. لقد تم البحث عن سيرة مدفونة فيها: من السهل العثور على تطابق ما بين شخصه والمشكلات التي يتبناها في عمله، لكن لا يجب

البحث في جميعها عن شخصه فيها. لكن من غير المشكوك فيه أن الدون خوان مانويل يشخصن ذاته عبر الكوندي لوكانور، وهذا ما يجعل الشك في كل القضايا المطروحة على باترونيو أنها قضايا خاصة به، إنها حالات أو معضلات وعيه، والتي يتم حلها بالتوافق مع الحكمة الأخلاقية التي تستشف من الحكاية. وهذا ما جعل العديد من الأمثال والحكايات يتم تفسيرها على أساس السيرة الذاتية (البيوغرافية)، خاصة في صلتها مع العلاقات المتأزمة مع ألفونسو الحادي عشر. لكن دون شك، فإن كتاب الكوندي لوكانور، مثله مثل أعماله الأخرى التي نجد فيها حضور المؤلف بشكل مستمر، فلا هو بالذاتي ولا الواقعي ولا المتخيل. لأن الدون خوان مانويل يستخدم دائماً الإشارة المستمرة إلى شخصه بالقول «وحدث هذا لي...»، والتي تتكرر تقريباً بصورة ثابتة على مدار جميع الأمثال، كمورد أسلوبية مضاف، مغطياً على أي استفادة أخرى، مما يشكل صيغة مؤكدة للوصول إلى نوعية القارئ الذي يهمله.

من قراءتنا للعمل، لا نعثر على صبغة توثيقية شخصية قوية في كتاب اللوكانور، بل تزهو فيه الانشغالات الحميمية ومعاناة الكاتب الشخصية. مثل أي شخص آخر، يعرض لمواضيع ومعضلات تشغله ويقدم خبراته في أعماله. هذا التلميح الثابت ليس سوى مظهر من مظاهر أسلوبه التعليمي. بالطريقة نفسها، نجد الإشارة الختامية لدون خوان مانويل نفسه في كل مثال، لا يجب أن تُفسر بأكثر من كونها مطالبة لتأكيد أبوته للعمل ومحاولة للتأكيد على صلاحية تعاليمه. لكن دون شك أن شخصيته تبرز لنا بصورة غير مباشرة، كانعكاس الضوء، عبر ما يقوله كل من لوكانور وباترونيو، كما عليه عبر شخوص كتبه الأخرى، وهذه واحدة من العديد من نجاحات المؤلف: تكريس نفسه في مركز الأعمال التي ألفها والنقل عبرها عن خبرته الشخصية التي يشير إليها باستمرار.

على الرغم من حضور مختلف التوجهات فيه - المؤرخ، المدافع عن العقيدة، والموجه الأخلاقي. - إلا أن ميزته ككاتب تكمن بصورة أساسية في الجانب التعليمي. إن أعمال دون خوان مانويل تتحول بلا شك إلى أفضل دليل عن الولوج التعليمي الأخلاقي الذي يصنع ويشغل آداب العصر الوسيط. بهذا المعنى، كما عليه في معانٍ أخرى، يبرهن على كونه التابع الوفي لعمه ألفونسو العاشر. فهو مثله، إذ إن خبرته وهمه الثقافي قد حملاه ليكون بمثابة قنطرة ما بين المعرفة والطبقة الاجتماعية المنتمي إليها. لقد تحول عمل النبيل القشتالي إلى «دليل أصيل للمعلمين»، وربما الأكثر

جذباً وأهمية فيه هي تلك الثنائية التي تقدم الكاتب الأخلاقي والقاص. هذه المظاهر تتقارب في اللوكانور، وفيه تمتزج وتتداخل في محاولة للهروب من التقولب وشحة الكتابات التعليمية - الأخلاقية. إن التعليمية كخيطة قيادي تشترط ملامحها الأساسية في كل أعمال دون خوان مانويل. لا يبدو لنا الكتاب وحسب مرجعاً في المعرفة اللاهوتية أو حول الطبيعة، بل وأن المؤلف يستغل الفرصة في كل مناسبة من أجل عملية هضم تعليمي - أخلاقي حول مادة ما، بل دون رابط معين في أحيان عديدة. في المعنى ذاته يمكن تفسير بعض الجمل التوجيهية أو ذات المحتوى العقدي التي تظهر في أمثال معينة، مُضمنة بمهارة وغير منفصلة في طرف منها عن محتواها.

إن النمط التعليمي، المبتكر في اللوكانور منذ المدخل، قد فرض عناصر ذات خصوصية في الكتاب. وهو كصيغة يختار المثال، لأنه يضم العناصر الأساسية التي يسعى إليها ولأنه، من ضمن تقاليد آراغونية قديمة، قد حوله إلى مكمل ضروري بمحتواه الديني والفلسفي والأخلاقي. في اللوكانور يكرر صيغة (باترونيو: المستشار، ولوكانور: الواجب نصحه)، لكنه يحشر فيها الحكايات، مما يحدث توازناً كاملاً ما بين الحكائي والتوجيهي، والذي هو بصفاته الرسمية، يجعلان منه أكثر الكتاب لمعناً في السرد الأوروبي في عصره. إن الحرص على الغاية التعليمية يفرض أيضاً شروطه على الأسلوب: فكما يقوم الطبيب بتحلية الأدوية، «بهذه الطريقة - يقول - سيكون هذا الكتاب، فمن قرأه يجد متعة في حكمه وأمثاله، واستفاد منه جل الاستفادة، وأما من لم يفهم منه شيئاً فسيجد في قراءته من الكلمات الجميلة الواعدة، والذين لن يقربوا الكتاب سيفقدون الكثير من الأشياء التي يستفاد منها وهي ممتزجة هناك، وحتى لو لم يشاؤوا، سوف يستفيدون منها: يتم التوجيه أخلاقياً بمصيدة اللطف».

الغاية التعليمية تقيد أيضاً بنية وموضوع الكتاب، وهذا يتم تبريره تبعاً للجمهور الذي يتوجه إليه. خلقت تركيبية الكتاب للنقد معضلات عدة، كما أفرزت تأويلات مختلفة. إن تقسيمه إلى خمسة أجزاء تسبقها مقدمتان، واضح تماماً: الجزء الأول، عادة ما ينشر منفصلاً، يضم واحداً وخمسين مثلاً «وهي بسيطة وواضحة». والجزء الثاني، إضافة إلى برهانه لـ دون خايمه سيد خريكا، «يضم مائة مثال، البعض منها غامض والآخر ليس واضحاً بشكل كافٍ». والجزء الثالث، شبيهه بالسابق، «يضم خمسين مثلاً ومائة مثال». أما في الجزء الرابع فيقول: «كان عليّ أن أدون فيها ثلاثين مثلاً من الغموض لو أدركت فهمها لكان شيئاً رائعاً»، وفي الجزء الخامس والأخير، المختلف تماماً عن

الأجزاء السابقة، يظهر بوضوح كاتب العصر الوسيط الأخلاقي القلق لرغبته بتخليص الروح من مساوئ الحياة الفانية. على الرغم من وضوح التقسيم، فالعمل من الممكن أن يُختصر، حسب المادة التي يضمها، إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منها مكون من الأمثال (حكايات الجزء 1)، وجزء ثانٍ من الأمثال (الأجزاء 2، 3، 4) وجزء ثالث يضم التفسير اللاهوتي (ج 5). هذه الأجزاء الثلاثة تظل متباينة ومُبررة في النهج المختلف للمادة التعليمية. أي أن الجزء الأول يستخدم الأمثال، والثاني الأحكام، والثالث تجسيد لاهوتي نظري منسق.

بناء الجزء الأول من الكتاب لا يمثل أي تجديد في بانوراما الأدب في عصره. فالكتاب مبني على سلسلة من القضايا التي يعرضها لوكانور على باترونيو، والتي يجيب عنها هذا بطريقة قاطعة وحاسمة. في هذه البؤرة الحوارية تتداخل الحكايات لتشكل نموذجاً مقنعاً يستخلص منها بصورة صريحة عبرة تعليمية تشكل بدورها خطة عامة ناجعة بحضور المؤلف. في كل مثال برز العنصر التعليمي في ثلاثة مستويات: حوارية اللوكانور مع باترونيو، وفي الحكاية أو النادرة التي يقصها وفي أشعار المؤلف، حيث يغادر عبرها دوره راوياً، ضاغطاً ومختصراً مثالية الحكاية. الحكاية التي يضمها كل مثال ما تزال حتى اليوم ذات قيمة لا تضاهى. حتى لو كان في البعض منها - وهي قليلة - عرض المشكلة من طرف الكوندي والخالصة من طرف باترونيو تشكلان الفضاء الأكبر منها، إذ تقدم محتوى أكثر ثراء من الحكايات نفسها، وهي تلك التي تتركز في كل مثال وتظهر أستاذية دون خوان مانويل وهو يقص علينا ما كان يقصه عليه عصره. إن بنية الكتاب بصورة عامة بسيطة جداً، لكن معتنى بها: البعض وهو الرقم الأكبر منها، تتطور خطياً: بعد ظهور الشخص أو الأشخاص وموقعهم في الفضاء والزمان، يطفر مباشرة إلى العقدة، تطور العالم الحكائي المشيد بالحدث والشخص: شخص نموذجية تمثل تطوراً ثلاثياً. في أخرى يتقدم جانب من الحل، خالقاً نوعاً من قوس أو جسر حكائي. في النماذج الأفضل، تتحول نادرة بسيطة إلى حكايات واقعية قصيرة، مانحاً إياها مناخاً يدور حول الشخص، وخاطماً لها أسلوباً يَمْتَلُ دقة وحساسية. نعرف عنها كلها تقريباً المصادر المباشرة المؤلدة لها، لكن أيضاً بمقارنتها ببعضها بعضاً، نستطيع التعرف إلى فنها وأصالتها.

لقد ركز النقد اهتمامه بشكل كبير في مادة مصادر المؤلف. من الصعب دون شك في العديد من الحالات، الإشارة إلى المصادر مباشرة، بل من الواجب الحذر في الحديث عن الحكايات

المتقابلة: العديد من المواضيع تقدم اختلافات متعددة في نصوص كانت شائعة في العصر الوسيط كما عليه في كتب متنوعة مثل: كتاب القطط Libro de los gatos وكتاب الحب الطيب El libro del buen amor، إضافة إلى مصادر لنصوص فارسية قديمة، والذي يبرز فيه أستاذية دون خوان مانويل بالجمع ما بين مصادر مختلفة من تراث العصر الوسيط والذي يمثل الموضوع فيه بصيغ متباينة ومتعددة. الأكثر قرباً لدون خوان مانويل لا بد أن يكون كتاب «كليلة ودمنة»، المجموعة التي أمر بترجمتها في حينه الأمير ألفونسو العاشر. الأكثر وضوحاً كما أسلفنا سابقاً هو تأثير المصادر العربية، والمشار إليها في الأمثال: 10، 15، 20، 21، 24، 26، 30، 32، 35، 41، 46، 47 وغيرها. في أحيان عديدة تتمثل في التقاليد الشفاهية، كما عليه الأمثال أو النوادر البسيطة. على أية حال، التأثير العربي في أعمال دون خوان مانويل لا جدال فيه اليوم وقد كتب فيه النقاد والباحثون العديد من الدراسات، ذلك أن المؤلف الأمير قد أمضى كل حياته على اتصال مع العرب، كحليف لهم في مرات، ومرات أخرى كعدو. بلا أدنى شك، المهم عند الحديث عن المصادر المستخدمة من قبل مؤلفنا هي تلك الحرفية والفنية المرهفة التي صاغ بها تلك النصوص.

لكن ليس محتوى الحكايات الذي يبدو جديداً ومتنوعاً وحسب؛ بل إن دون خوان مانويل أيضاً صاحب أسلوب مرهف، خبير بالوسائل المتاحة ومدرك لفائدتها. من المعتاد فيه استخدام الشخصيات البلاغية، والتنويعات والتدرج الأسلوبي والسيكولوجي في الوقت نفسه، وتناسق العناصر والتقابل وتوزيع الأحكام. فيما يتعلق بالأسلوب، فلا بد من التركيز على معجمه الانتقائي الثري، التوصيف المتنوع والمحدد، والجملة المكتنزة بغرضها. إذا كانت للغة ألفونسو العاشر الحكيم قيمة آلية لا غير، ففي لغة ابن الأخ تتحول إلى فن. إن عمله يمثل الانتقال من النثر العلمي إلى النثر الجمالي الذاتي. مثاليته اللغوية تتجلى في الانتقاء، وفي الوضوح والالتزام في الوقت نفسه، كما يستجيب لتلك الغاية في عمله. مقيداً بالجمهور الذي يتوجه إليه، حاول وحقق أن تكون تعليمته لطيفة وسارة: اللغة المزخرفة تستقطب الاهتمام بشكل أفضل. وبهذه الحال وضعت البلاغة نفسها في خدمة الغرض التعليمي والحكائي. الموضوعية البارزة في العمل، على حد سواء مع الأسلوب والبنية، تمضي مقيدة بالغاية التعليمية وبالقارئ الموجهة إليه. فالمواضيع التي تطرأ عند دون خوان مانويل هي نفسها التي تبرز في كل التراث التعليمي الأوروبي، لهذا يجب تأطيرها إداً في إطار السياق المزدهر لأداب العصر الوسيط، حيث التعليم الديني والأخلاقي أو «تربية الأمراء» يكتسب أهمية كبرى. إن الإيديولوجيا الداعمة لتوجهاته التعليمية، خاصة تفكيره الديني، تعود إلى العقيدة

الدومنيكية: الدفاع عن الانضباط الاجتماعي القائم، المرجعية المتواطة بالمجتمع، وفكرة المحافظة على الوضع الخاص والأعمال الطيبة المكتسبة منه، تبدو وكأنها تنبع من الفكر المسيطر في هذه المرجعية الدينية، والتي بطريقة ما ستتحول إلى طوق نجاة للنظام الطبقي.

من الصعب تلخيص المواضيع التي تظهر في الكتاب، لأن أغلبية الأمثال تفترض تشكيلة كوكبية منها. في المخطط الآخر، تبدو المواضيع متعددة الأوجه ومن الصعب تلخيصها. يحاول دون خوان مانويل الإحاطة بكل عناصر التصرف البشري مقدماً لنا معرضاً من الأشخاص والمعضلات التي تشكل الواقع الاجتماعي لعصره والتي هي ذات صبغة عالمية في الوقت نفسه، على الرغم من أن النظرة التي يتبناها هي نظرة النبيل بشكل دائم. وهكذا يبرز موضوع الحرب والسلام والثراء والردائل والفضائل والوفاء والخديعة والكذب والصدقة. المواضيع التي تظهر في الكتاب لا حصر لها، والعديد منها متداخل مع أمثال أخرى؛ ومع ذلك فهناك بعض المواضيع تبدو واضحة المغزى كما هو عليه موضوع المستشار والشرف والشهرة والحرب والمرأة. موضوع المستشار هو موضوع مركزي، ويعتبر دون شك الأكثر أهمية، وعلى الرغم من أنه حاضر في كل النماذج، إلا أنه يبرز بصورة حاسمة في نماذج متعددة.

من المواضيع الأخرى التي من الضرورة أن تظهر بسبب صفات المؤلف الشخصية أو اللحظة التاريخية التي ألف فيها كتابه، كان في زمن الحروب. وعن هذا الموضوع يلجأ في العديد من المشاهد لتبيان أثر الحروب، لاسيما أن كل حياته كانت محاطة بالمشاكل والدسائس السياسية، ومنذ وقت مبكر - لم يكن له أكثر من اثني عشر عاماً - وجد نفسه في خضم النزاع ما بين المسلمين والمسيحيين؛ وهناك وجد فرصاً متعددة ليشارك في المعركة. من المنطقي في مجتمع ينظر إلى الحرب على أنها نشاط أساسي، أن يبرز الموضوع، حتى لو لم يكن بتلك الوظيفة الرئيسية ولا لمكانة «المدافعين» الذين ينتمي إليهم دون خوان مانويل. لقد كانت الحرب للنبيل بمثابة وسيلة للشهرة، واجب دولة ووسيلة للإنقاذ. إن الشرف والشهرة هما عمودان رئيسان في فكر دون خوان مانويل. فهما حاضران بكل الطرق في مجموع الأمثال كلها تقريباً، وقد قرنَ كلتا الكلمتين بشكل دائم بأخرى مثل «الفوز» و«جيد» و«الثراء» و«المكانة» و«السلطة».. إلخ.

لقد كان دون خوان مانويل كاتباً مقيداً بزمه، وبسيرته والطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها. بتوجيه عمله إلى طبقة «المدافعين» قد قيد بنية الكتاب وأسلوبه ومادته. المعضلات يتم طرحها

وحلها من خلال وجهة النظر الطبقيّة. في «كتاب اللوكانور»، ينعكس هذا المجتمع بطريقة أقلّ تنظيماً لكن ربما بشكل أكثر تعقيداً وثراءً. في هذا الكتاب تبرز بوضوح محاولته في الترفيه؛ فالمذهب القائم في كتبه السابقة يمضي من التنظيري نحو المثالي، لهذا دون خوان مانويل في هذا الكتاب أروع الكلام بما استطاع له من سبيل، ممازجاً ما بين المثال والحكمة والحكاية المتداولة. كل تلك التركيبة التي تجعل من كتابه هذا مرجعاً لفهم عادات واخلق وبنى مجتمعات بأكملها، وتمنحنا نحن القراء فرصة الدخول في عوالم شاسعة وأفكار مهيبة.

كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو

هذا الكتاب دونه دون خوان، ابن النبيل الأمير إنفانتي دون مانويل، رغبة منه أن يرشد الناس لما ينبغي عليهم فعله كي يزيدوا من شرفهم وأعمالهم وأحوالهم.² وليكونوا أكثر قرباً إلى الطريق المؤدي إلى خلاص أرواحهم. وقد وضع فيه من الأمثال الأكثر نفعاً مما كان قد سمعه، ليعتبر بها البشر ويتعلموا منها. ومن الروعة أن أي شيء يحدث لأي إنسان، أن يجد مثيلاً له هنا مما كان قد وقع لإنسان آخر.

وقد رأى السيد دون خوان وعرف أن الكتب قد تضم العديد من الأخطاء في حال نسخها، فالحروف شبيهة الواحدة بالأخرى، وقد يكتبون حرفاً بدلاً من حرف، فيخطئون ويغيرون المعنى، ومن يقرأها بعد ذلك سيتهم المؤلف دون وجه حق. ولأن دون خوان على علم بذلك، فهو يرجو من يقرأ كتابه هذا أو أي كتاب من تلك التي دونها، ألا يتهمه بالخطأ حتى يطلع على النسخة التي أمر بتدوينها وصححها بيده وبخطه. والكتب التي ألفها، وهي التي كتبها حتى هذه الساعة: التاريخ الموجز، كتاب الحكماء، كتاب الفروسية، كتاب الأمير، كتاب الفارس وتابعه، كتاب الكوندي، كتاب القنص، كتاب العباقرة، وكتاب الأناشيد. وهذه الكتب توجد في دير الرهبان الوعاظ الذي أمر ببنائه في بنيافييل. وعندما تطلعون على كتبه هذه، يرجو ألا تنسبوا الأخطاء التي تقعون عليها إلى إهماله، بل إلى قصر في إدراكه، ذلك أنه تجرأ على مواضيع بهذا الشأن.³ لكن الرب يعلم أن غرضه من ذلك هو تعليم من لا حكمة لديهم ولا معرفة بالأدب. ولهذا كتب كل كتبه باللغة الرومانثية⁴ وهذا دليل على أنها موجهة للعوام ولمن لهم معارف متواضعة مثله.

ومن هنا تبدأ مقدمة كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو:

باسم الرب، أمين.

من بين الأشياء العجيبة الغريبة التي خلقها ربنا والتي أحسن فيها، هو عدم تشابه وجوه البشر، على الرغم من أن الجميع لهم الملامح نفسها، الواحد مثل الآخر. فالوجوه على صغرها تختلف اختلافاً كبيراً، والأقل غرابة أن تختلف فيما بينها بالإرادة والميول. فلن تجد إنساناً يتشابه بكل شيء في إرادته ولا في ميوله. سأضع لكم بعض الأمثلة حتى تدركوا ما عنيته بشكل أفضل.

إن كل من يحب الرب ويرغب في خدمته، يريد الشيء نفسه. ولكنهم لا يخدمونه بالطريقة ذاتها، ويختلفون في ذلك. وكذلك بالنسبة لمن يخدمون أسيادهم، فكل واحد منهم يرغب في خدمة سيده بشكل مختلف. كذلك بالنسبة لمن يزرعون أو يقومون بتربية المواشي، فهم يتمتعون ويقومون بالصيد وأشياء أخرى غيرها، وعلى الرغم من أنهم يقومون بالعمل نفسه، إلا أنهم لا يفهمونه ولا ينفذونه بالطريقة ذاتها. بهذا المثال وبأمثال أخرى غيرها من الصعب ذكرها كلها لطولها، تدركون ما أريد قوله إن كل البشر بشر ولكل واحد ميول وإرادة، فما أقل ما يشابه بعضهم بعضاً في هذه الأشياء، كما هي عليها سحناتهم. لكن الجميع يتشابه بقدر كبير على درجة أنهم كلهم يستخدمون ويرغبون ويفضلون من الأمور ما يستحسنونها ويتعلمونها بطريقة أفضل.

لهذا فكل من يرغب في أن يعلم الآخر عنه، عليه أن يقوم بعرضه بطريقة يعلم أنه سيعجب به. لاحظوا أن الأمور الصعبة لا تدخل بعض الرؤوس بسهولة، إما لأن أصحابها لا يفهمونها، أو بسبب نقص في فهمهم. والحال أنهم لا يستمتعون بقراءة بعض الكتب ولا يدركون فحواها. ولعدم استمتاعهم فهم لا يستفيدون منها ولا يعرفون عنها شيئاً.

لهذا السبب، أنا دون خوان ابن الأمير الإنفانتي مانويل، الضابط الأقدم على حدود مملكة مورسيه،⁵ قد كتبت هذا الكتاب بأجمل الكلمات بقدر ما استطعت، وأقمت بين الكلمات بعض الأمثال كي تكون نافعة لمن يسمعها. وقد عملت بهذا تشبهاً ببعض الأطباء الذين حين يقومون بتركيب دواء نافع للكبد وهو المحب بطبيعته للحلاوة، فهم يخلطونه بالسطر أو العسل أو أي شيء حلو آخر. وبما أن الكبد شغوف بكل شيء حلو، فيقوم بجذبه إليه، فينتفع حينها بالدواء الممزوج معه. ويقومون بالعمل نفسه مع أي عضو يحتاج إلى العلاج، مازجين معه ما يمليه عليهم العضو.

بهذه الطريقة، وبعون من الرب، قد دونت هذا الكتاب، فمن قرأه سيعثر على المتعة في الأشياء التي يجدها فيه. أما من لن يفهمونه جيداً، لا يمكنهم القول إنهم بعد قراءته، لن يقفوا أسرى كلماته الحلوة الرائعة، فلا يتركون قراءة ما يرافقه من أشياء نافعة، ويتعلمون منه دون أن يدركوا ذلك، تماماً كما يحدث للكبد والأعضاء الأخرى التي تنتفع من الأدوية الممزوجة بالأشياء التي تميل إليها. لذا أدعو الرب، التام في كل أفعاله، ببره وإحسانه، أن يهدي الجميع إلى الأعمال الصالحة وأن يعينهم عليها، وأن يرحم ويبارك من يقرأ هذا الكتاب بأن يجعله نافعاً لجسده ومخلصاً لروحه. والرب يعلم، إنني أنا دون خوان، أقول ذلك بصفاء نية. أما إذا عثروا على أشياء لم أوفها حقها كما ينبغي، فأرجو منهم أن لا يتهموا حرصي واهتمامي، بل إلى جهل مني. وإذا ما عثروا على شيء مفيد ونافع، فليشكروا الرب لأنه شاء للأقوال والأفعال كلها أن تكون كما ينبغي لها.

وهنا تنتهي المقدمة، ومن الآن فصاعداً سيبدأ محتوى الكتاب، على شكل حوار بين السيد الكبير مع مستشاره. السيد هو «الكوندي لوكانور» والمستشار هو «باترونيو».

مثال 1

ما جرى لأحد الملوك مع أحد مساعديه

تحدث الكوندي لوكانور ذات مرة مع مستشاره باترونيو على انفراد، قائلاً:

- باترونيو، رجل ثري من ذوي الشأن والنفوذ يدعي صداقتي والإخلاص لي، سرني يوماً وقال إنه قد عرض له حادث وكان أن عزم على مغادرة البلاد بلا عودة، وأنه، نظراً لما يمكنه لي من مودة وثقة، يريد أن يبيعي أجزاء من أراضيه ويترك الجزء المتبقي في عهدي. ولا أخفيك أن هذا يوافقني ويشرفني، لكنني أربح في سماع رأيك قبل أن أقرر بشأنه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- أنت في غنى عن مشورتي ونصحي، ولكنك ما دمت تطلب رأيي، فما أنا أقوم بذلك نزولاً عند رغبتك. في البداية لا بد أن أنبهك بأن ما قاله لك ذلك

الذي تعتقدون أنه صديق لكم إنما ليختبركم فيه، وهو شبيه بما حدث لأحد الملوك مع أحد مساعديه.

رجاه الكوندي أن يحكي له ما حدث.

- سيدي- قال باترونيو- كان لأحد الملوك رجل من رعيته يثق به كل الثقة. لكن البشر مجبولون على حسد الآخرين على ما لديهم من خيرات، وبهذا فقد حسده بقية الرعية على ما له من حظوة لدى الملك. وقد لجأوا إلى كل الحيل الممكنة لتعكير علاقتهما. كما اتهموه عند الملك بأشياء جمّة، لكنهم لم ينجحوا في الإضرار بسمعته ولا أن يثيروا الملك في مسألة وفائه وإخلاصه. لكنهم عندما فشلوا في كل المحاولات ولم يدركوا أي سبيل إلى ذلك، حدّثوا الملك من أن المساعد يسعى لقتله كي يؤول الأمر لابنه الصغير، عندها سيقوم الخائن بالحجر عليه وسيطر على إرادته ثم يقتله ويستحوذ على الملك. لما سمع الملك هذا الكلام تناهت قلبه الشكوك والظن السيئ في نوايا مساعده، على العكس من كل المحاولات السابقة التي كانت تخفق بشكل دائم. والإنسان الحازم يسعى للحسم في الأمور العظيمة قبل أن تضيع ويستحيل على المرء استرجاعها، ويفضل بالطبع اتقاء الشر والنأي عنه قبل الأوان. لذا فقد أخذ الملك يحتاط كثيراً من مساعده منذ أن تناهتته الشكوك، لكنه لم يستقر رأيه على فعل شيء حتى يتبين الحقيقة من عدمها. أما المتآمرون، فقد نصحوه بأن يتحقق من قولهم بالحيلة، وكان أن أشاروا عليه بما يفعل، وهو ما كان، وما عزم الملك على تنفيذه.

بعد أيام قليلة اجتمع الملك بمساعده، وبدأ التلميح له في حديث طويل لا نهاية له بأنه قد تعب من الحياة الدنيا وأن كل شيء زائل، واكتفى بتلك الإشارة في تلك المرة. وبعد أيام أخرى، حدثه مجدداً وقال له مرة أخرى وكأنه يكمل ما عناه في المرة الأولى، إن حياته وكل ما يحيط به بدأ يفقد اهتمامه. وكان أن كرر عليه الكلام نفسه في مناسبات عديدة وبصيغ مختلفة حتى توصل المساعد حقيقة بأن مليكه قد يئس من الحياة الدنيا وكل لذاتها وكنوزها. عندما رأى الملك أن مساعده قد اقتنع بما قاله له فأخبره ذات يوم بأنه يسعى لمغادرة البلاد وأنه يبحث عن بلد آخر، حيث لا يعرفه أحد، وهناك يبحث عن مكان منعزل وبعيد ويتوب عن كل ذنوبه ويسعى ليتوب عنه الرب ويباركه للفوز بحياة أبدية.

عندما سمع المساعد قول الملك، حاول رده عن عزمه بكل الأسباب والأعذار الممكنة كي لا يقوم بما نوى عليه. فأخبره من ضمن ما قال إنه لا يمكنه أن يتقرب أكثر من الرب بالتخلي عن

رعيته الناعمين بفضلته بالدعة والعدل، وهذا ما سيجلب عليهم الفتنة والنزاعات الأهلية، وهذا ما سيغضب الرب وتخرب بها البلاد، كما أنه إذا لم يجد في كل ما قاله سبباً مقنعاً للرجوع عما اعتزم عليه، فليفكر ولو لمرة واحدة في أمر زوجته وابنه الصغير وما يتهدد حياتهما وأموالهما.

فرد عليه الملك بأنه قد فكر بطريقة يحفظ بها مملكته من الفتن، وهو أن يترك الأمر بيد زوجته وابنه وبها تستمر رعيته على ولائها له. وأخبره بأنه يريد أن يترك الزوجة والابن تحت كفالته وعهده على أن يسلم له أمور كل القلاع والمدن حتى لا يتمرد أحد على ابنه. ثم عيّره له عن رضائه بخدمته له وثقته الكبيرة فيه وأنه قد خصه بذلك لثقتة به أكثر من أي شخص في العالم، خاصة أنه قد رباه بنفسه وقدم له الكثير مما هو عليه اليوم. كما أضاف الملك قائلاً إنه على يقين تماماً بأنه حين يقرر العودة سيجد كل شيء قد تركه في عهده على أحسن حال، وإذا ما وافته المنية فهو على ثقة بأنه سيخدم الملكة بكل إخلاص وسيربي ابنه أحسن تربية، ويحافظ على سلامة المملكة وأمنها حتى يؤول الحكم إلى ابنه.

حين سمع المساعد بأن الملك يرغب في ترك كل شيء تحت إمرته بما فيهما الملكة والابن، فرح بشدة وراح يحدث نفسه بأن يحكم كيفما شاء حتى يجد الأمور مناسبة ويخلو له الأمر.

واتفق أن كان للمساعد في بيته عبداً أسيراً يخدمه وهو رجل حكيم وفيلسوف كبير وكان من عادته التشاور معه ويطلب نصحه في كل الأمور التي تهمة، دون أن يعارضه في شيء منها. وعندما خرج ذلك اليوم من عند الملك، أسرع إليه وأخبره بكل ما جرى له، ولم يخف فرحه أن الملك يرغب في ترك الحكم والأمير تحت رعايته. عندما سمع العبد الأسير ما جرى لسيدته مع الملك، ورأى ما ينتويه من الاحتفاظ بالابن والمملكة لنفسه، عرف أنه قد أوقع نفسه في الشرك، فأنبّه على ذلك بشدة وحذره من أن حياته وأملاكه قد صارت في خطر، لأن كلام الملك ليس حقيقياً، كما أنه لم يكن يفكر في فعل ما قاله له، بل لا بد وأن أحداً قد دفعه لاختباره، وأنه على وشك أن يرسب في هذا الاختبار. شعر مساعد الملك بالحزن كثيراً إذ تأكد له أن ما يقوله أسيره هو عين الصواب. ولما رآه العبد الحكيم حزيناً ومهموماً أشار عليه بأن يقوم بحيلة تنقذه مما هو عليه.

قام المساعد على النحو التالي: إذ عمد تلك الليلة على حلق شعر رأسه ولحيته، وبحث له عن ثياب مهلهلة مما يلبس الشحاذ المتسكع في الطرقات وعلى عصا وحذاء ممزق، وأخفى في بطانة

تلك الثياب كمية كبيرة من الدوبلات النقدية⁶. وفي الصباح الباكر ذهب إلى القصر وطلب من الحاجب أن يوقظ الملك قبل أن يستيقظ أي أحد آخر، وأن ينتظر منه الإذن بالدخول. تعجب الحاجب لحال المساعد، لكنه مضى إلى الملك وقال له ما طلبه منه المساعد. وكان قد أمره الملك بأن يدخله فوراً وهو في دهشة من حاله، وسأله لماذا ارتدى هذه الأسمال. فما كان من المساعد أن يذكر الملك بكلامه وإصراره على مغادرة البلاد، ولأنه لا ينسى أبداً إحسانه له، فقد قرر أن يرافقه ويقاسمه حياة الحرمان والنأي التي يريد أن يفرضها على نفسه كما قاسمه من قبل المجد والعظمة. وإذا كان الملك نفسه لا تعز عليه زوجته وابنه ومملكته، وهو الملك والأب والزوج، فلن يعز عليه هو أي شيء. لهذا قرر أن يرافقه وأن يخدمه بشكل لا يلاحظه فيه أحد. كما أنه قد ملأ بطانة لباسه بكمية من المال تكفيهما طول العمر. وأخبره بأن عليهما أن يغادرا فوراً دون أن يتعرف إليهما أحد.

عندما سمع الملك كل ما قاله له مساعده، اعتقد أنه يفعل ذلك لوفائه الصادق، فأجزل له المزيد من الشكر، وحكى له نية الآخرين اتهمه وأن الأمر لم يكن سوى اختبار له. لقد كان المساعد على وشك الانخداع بسبب طموحاته، لكن الرب قد أنعم عليه بفضل نصيحة الأسير الحكيم في بيته.

وكما ترى سيدي الكوندي، إذ ليس من اللائق أن يخدعك من تحسبه صديقاً وفيماً، وكن على ثقة بأن ما قاله لك ليس سوى اختبار منه لك. لذا عليك أن تقنعه ما أن تلتقيه المرة القادمة، بأنك لا ترغب سوى في مصلحته وأنت لا تطمع في شيء من أملاكه، وأن الصداقة التي تشوبها مصلحة وشك فهي صداقة لا تدوم طويلاً.

ما أن رأى الكوندي أن باترونيو قد نصحه بأفضل نصيحة، فكان أن عمل بكلامه ومضت أموره على أحسن ما يرام.

ولما وجد الكوندي أن هذا المثال جيد، عمل على تدوينه في هذا الكتاب، وكتب ما يشير لهذه العبرة في بيتين شعريين يقولان: **لا تنخدعوا، ولا تعتقدوا أنه بلا سبب**

يؤذي الإنسان نفسه وعن قناعة من أجل آخر.

وبيتان آخران يقول فيهما:

بعون من الرب ورأي سديد يزول هم الإنسان ويحقق مراده.

وحكاية⁷ هذا المثال هي التالية:

مثال 2

ما جرى لرجل طيب مع ابن له

حدث مرة أخرى أن تحدث الكوندي لوكانور مع باترونيو، فحكى له عن انشغاله بأمر يريد القيام به. وقال إنه يعرف أن الكثير من البشر سيعيبون عليه فعلته، وسيعيبون عليه إن لم يفعل أيضاً، وربما يكونون على حق. وبعدما أطلعه على ما يشغله، رجاه أن يخبره بما هو فاعل لو كان في مكانه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- أعلم جيداً أن هناك من باستطاعته أن ينصحك أفضل مني، أعلم أن الرب قد منحك رجاحة في الرأي وأنت في غنى عن نصحي. لكنك ما دمت ترغب في ذلك، سأخبرك بما أراه مناسباً. ولكن قبل ذلك أسمح لي أن أقص عليك ما جرى لرجل طيب مع ابن له.

رجاه الكوندي أن يخبره بما حصل. قال له باترونيو:

- سيدي، حدث أن كان لرجل طيب ابن، وهذا الابن كان حاد الذكاء على الرغم من صغر سنه. وكان كلما رغب الأب في فعل شيء (لأن أشياء قليلة لا تحدث بسبب انتكاسة ما)، حتى ينبهه الابن للمساوي التي قد تنجم عن ذلك. وبهذا كان الابن يرد أباه حتى عن ذلك الذي ينفعه، فلا شيء عنده لا يخلو من عيب مهما اكتمل. وكما تعلم، فإن الشباب الأذكياء لديهم الاستعداد لفعل ما لا يوافقهم، إذ إن ذكاءهم دائماً ما يدفع بهم لعمل أمور قد لا يدركون كيفية إنهاؤها. وعلى الأغلب ما يقعون في الخطأ إذا لم يجدوا بالقرب منهم من ينصحهم. وعليه ففي مناسبات عديدة، أصبح الفتى

عائقاً في طريق أبيه بسبب ذكائه وقلة تجربته. لقد تحمل الأب ابنه طويلاً على الرغم من الإزعاج من الأضرار التي لحقت به بسبب امتناعه من فعل بعض الأمور لانتقادات الابن المستمرة. في النهاية قرر الرجل أن يقوم بما ساقصه عليك الآن لتكون عبرة له وليدرك ما عليه أن يقوم به بعد ذلك.

كان الرجل الطيب وابنه فلاحين يعيشان قرب إحدى القرى. في يوم ما طلب الأب من ابنه أن يرافقه إلى السوق لشراء بعض الأشياء التي يحتاجانها، وأخذوا معهما دابة. وسار الاثنان إلى جانب الدابة ولم تكن تحمل على ظهرها أي حمولة، ومر بهما بشر قادمون من تلك البلدة التي يقصدانها. وبعد أن تبادلوا التحية وافترق كل في طريق، قال أولئك البشر إن الأب والابن أحمقان تماماً لأنهما يسيران على أقدامهما بينما الدابة في راحة. عندما سمع الرجل الطيب كلامهم، أراد أن يعرف رأي ابنه فيما قالوه. فقال له الفتى إنه من غير المعقول ألا تحمل الدابة أي شيء على ظهرها. عند ذلك أمره الرجل الطيب أن يقوم بركوبها.

وبينما هما على تلك الحال، مر بهما أناس آخرون، فقالوا بمجرد أن ابتعدوا عنهما بأنه ليس من الصواب أن يسير هذا الرجل على قدميه وهو رجل مسن ومتعب ويركب الدابة الفتى القوي. عند ذلك سأل الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما يقولون. فقال له الفتى إنهم على حق فيما قالوه. فقام بإنزاله وركب هو مكانه على متن الدابة.

بعد وقت قصير صادف أناساً آخرين، فقالوا إنه من حماقة أن يمشي الفتى على قدميه وهو مازال غضباً ولا قدرة له على تحمل مصاعب الطريق، بينما يركب الأب وهو القادر على تحمل المصاعب. عندئذ سأل الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما قالوه. فأجاب الفتى بأنهم على حق. فكان أن أمر الرجل الطيب ابنه بأن يركب معه على ظهر الدابة حتى لا يبقى أي واحد منهما ماشياً على قدميه.

فكان أن تابعا طريقهما على تلك الحال حتى صادف أناساً آخرين، فقالوا لهما إن الدابة هزيلة جداً وإنما بالكاد تستطيع السير وحدها، وبهذا يقتربان ذنباً كبيراً بركوبهما معاً على ظهرها. فسأل الرجل الطيب ابنه عن رأيه فيما قالوه. فأجابه ابنه بأنهم على حق فيما قالوه. عند ذلك قال له الأب: - يا بني، تعلم جيداً أنه عندما خرجنا من البيت مشياً على الأقدام ترافقتا الدابة دون أي حمل، وافقت

على الأمر. وعندما التقينا بشراً في الطريق وانتقدوا حالنا ذلك، أمرتك بالركوب وبقيت أمشي مرتجلاً، ووافقت على ذلك أيضاً. بعدها صادفنا بشراً آخرين وقالوا إن ذلك يجانب الصواب، فنزلت أنت وركبت أنا مكانك، وقد بدا لك أمراً صائباً أيضاً. ثم تصادفنا بقوم آخرين قد عابوا علينا ذلك فأمرتك أن تركب خلفي على الدابة، فقلت في حينها إن ذلك الحل أفضل من أن تمشي على قدميك وأركب على الدابة وحدي. والآن هؤلاء الذين التقيناهم يقولون إنه ليس من الصواب أن نركب معاً على متن البهيمة، فتوافقت معهم في رأيهم أيضاً. وبما أنك لا تستطيع إنكار أي شيء من كل هذا، لذلك أرجوك أن تخبرني ما علينا أن نفعله حتى لا يُعاب علينا بشيء: لقد وجدوا أننا نخطئ بمشيينا راجلين معاً، ونخطئ بينما نركب أنت وأمشي أنا، ونخطئ في حال صعدت أنا على الدابة وأنت تمضي ماشياً، والآن ونحن نمضي معاً على ظهر الدابة يرون أننا خاطئين. تعرف جيداً أن علينا أن نفعل شيئاً واحداً من هذه الأمور، وهم يعيرون علينا كلها. وفي هذا عبرة لك كي تعرف كيف تمضي أمور أعمالك، ولتكن على يقين بأن لا شيء يلقي قبول جميع البشر. فإذا قمت بفعل الخير، سيعيب عليك الأشرار ومن لا مكسب لهم من وراء ذلك. وإذا قمت بفعل السوء، فسيعارضك الأخيار على ذلك ولن يوافقوا على السوء الذي قمت به. عليه إذا شئت أن تقوم بفعل ما يليق بك، فافعل ما تراه مناسباً ونافعاً لك، على شرط ألا يكون عملاً سيئاً. ولا تترك شيئاً عليك أن تقوم به خشية أقوال البشر، ذلك إنهم يقولون أول ما يخطر على بالهم دون ترويض أو تفكير بما يناسب حقاً.

- لهذا سيدي الكوندي، وأنت تطلب مني النصح في شأن تريده، لكنك تخشى أن ينتقدك الناس، وأنت متأكد أنهم سيقومون بالفعل نفسه إذا ما تركته. لذلك أنصحك بهذا: أن تنظر إلى الأمر فيما ينجم عنه ضرر أو فائدة قبل أن تشرع فيه، وألا تثق تماماً بقراراتك حتى لا تتخذ بإرادتك، بل أطلب النصح من أهل الرأي القادرين على كتمان الأسرار. وإذا لم تعثر على أحد من هؤلاء الناصحين، فإني أحذرك أن تتخذ قراراتك تحت سطوة الغضب، بل اصبر يوماً وليلة على الأقل، إذا كان الشأن يتقبل التأجيل ولا يضيع مع الوقت. بعد هذه الأشياء التي عليكم فعلها، وترون إن كانت جيدة ومناسبة، أنصحكم بأن لا تدعوا فعل ما يوافقكم خشية مما يقول الناس.

رأى الكوندي أن باترونيو قد أحسن نصحه. فعمل بكلامه وسارت الأمور على خير ما يرام.

وعندما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه في الكتاب، وألف هذين البيتين الشعريين ملخصاً فيهما كل حكمة هذا المثال. والبيتان يذكران التالي: **إن لم يكن عملاً سيئاً ما تقوم**

فلا تخشى من الناس، وافعل ما يأمرك به عقلك.

مثال 3

عن وثبة ملك إنكلترا إلى البحر
في حربه ضد المسلمين

اختلى يوماً الكوندي لوكانور بمستشاره باترونيو وقال له:

- باترونيو، أثق كثيراً في رأيك وأنا على يقين تام بأنك لن تفعل إن لم تعرف شيئاً أو لم تتوصل إلى فهمه، لكن لا أحد آخر غيرك بقادر على ذلك. لذا أرجو أن تنصحنى بأفضل ما تستطيع فيما سأعرضه عليك: تعلم جيداً أنني قد تجاوزت سن الشباب، وأنتي ولدت وعشت دائماً وسط الحروب، ضد المسيحيين أحياناً وأخرى ضد المسلمين،⁸ وضد ملوك آخرين وضد سادتي وجيراني. وعلى الرغم من محاولتي الدائمة ألا أذكي الحروب بين المسيحيين، لكنها تنشب وتصيب شرارتها العديد من الأبرياء. لهذا وللتكفير عن معاصي أخرى ارتكبتها في حق الرب، ولأن لا شيء ولا أحد في هذه الدنيا يمكنه أن يضمن لي أنني لن أموت اليوم، أو أن أعيش طويلاً مهما امتد بي العمر. وبما أنني على يقين تام أنني سأقف بعد موتي لأحاسب أمام الرب، وحينها لن تنفني حيلة لساني عما سينظر فيما فعلته من شرور أو خير. فإذا ما غضب الرب مني، فلا نجاة لي من عذاب الجحيم الأبدي. وإن شفعت لي أعمالتي الحسنة وكُتبت لي أن أكون في الفردوس رفقة العادلين، فلا شيء في الدنيا يعادل ذلك النعيم والخير الذي لا يمكن إدراكه إلا بالعمل الصالح. لذا أرجو منك أن تفكر وأن تنصحنى، حسب مكانتي وشرفي، عن أفضل توبة أتوجه بها لرضاء الرب عن كل زلاتي.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لقد سرتني كلامك جداً، خاصة وأنت تطلب مني النصح تبعاً لشرفك ومكانتك، فلو أنك قد طلبت غير ذلك لظننت أنك تحاول اختباري، كما فعل ذلك الملك الذي حدثتك عنه في مرة سابقة مع أحد مساعديه. يسرني جداً أنك تنوي التوبة تبعاً لمكانتك،

فالحق يا سيدي الكوندي أنك لو أردت اليوم أن تغادر العالم لتعانق الدين أو لتعيش في عزلة، فلا مفر لك من أمرين: الأول أنك سوف تتعرض لهجوم البشر الذين سيعيبون عليك ضعف العقل، لا سيما أن قلبك قبل اليوم لم يكن يحب رفقة الصالحين. أما الثاني، فمن الصعب عليك أن تتحمل الحياة الخشنة في الدير فتنسحب منه أو أن تبقى فيه دون تقيد بقواعده كما يجب أن يكون، وبهذا ينتج ضرر لروحك ولجسدك وسيلحق بك عار كبير ويتلخخ شرفك. لكن بما إنك تريد التوبة تبعاً لمكانتك، فإنني أود أولاً أن تعرف ما أسر به الرب راهباً تقياً عن وقائع كانت ستحصل له ولملك إنكلترا.

فطلب منه الكوندي أن يحكي له ما جرى.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان هناك راهب يعيش حياة تقوى وزهد، وكان أكثر من أفعال الخير والتوبة طمعاً في غفران الرب ورضاه. فكان أن استجاب له الرب وبشره بالفرديوس. شكر الراهب الرب على هذه البشارة، وبعد أن تيقن مما حصل عليه، سأل الرب عما يمكن أن يكون رفيقه في الجنة. وكان الرب قد أرسل له مرات عدة بملاكه كي ينبهه ألا يسأل عن هذا، إلا أن الراهب كان لحوحاً إلى درجة أن الرب قرر أن يجيبه بما أراد. فقال له عن طريق ملاكه أن رفيقه في الجنة سيكون ريتشارد ملك إنكلترا. عند هذا حزن الراهب بشدة، فقد كان على معرفة بسيرة هذا الملك المملوءة بالحروب والقتل ونهب البشر، وهي بعيدة كل البعد عن طريق خلاص الروح، ولذلك استاء من هذه الإجابة.

عندما رأى الرب حالته، بعث إليه بالملاك ليأمره ألا يتشكى من ذلك ولا يتعجب مما قيل له، لأن الملك ريتشارد قد قام بوثبة عظيمة قد نفعته واستحق عنها الجنة أكثر بكثير من كل أعماله الصالحة الأخرى. وهذا ما زاد من عجب الراهب فطلب من الملاك أن يوضح له ذلك.

قال له الملاك، إن ملوك فرنسا وإنكلترا ونابارا، أثناء توجههم إلى الأراضي المقدسة، وقد وصلوا الميناء مدججين بالسلاح وعلى أهبة النزول إلى اليايسة، كانوا قد رأوا عند الساحل حشداً هائلاً من المسلمين فتهيّبوا الأمر. وكان أن بعث ملك فرنسا بطلب ملك إنكلترا ليجتمعاً على مركبه ويتشاورا في الأمر. بعد أن سمع ملك إنكلترا دعوة رسول ملك فرنسا، أمره وهو على صهوة جواده بأن يعود ليخبر ملكه أنه غارق في ذنوب الدنيا، وأنه قد دعا الرب دوماً أن يوفر له الفرصة للتكفير

عن كل خطاياه، ولا بد أن اليوم قد حان. فهو إن لقي الموت فهو واثق من رحمة الرب ذلك أنه قد تاب أمامه وقام بواجب الاعتراف قبل أن يغادر دياره. أما إذا تمكن من هزيمة المسلمين فسيكون من المحظوظين وستكون تلك خدمة للرب كبيرة. وعندما انتهى مما أراد قوله، وهب روحه وجسده للرب ورجاه المعونة ومن ثم رسم علامة الصليب على صدره وأمر رفاقه أن يتبعوه. لكز الحصان بمهامزيه ووثب معه إلى البحر. وعلى الرغم من قربهم من الميناء إلا أن البحر كان عميقاً بحيث إن الملك وفرسه غطسا فيه للتو. لكن الرحيم القادر على كل شيء، وهو الذي يذكر في الإنجيل⁹: أنه لا يريد الهلاك للمذنب، بل أن يتوب ويُعمر. لهذا أعان ملك إنكلترا وأنقذه من الموت في الحياة ومنحه الحياة الدائمة في الآخرة، ونجّاه من خطر المياه. فتوجه لقتال المسلمين.

عندما رأى الإنكليز ما فعله ملكهم، واثبوا خلفه وهجموا معاً على المسلمين. ما أن رأى الفرنسيون أنه من العار أن يقفوا مكتوفي الأيدي، فكان أن دبّت فيهم روح المنافسة النبيلة، فوثبوا إلى المياه هم أيضاً. أما المسلمون وقد رأوهم يندفعون باتجاههم بكل شجاعة وإصرار غير متهيئين من الموت، خافوا منهم أشد الخوف وهربوا تاركين الميناء خالياً من الجيش. وما أن حل المسيحيون في الميناء حتى قتلوا الكثير من الفلول المتأخرة عن الهرب وحققوا نصراً مبيناً. وبذلك قدموا خدمة جليلة للرب، وقد كان سر النصر يكمن في تلك الوثبة التي وثبها ملك إنكلترا في البحر.

عندما سمع الراهب كلام الملاك فرح به فرحاً عظيماً، وأدرك أن الرب قد مَنَّ عليه برفقة رجل قد خدم الرب والعقيدة المسيحية خدمة لا تضاهى بأخرى.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا شئت أن تخدم الرب وترضيه لتكفر عن ذنوبك التي ارتكبتها، فاحرص قبل خروجك من ديارك، على أن تصلح كل ما تسببت به من أضرار وتتوب توبة نصوحاً عن كل ذنوبك ولا تلتفت إلى الدنيا وأحوالها فهي دار غرور. ولا تصدق من ينصحك بالحرص على زيادة في نفوذك وسلطتك، ذلك أنه لا يفكر في الصعوبات والمشاق التي تنجم عنها، ولا يأخذ بعين الاعتبار كيف انتهى كل أولئك الذين اتبعوا الطريق وإلى أي حد قد صمدوا هم ونفوذهم وكل ما يملكون من أطيان.¹⁰

وأنت سيدي الكوندي لوكانور تقول إنك تريد رضا وخدمة الرب، فأنصحك بالألا تتبع طريق الغرور والتجبر وقد منحك الرب أطياناً وأملاكاً يمكنك أن تدفع بها أخطار المسلمين في البر وفي

البحر، لذا ابذل ما في وسعك لكي تحافظ على كل ما لديك، فإذا ما فعلت ذلك وكفّرت عن ذنوبك فسيرضى عنك الرب ويجازيك خيراً، ويمكنك حينئذ أن تزهد في كل شيء وتتفرغ لخدمة الرب. وهو ما أراه كأفضل طريق لخلاص روحك دون أن ينال ذلك من مكانتك وشرفك. وتأكد كذلك أنك بخدمتك الرب بهذه الطريقة فلن تموت قبل أجلك، كما أنك لن تعيش أكثر مما هو مقسوم لك لو مكثت في ديارك. وإذا ما سقطت ميتاً في خدمة الرب، وأنت على تلك الحال التي وصفتها لك، فستموت شهيداً وتدرج الجنة. ولو أنك لم تسقط سريعاً في المعركة لكن رغبتك في ذلك وأعمالك الصالحة ستجعل منك شهيداً.¹¹ وعندها لن يستطيع أحد الانتقاص منك، ذلك أنه يرى بعينه أنك لم تتخل عن عمالك كفارس نبيل، ويرى رغبتك الكبيرة أن تكون واحداً من فرسان الرب لا من فرسان الشيطان والحياة الدنيا الفانية. لقد ذكرت لك سيدي الكوندي، كما طلبت مني، نصيحتي في إنقاذ روحك دون أن تودي بمكانتك. وبهذه الطريقة ستنافس وثبة ريتشارد ملك إنكلترا السعيد وعمله البطولي عند نزوله البحر.

أعجب الكوندي لوكانور كثيراً بنصيحة باترونيو، ودعا الرب أن يوفقه لما يريد أن يفعل وفق ما قاله له باترونيو. والسيد خوان وقد رأى العبرة الصائبة في هذا المثال، فقد أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات التي تقول: *من يعد نفسه فارساً*

فما عليه سوى أن يقوم بالوثوب،

وإلا فليكن الدير مرقده

والاختباء خلف جدار عالٍ.

مثال 4

ما قاله رجل من مدينة جنوا
لروحه وقد وافته المنية

في يوم آخر تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو، وقصّ عليه الأمر على النحو الآتي: - باترونيو، لقد أنعم عليّ الرب بأراضٍ خصبة ومنحني السلام وأعطاني كل ما أحتاج إليه لأسدّ به حاجتي حسب ما تتطلبها مكانتي بل وأكثر. ورأيت أن البعض ينصحنني بأن أقوم بمغامرة لست على ثقة في نجاحها، وعلى الرغم من ميلي إليها إلا أنني ارتأيت ألا أعمل شيئاً حتى أتحدث إليك وأستمع لنصحك فيه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تقوم بما يوافق رغبتك، أود لو تعرف ما حدث لرجل من مدينة جنوا¹² وقد وافته المنية.

فرجاه الكوندي أن يحدثه عما كان من ذلك الأمر.

فحدثه باترونيو قائلاً:

- سيدي الكوندي لوكانور، كان في مدينة جنوا رجل ثري جداً ومحظوظ لدى أصحابه. وكان أن أصيب بمرض عضال وشعر بأن ساعته قد أزفت وأنه قد بدأ يحتضر. فأرسل يطلب أهله وأصحابه. ولما اجتمعوا كلهم عنده بحضور زوجته وأبنائه، اتخذ لنفسه مجلساً بينهم في قاعة رائعة تطل على البحر وعلى جزء من الشاطئ. وطلب إحضار كل ثروته من مال ومجوهرات، وبدأ يتحدث إلى روحه مازحاً وهو يقول: - أيتها الروح أرى أنك تريدين مفارقتي ولا أعلم لماذا؟ فإذا كنتِ تبحثين عن زوجة وأبناء فما هم أمامك فهلا رضيت بذلك. وإذا كنتِ تبحثين عن أهل وأصحاب، فأمامك الكثير منهم وجلهم أمناء مخلصون؟ وإن كنتِ تبحثين عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمجوهرات والطنافس وبضائع للمتاجرة، فلكِ هنا ما يغنيك عن أي شيء آخر؟ وإن كنتِ تبحثين عن السفن والمراكب لتأتيكِ بالثروات والجاه الكثير، فما هي أمامك، وما لا تريه من هذا القصر فلأنها تمخر في البحر الآن؟ ولو كنتِ تبحثين عن الضياع والبساتين الغناء، فانظري منها ما لديك من هذه النافذة. وإذا كنتِ تبحثين عن الخيول والبغال والطيور وكلاب الصيد للتسلية، أو تبحثين عن الشعراء المنشدين ليدخلوا عليك السرور والشجن، أو عن مضاجع مملوءة بالأسرة والفراش وكل ما تحتاجين إليه، فلن ينقصك منها شيء. لكنك لا ترغبين في أن تستمتعي بكل هذه الثروات والخيرات على كثرتها، وتفضلين السير إلى حيث لا تعرفين، فسحقاً لك منذ الآن وبعد حين وليرافقك غضب الرب، وسأكون من السخافة بشيء لو حزنت عما سيلحق بك من شرور وأذى.

- وأنت سيدي الكوندي لوكانور قد أنعم عليك الرب بالسلام والراحة والجاه، فلا أرى من الحكمة أن تمضي في مغامرة غير مؤكدة سوى أنهم قد نصحوك بذلك. إذ ربما أخبرك من أشار عليك بها لعلمه بأنك سوف تضطر إلى الخوض فيها تلبية لرغبته، لا أن يلبوا هم رغبتك كما عليه في آمن الأيام. وربما ظنوا أنهم سيزدادون قوة وربحاً للغنائم المحرومين منها وقت السلم، وعندها يحدث لك ما جرى لرجل جنوا مع روحه. وأنصحك فيها بأنك ما دمت قادراً على العيش بدعة وسلام فلا تُلقِي بنفسك إلى التهلكة في أمور تخاطر فيها بكل ما تملك.

أعجب الكوندي بنصيحة باترونيو، وعمل بها فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما كان المثال من الروعة، فقد عن له ألا يكتب هنا أي بيت شعري، بل يذكر عبرة متداولة ترددها عجائز قشتالة، والمثل يقول: **من يجد الراحة في مجلسه، فلا يقوم عنه.**

مثال 5

ما جرى للثعلبة

مع غراب يحمل قطعة جبن في منقاره

في مناسبة أخرى تكلم الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو، فقال له:

- باترونيو، واحد ممن يدعي صداقتي جاء يمدحني ويقول إنني ذو شرف وجاه ونفوذ. وبعد مدحه لي اقترح عليّ أمراً في تجارة، للوهلة الأولى، اعتقد أنه يوافقني.

ثم أخبره الكوندي بما اقترحه صديقه من تجارة. وعلى الرغم من أن الأمر بدا نافعا للوهلة الأولى، لكن باترونيو فطن إلى ما يخفيه من خداع تحت طيات كلماته المعسولة، فقال للكوندي: - سيدي الكوندي لوكانور، أعلم أن هذا الرجل إنما يريد خداعك، زاعماً أن جاهك ونفوذك أكبر مما هو عليه في الحقيقة. ولكي تنجو من سوء عقاب الخديعة التي يدبرها لك، أرغب في أن تستمع إلى ما حصل للغراب مع الثعلبة.¹³

فسأله الكوندي ما كان من ذلك الأمر.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- يُحكى أن غراباً عثر على قطعة جبن كبيرة فحملها وحط بها على شجرة ليتلذذ بأكلها براحة وبعيداً عن أي إزعاج. ووافق أن مرت من هناك ثعلبة ورأت بعينيها الغراب مع قطعة الجبن، وراحت تفكر في حيلة لتسلبها منه. فراحت تحدثه: - سيدي الغراب، لي زمن وأنا أسمع عن كمال خصالك وعن جمالك الفريد. وقد بحثت عنك كثيراً، لكن حظي العاثر أو ربما هي إرادة الرب، قد شاءت ألا التقيك حتى هذه الساعة، وها أنا أجدك أفضل مما توقعت. ولكي تعرف أنني لا أتزلف إليك، فلن أكتفي بذكر صفاتك التي يمتدحك عليها الناس، بل سأذكر لك أيضاً نقائص ما يعيبونك فيها. يذكر الجميع أن ريشك وعينيك ومنقارك وساقيك وقائميتك ومخالبك كلها سوداء اللون، والأسود لون قبيح يجعل منك دميماً جداً. لكنني لا أرى أنهم على صواب فيما يقولون، لأنهم لم يتمعنوا في بريق ريشك وانعكاساته الزرقاء الشبيهة بريش الطاووس، وهو من أزهى طيور العالم. كما أن العيون السود هي من أجمل العيون قاطبة، بالإضافة إلى أن السواد يقوي النظر، وليس للعيون من وظيفة غير الرؤية. كما أنه لون مناسب لها، ثم ألا ترى عيون الغزلان وهي الأكثر سواداً بين الحيوانات، والتي تلقى القبول والاستحسان عند كل البشر. ثم إن منقارك ومخالبك أقوى بكثير من أي طائر آخر في حجمك نفسه. وأنت أيها الغراب عندما تطير تمضي بخفة كبيرة ممزقاً الريح مهما كانت شديدة، وهذا ما لا تفعله الطيور إلا بمشقة وصعوبة جمّة. بغض النظر عن كل هذا، فأنا متأكدة أنك مخلوق كامل للغاية، ولم يحرملك الرب، خالق كل شيء، من موهبة الغناء، التي أنت بها أحسن بكثير من بقية الطيور الأخرى. والآن وقد تمت نعمة الرب برويتك، وقد وجدت فيك كملاً أكثر مما توقعت، سأكون مبتهجاً وممتناً لك لو سمحت لي بسماع صوتك المغرد.

لاحظ سيدي الكوندي لوكانور، أن نية الثعلبة هي خداع الغراب، لكنها مع ذلك كانت صادقة في كل ما قالته له. فتذكر أن الخداع السيئ والأشد ضرراً يُقال بصدق خادع.

لما سمع الغراب مديح الثعلبة وصدقها في أشياء عديدة مما قالت، اعتقد أنها تقول الحقيقة في كل شيء، فاعتبرها من الأصحاب ولم يشعر بطمعها في قطعة الجبن. فكان أن استجاب لطلبها متأثراً بمديحها ففتح منقاره ليغرد، لكنه ما أن فتح فمه حتى سقطت قطعة الجبن على الأرض

فتناولتها الثعلبة وهربت من فورها. وهكذا انخدع الغراب بما قالتها الثعلبة، متوهماً بكلامها أنه جميل وكامل الخلقة مما هو عليه فعلاً.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، لقد أنعم عليك الرب بكل شيء، غير أن ذلك الرجل حاول أن يقنعك بأنك تستحق أكثر مما هو عندك وأن نفوذك أكبر بكثير. وهو لا بد أنه يرغب في خداعك، ومن الفطنة أن تحترس منه.

استحسن الكوندي ما قاله له باترونيو واتبع نصحه ولم يقع في الشرك.

ولما فهم دون خوان بأنه مثال جيد، فقد أمر بتدوينه. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: **من يمدحك بما ليس فيك**

فاعلم أنه يريد سلبك ما لديك.

مثال 6

**ما جرى للسُّنونو مع الطيور الأخرى
عندما حل موسم زراعة الكتان**

تحدث الكوندي لوكانور يوماً مع مستشاره باترونيو، فقال له:

- باترونيو، قيل لي إن جيراناً لي، وهم أكثر نفوذاً مني، يجتمعون بالخدعة والفنون الشريرة للإيقاع بي ويستعدون لإيذائي. أنا لا أصدق ذلك كما لا أهابهم. ولأنني أثق بك، أسألك أن تخبرني ما يجب فعله في هذه الحالة.

- سيدي الكوندي لوكانور- أجاب باترونيو- لكي تعمل ما أراه موافقاً لك، أرغب في أن تعرف ما جرى للسُّنونو مع الطيور الأخرى.

فسأله الكوندي لوكانور عما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- شاهد السنونو رجلاً يقوم ببذر حبوب الكتان، ففهم بذكائه الثاقب أن الكتان إذا نما فسوف يصنع منه الرجل شباكاً وحبالاً لصيد الطيور. فمضى مباشرة، حيث الطيور الأخرى وجمعها وقال لها إنه شاهد رجلاً يزرع الكتان، وأكد لها أنه حين ينمو سوف يتسبب لهم في متاعب جمة. وكان أن نصح الطيور بأن تقضي على المحصول قبل أن ينمو، ولأن الوقاية من الداء أفضل في البداية وإلا فمن الصعب مواجهته فيما بعد. لكن الطيور الأخرى لم تكثر له ولتذيرته، وامتنعت عن فعل كل ما اقترحه عليها. راح السنونو يصتر عليها كثيراً حتى يؤس من الطيور التي لم تكثر له بالمرّة. وحين نما الكتان ولم يعد بإمكان الطيور اقتلاعه بمخالبها ومناقيرها، ورأت أن الوقت قد أزف لدفع الخطر المحدق بها، ندمت جداً على عدم سماعها نصيحة السنونو، ولكن لا ندامة بعد حين.

قبل ذلك، كان السنونو وقد رأى عدم اكتراث الطيور الأخرى بالأخطار المحدقة بها، مضى إلى زارع الكتان ووضع نفسه تحت حمايته، فربح الأمان له ولطيور السنونو الأخرى، ومنذ ذلك الحين وطيور السنونو تعيش بأمان وفي حماية البشر. أما الطيور الأخرى التي لم تهتم بالأمر، فقد أصبحت عرضة للصيد بالحبال والشباك.

- أما أنت سيدي الكوندي لوكانور، فإذا رغبت في حماية نفسك مما تخشى أن يصيبك، فلتحترس ولتحذر الأمور قبل وقوعها، فليس من يحترس ذلك الذي يرى الأشياء عندما تقع، بل هو من ينتبه للضرر من إشارات صغيرة أو أي حركة ليتفاداه قبل وقوعه.

ولما فهم دون خوان بأنه مثال جيد، فقد أمر بتدوينه. وكتب هذين البيتين القصيرين لتلخيص هذا المثال. والبيتان يذكران: *على المرء ومنذ البداية*

أن يتجنب وصول الضرر إليه.

مثال 7

ما جرى لامرأة تدعى دونيا تروهانا

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو فقال له:

- باترونيو، نصحني رجل في أمر ما، وبيّن لي كيف يمكنني أن أفعله، وأؤكد لك أن به منفعة كبيرة، وسأستفيد كثيراً فيما لو تحقق بمشيئة الرب، حيث سنتهال عليّ الأرباح والفوائد الواحدة تجر الأخرى حتى تصير عظيمة.

وبعد أن حكى لباترونيو عن ماهية ذلك الأمر، أجابه باترونيو قائلاً:

- سيدي الكوندي لوكانور، دائماً ما سمعت أنه من الحزم التمسك بالواقع على حقيقته، وليس كما نتوهمه، فكثيراً ما يحدث لمن يثق في خياله أن يحدث له ما وقع للسيدة دونيا تروهاننا.

فسأله الكوندي ما جرى لها.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان هناك امرأة تدعى دونيا تروهاننا، وهي أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى، مضت ذات يوم إلى السوق حاملة جرة عسل على رأسها. وراحت تفكر وهي في الطريق بأنها لو باعت جرة العسل تلك وتشتري بئمنها بيضاً فيفقس عن دجاجات، وبئمنها تشتري نعاجاً، ثم راحت تشتري بالأرباح ما تشتري حتى رأت نفسها وقد أصبحت أكثر ثراءً من جاراتها.

وفكرت في أنها بتلك الثروة المزعومة سوف تزوج أبناءها وبناتها، وتسير في الشارع محاطة بأصهارها وكناتها وسوف يتكلم الجميع عن حظوظها السعيدة وقد صارت ثرية بعد أن عانت الفقر المدقع.

بينما كانت تفكر في كل ذلك بدأت تضحك بسرور وهي تتخيل كل ذلك، ثم ضربت بكفها على جبهتها من فرط السعادة، فسقطت الجرة وتهشمت على الأرض إلى قطع كثيرة. عندما رأت جرتها مهشمة، بكت بكاء حاراً وكأنها فقدت كل ما كانت ستحصل عليه لو أن الجرة لم تقع على الأرض وتتحطم. كانت قد ركزت ثقتها في آمال باطلة ولم تحصل منها في النهاية على أي شيء.

وأنت سيدي الكوندي، إذا رغبت في تحقيق كل تلك الأمور التي حدثوك عنها والتي فكرت أنت نفسك فيها، فاحرص على أن تكون ممكنة الحدوث وليست مجرد آمال باطلة ومشكوك فيها.

وإذا أردت أن تجرب تلك المحاولة، فلا تخاطر بأي شيء من أجل الحصول على ربح لست متيقناً منه.

استحسن الكوندي ما قاله له باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما أعجبه هذا المثال فقد أمر بتدوينه، ثم كتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

تَمَسِّكُ بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْكُودَةَ

وَابْتَعِدْ عَنِ الْأَمَالِ الْبَاطِلَةِ.

مثال 8

ما جرى لرجل اضطرروا إلى غسل كبده

مرة أخرى كان الكوندي لوكانور يتحدث مع مستشاره باترونيو، فقال له:

- باترونيو، إن الرب قد منَّ عليّ بنعمٍ وفيرةٍ ومتنوعةٍ، لكنني مع ذلك أجد نفسي اليوم في حاجة ماسة إلى المال. وقد يضطرنني ذلك إلى بيع إحدى الضياع العزيزة عندي أو لعمل شيء يزيدني ألماً وسيكون ضرره مثل ذلك تماماً. ولن أتخلص من الضائقة التي ألمت بي إلا بعمل ذلك. وفي هذه اللحظات العصبية التي قد أضطر فيها إلى فعل ما يشق عليّ، جاء من يطلب مني المال وأنا على يقين بأنهم ليسوا في حاجة ماسة إليه. وبما أنني على ثقة بمعرفتك ورأيك الصائب، فأرجو أن تخبرني بما عليّ أن أقوم به من وجهة نظرك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- أعتقد أن ما يحدث لك مع هؤلاء الناس هو ما حدث لرجل مريض جداً.

فسأله الكوندي عما جرى في ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لقد مرض رجل مرضاً شديداً فقال له الأطباء إنه لن يشفى من علته إلا إذا فتحوا له خاصرته واستخرجوا كبده وطهروه بأدوية نافعة لتخليصه مما أصابه. وأثناء العملية الجراحية والرجل يتأوه من الألم بينما الطبيب يعالج كبده بين يديه، راح رجل كان بجانبه يطلب منه أن يقطع من كبده قطعة ليمنحها لقطه.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا أردت أن تجني على روحك بإعطاء أموالك لمن ليسوا في حاجة إليها، فذلك سيكون بإرادتك وليس بنصح مني أبداً.

شكر الكوندي ما قاله له باترونيو وحرص على الاقتداء به في المستقبل وكانت أن سارت أموره على خير ما يرام.

ولأنه رأى أنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

إن لم تعرف ما عليك أن تهبه

سوف ينقلب عطاؤك شراً عليك.

مثال 9

ما جرى للجوادين مع الأسد

تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو ذات يوم وقال له:

- باترونيو، لقد طال العداء بيني وبين أحد الناس وتبادلنا السوء بالسوء حتى فسدت علاقتنا وصار خلافنا عميقاً. وحدث الآن أن ثالثاً يفوقنا قوة قد بدأ في عمل أشياء نخشى أن تعود علينا بمضرة كبيرة. واقترح عدوي هذا عليّ أن نتصالح لكي نسعى لحماية أرواحنا، وباتحادنا نستطيع أن نقوم بذلك، أما إن بقينا على حالنا من التنازع، فسيقضي على كل واحد منا على حدة بسهولة خارقة. ولا أعرف كيف يمكنني أن أتصرف، لأنني أخاف من عدوي أن يخدعني إذا ما تصالحنا ووثقت به، وما أن تحين له الفرصة حتى ينقض عليّ ويهزمني ويقتلني، وهذا ما يدخلني في حيرة كبيرة. ومن

جانب آخر أدرك أننا لو لم نتصالح كما يرجوني، فهذا سوف يضعنا في موقع الخطر كما أخبرتك سابقاً.

ولأنني أتق بك وبفهمك السديد ورأيك الراجح، فإنني أرجوك أن تشير عليّ في هذا الأمر.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إنه لأمر عظيم وخطير، ولكي تدرك ما عليك فعله، فأرجو منك أن تستمع مني إلى ما حدث في تونس لفارسين كانا يعيشان مع الأمير الإنفانتي أنريكة.¹⁴

فسأله الكوندي أن يسرد عليه ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- عاش مع الأمير الإنفانتي دون أنريكة فارسان تجمعهما صداقة عميقة ويعيشان معاً بشكل دائم. ولم يكن للفارسين سوى جوادين، وبقدر المحبة الكبيرة التي تجمعهما، كان الجوادان يتباغضان. لم يكن الفارسان ثريين بما يكفي حتى يستقل كل منهما في بيت خاص به، وهذا ما عكر عليهما صفو حياتهما. وكان قد مر وقت طويل على تلك الحالة حتى اقتنع الفارسان باستحالة العثور على حل، فقصا المعضلة على دون أنريكة وطلبا منه أن يسمح لهما بإلقاء الجوادين إلى أسد كان في حوزة ملك تونس.

شكرهما دون أنريكة على ذلك كثيراً وكان أن تكلم في الأمر مع ملك تونس، فدفع هذا مبلغاً مناسباً لفاء الجوادين وأمر بحملهما حتى فناء الأسد. عندما وجد الجوادان نفسيهما في الفناء وحيدتين، ولم يكن الأسد قد خرج بعد من عرينه، فقد هجم الواحد على الآخر بكل شراسة. وحين وصل عراكهما أوجه، فتحت البوابة وأطل الأسد بهامته، فارتعد الجوادان وراحا يقتربان الواحد من الآخر. وعندما أصبحا متلاصقين، لبثا للوهلة الأولى ساكنين، ثم اندفعا معاً نحو الأسد وأشبعاه ركلاً وعضاً حتى أجبراه على التقهقر إلى عرينه. وبهذا الحال بقيا بمنجى من خطر الأسد. وبعد ذلك أصبح الجوادان صديقين، يأكلان معاً من المعلف نفسه وينامان معاً بكل سرور. وقد ولدت صداقتهما هذه نتيجة خوفهما الكبير من الأسد.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا كنت تعتقد أن عدوك يخشى الآخر ويحتاج مساعدتك، ناسياً نزاعكما السابق، لأنه لا يجد في نفسه قدرة على التصدي للآخر إلا بمساعدتك، فأنا أنصحك بأن تقوم بما فعله الجوادان اللذان راحا يتقاربان من بعضهما بعضاً حتى ذاب ما كان بينهما من

تتأخر وخوف ليحل بدلاً منه الأمان كي تسود الثقة بينكما شيئاً فشيئاً. وإذا ما وجدته ثابتاً على الخير والإخلاص للعلاقة بينكما، وتطمئن إلى أنه لن يعود إلى الإساءة إليك مهما بلغ أمر الأمان بينكما، فلا بد لك أن تساعدته وتطلب منه بالمقابل أن يقوم على مساعدتك حتى لا يقضي عليك عدو ثالث. ذلك لأنه علينا أن نقوم بهذا ونحمل الكثير من الأقرباء والجيران ونقوم بحمايتهم حتى يدافعوا عنا ضد الغرباء متى احتجنا إليهم. أما إذا كان الأمر عكس ذلك، ورأيت أن طباع عدوك ستدفعه للعدول عن الأمر بعد أن تقوم بمساعدته كي يبلغ الأمان ويتخلص من الأخطار، ولا يمكنك أن تثق في نواياه، فإنك ستخطئ بالطبع إذا ما رغبت في مساعدته وأعتقد أنه من الخير لك أن تتباعد عنه، ذلك أنه لا يتخلى عن نواياه السيئة حتى وهو في أحلك الظروف، وينتظر أن يسمح له الوضع للإساءة إليك من جديد، فلا ينبغي عندها أن تعينه بالمرّة للتخلص من الأخطار المحدقة به.

استحسن الكوندي ما قصه عليه باترونيو وعمل بنصحه.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: *احم نفسك من تقرب الغريب*
ما دمت قد حفظتها من شروره.

مثال 10

¹⁵ ما جرى لرجل اضطره الفقر والعوز إلى أكل الثرمس

تحدث الكوندي لوكانور في يوم آخر مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- أعتزف أن الرب قد منّ عليّ من نعمه ما لا أستحق، كما أعلم أنني رجل ذو نفود وثروة، لكنني أحياناً أمر بضائقة مالية وتشتد بي الحال حتى أتمنى الموت على الحياة. فأرجو منك أن تتصحني في هذا الأمر.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- حتى تجد العزاء في مثل هذه الأحوال، أتمنى عليك أن تعرف ما جرى لرجلين ثريين جداً.
فرجاه الكوندي أن يقص عليه أمرهما.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- واحد من هذين الرجلين وصلت به الحال من الفقر أنه لم يجد ما يقتات به من طعام. وقد عمل المستحيل لعله يعثر على ما يسد به رمقه ولم يحصل سوى على قصعة من حبات الترمس.¹⁶ وعندما تذكر ما كان عليه من ثراء وفكر في الجوع الذي يطحنه ويجبره على أكل الترمس المر وسيئ الطعم، بكى بحرقة. لكن جوعه كان شديداً، لذلك مد يده إلى حبات الترمس وأكل منها حفنة ملقياً بالقشور وراءه. وبينما هو على تلك الحال من القنوط، شعر بشخص يمشي خلفه، فالتفت ورأى رجلاً يلتقط من الأرض قشور الترمس التي يرميها ليقوم بأكلها. لم يكن ذلك الرجل سوى الرجل الثري الآخر الذي ذكرته لك.

لما رأى أكل الترمس ذلك سأله لماذا يأكل القشور. فأجابه بأنه قد ابتلي بفقر مدقع، وقد كان أكثر ثراء منه من قبل، وأن الجوع قد أهلكه إلى درجة أنه يشعر بسعادة بالغة إذا ما عثر على تلك القشور التي كان يلقي بها إلى الأرض. عندما سمع أكل الترمس كلام الرجل الآخر، شعر ببعض العزاء، فهناك من هو أشد فقراً منه. وبهذا العزاء بذل ما بقدرته للخروج من الفقر وقد نجح في ذلك بفضل الرب وعاد ليصبح ثرياً كما كان عليه من قبل.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، يجب أن تعرف أن قدرة الرب شاءت ألا يحصل أي أحد على كل شيء. ولكن بما أن الرب قد مَنَّ عليك من نعمه الأخرى ووهبك نفوذاً وجاهاً، فإذا ما أعوزك المال وضافت بك السبل فلا تحزن، وكن على يقين تام أن آخرين أكثر ثراءً منك وأعلى مكانة قد يكونون في مثل ضائقك، ولعلمهم يسرون لو استطاعوا أن يمنحوا ذويهم أقل مما تمنحه لذويك.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو، ولقي فيه بعض العزاء، وبذل كل جهده حتى خرج من ضائقته بفضل الرب.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: *من العوز لن يغشى عليك*

فكم من فقر أشد سوف ترى بعينيك .

مثال 11

ما جرى لكاهن¹⁷ سانتياغو الأقدم
مع السيد إيان، مُعلم طليطلة الأكبر¹⁸

تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو في يوم آخر قائلاً:

- باترونيو، لقد جاءني شخص يرجوني أن أساعده في أمر يحتاجني فيه، وقد وعدني أن يفعل كل ما أمره به بعد ذلك. وقد ساعدته قدر ما أستطيع. وقبل أن يحصل على كل ما يرغب فيه، بعكس ما يظن، طلبت منه أن يقوم لي بأمر ما يوافقني فأعذر. ثم إنني طلبت منه خدمة أخرى واعتذر مجدداً. وهذا ما كان منه في كل ما طلبت. غير أنه لم يحصل مني بعد على كل ما رغب فيه ولن يكون باستطاعته عمل شيء دون مساعدتي له. ولأنني أثق في رجاحة رأيك، فأتمنى منك أن تنصحني ما ينبغي عليّ عمله.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لكي تقوم بما عليك فعله، لا بد لك أن تعرف مني ما جرى لكاهن سانتياغو الأقدم مع السيد دون إيان، مُعلم طليطلة الأكبر.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- رغب كاهن سانتياغو الأقدم بشغف معرفة فن السحر المسمى نوغرامانثيا¹⁹، وسمع أن الدون إيان المُقيم في طليطلة هو أعرف الناس به، فقَدِم إلى المدينة ليتعلم على يديه من تلك العلوم. وتوجه فور وصوله إلى بيت السيد إيان فوجده يقرأ في قاعة منعزلة. استقبله السيد إيان ورحب به بأدب جم، وأخبره بأنه لن يستمع إلى ما جاء له حتى ينتهيا من الأكل، وكان أن استضافه في بيته، وقدم له كل وسائل الراحة وعبر له عن سروره برفقته.

وبعد أن أكلا وبقيا وحدهما، رجاه الكاهن أن يعلّمه من تلك العلوم لرغبته الكبيرة بالتعمق فيها. فقال له السيد إيان إنه كاهن له مكانته في الكنيسة ولعله قد يصل في يوم ما إلى أعلى المراتب، وإن البشر عندما يرتقون إلى المراتب العليا سرعان ما ينسون ما فعله الآخرون من أفضال عليهم. لذلك فهو يخشى أن يترفع عن شكره بعد أن يتعلّم منه ما يرغب في تعلمه ويمتنع بعد ذلك عن فعل ما يعده به الآن. لكن الكاهن الأقدم أكد له أنه مهما بلغت المنزلة التي قد يصل إليها فلن يفعل إلا ما يأمره به.

وظلا يتحدثان في ذلك الأمر من الغداء حتى وقت العشاء. وبعد أن اتفقا على كل شيء، قال له السيد إيان إن ذلك العلم لا يمكن تعلمه إلا في مكان منعزل ووعده بأنه سيريه في تلك الليلة نفسها المكان الذي سيعلمه فيه. ثم قاده من يده حتى قاعة معزولة، ونادى على الخادمة وطلب منها أن تحضر لهما حجلاً للعشاء وألا تقوم بشيء حتى يأمرها بذلك.

بعد أن قال ما قال، نادى على الكاهن وقاده عبر سلم حجري محفور بإحكام، ونزلا عبره حتى بدا له أن نهر التاج قد أصبح فوقهما لا محالة. عندما وصلا نهاية السلم، أشار المعلم إلى غرفة واسعة وصالة جيدة التأنيث مملوءة بالكتب التي عليه أن يقوم بقراءتها كلها. وما أن جلسا وراحا يبحثان في الكتب التي ستبدأ بها الدروس حتى دخل عليهما رجلان وسلما الكاهن رسالة من رئيس الأساقفة، وهو عمه، يخبره فيها بمرضه الشديد ويرجو منه أن يعود إلى سانتياغو حالاً إذا أراد أن يراه على قيد الحياة للمرة الأخيرة. امتعض الكاهن لمرض عمه خاصة أنه سيضطر لترك الدروس التي لم يكن قد بدأها بعد. ولكنه قرر ألا يتعجل في الأمور وكتب إلى عمه يخبره بقراره.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة وصل رجال آخرون يحملون رسالة إلى الكاهن تعلمه بأن رئيس الأساقفة قد توفي، وأنهم في الكاتدرائية قد أجمعوا على اختياره خلفاً له، ويتمنى الجميع من الرب أن يقع الاختيار عليه. لذلك فهم ينصحونه ألا يسرع بالعودة إلى سانتياغو، إذ يرون أنه من الأفضل أن يتم تنصيبه وهو غائب عن الكنيسة.

بعد مرور سبعة أو ثمانية أيام وصل فارسان في أبهى الثياب، مدججين بالسلاح وممتطين جوادين فارهين، وما أن حلا أمام الكاهن حتى قبلا يديه وسلماه رسالة تخبره بأنه قد تم اختياره للمنصب. عندما سمع السيد إيان ذلك، اقترب من رئيس الأساقفة الجديد وشكر الرب الذي شاء أن

تصله البشرى وهو في بيته، وطلب منه بصفته الجديدة أن يمنح ابنه منصب الكاهن الذي بقي شاغراً. رجاه رئيس الأساقفة ألا ينزعج لأنه قد قرر أن يعطي منصب الكاهن لأخ له، ووعده بأن يمنح ابنه منصباً آخر غيره، وطلب منه أن يرافقه إلى سانتياغو مع ابنه، فوافق السيد ديان على ذلك.

وهكذا مضوا جميعهم إلى سانتياغو وتم استقبالهم باحتفاء كبير. وما أن مضى وقت على وصولهم، حتى جاء رُسل البابا برسالة إلى رئيس الأساقفة، يخبرونه فيها بأنه قد عينه أسقفاً في مدينة تولوز، ويترك له الخيار بأن يمنح منصب رئيس الأساقفة لمن يشاء. عندما علم السيد إيان بذلك، وقد تذكر وعد رئيس الأساقفة، رجاه أن يمنح المنصب لابنه. لكن رئيس الأساقفة تمنى عليه ألا ينزعج لأنه يرغب في منح المنصب لأحد أعمامه. فأجابه السيد إيان بأنه لا يرى الأمر عادلاً، لكنه مع ذلك يقبل بشرط أن يجازيه على ذلك لاحقاً. فما كان من رئيس الأساقفة إلا أن وعده وعداً أكيداً ورجاه أن يأتي معه رفقة ابنه.

عندما وصلوا تولوز، استقبلهم نبلاء وكونديات المدينة. وبعد أن قضوا قرابة السنتين في المدينة، زار رسل البابا الأسقف من جديد وأخبروه بأنه تم تعيينه كاردينالاً مع الإذن له بتعيين من يشاء خلفاً له في منصبه. عندئذ تقدم منه السيد إيان وقال له إنه قد أخلف وعوده أكثر من مرة، وإنه لم يعد هناك مجال للمزيد من التسوية، وطلب منه أن يمنح الأسقفية الشاغرة لابنه. فرجاه الكاردينال ألا ينزعج منه لأنه يرغب في منح الأسقفية لأحد أخواله، وهو رجل مسن وطيب السمائل، ورجاه، وقد أصبح كاردينالاً، أن يمضي معه إلى بلاط روما، زاعماً أنه لن تنعدم هناك الفرص الكثيرة لتقديم خدمة له. شعر السيد إيان بالحسرة، لكنه لم يجد بداً من الموافقة، فكان أن ذهب مع الكاردينال إلى البلاط.

عندما وصلوا هناك استقبلهم الكاردينالات ومدينة روما بأسرها أفضل استقبال. وهناك عاشوا لفترة طويلة، وكان السيد إيان يوماً بعد آخر يطلب من الكاردينال أن يفي بوعدته وينعم على ابنه بمنصب ما، والكاردينال بدوره يقدم له الأعذار المختلفة حتى مات البابا. عندئذ اختاره جميع الكاردينالات أن يشغل منصب البابا. فتقدم إليه السيد إيان وقال له إنه الآن لا يستطيع تقديم أي عذر كي يفي بوعدته. لكن البابا طلب منه ألا يزجه كثيراً وأنه سينصف ابنه ما أن يرى فرصة متاحة لذلك. شعر السيد إيان بالحسرة وذكّره بوعدته الكثيرة التي لم يفي بها، وأضاف قائلاً إنه قد تخوف

منذ أول لقاء بينهما، وبما أنه قد وصل إلى أعلى المناصب ولم يفِ بوعده، فقد جزع منه ولم يعد ينتظر أي خير منه. انزعج البابا كثيراً من كلام السيد إيان، وبدأ يسيء في معاملته وقال له إنه إذا لم يترك مضايقته فسيزوج به في السجن لأنه زنديق وساحر وإنه لم يكن له من وسائل العيش في طليطلة سوى تعليم السحر الأسود.

عندما أيقن السيد إيان ما أعده البابا له، ودعه، ولم يمنحه البابا ما يسد رمقه في الطريق. عندئذ قال السيد إيان للبابا إنه مادام لا يملك أي طعام يشبع جوعه، فسيرجع لذلك الحجل الذي أمر خادمته بإعداده تلك الليلة، وكان أن نادى على المرأة وأمرها بشيء. وبمجرد أن خرجت هذه الكلمات من فم السيد إيان حتى وجد البابا نفسه في طليطلة وقد رجع من جديد كاهناً لسانتياغو كما كان عليه يوم وصوله. خجل الكاهن خجلاً شديداً مما جرى، ولم يجد في معيته ما يعتذر به عن سلوكه. فأمره السيد إيان أن يمضي إلى حال سبيله، قائلاً إنه مادام لا يتوقع أي خير فيه، فمن المؤسف أن يسمح له بالمشاركة في أكل الحجل.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور ترى أن الشخص الذي قدمت له كل ما أراده منك دون أن يبدي لك الشكر، فمن الأحسن ألا تجهد نفسك أكثر ولا تخاطر بأي شيء لرفعه إلى المكانة التي لن يجازيك فيها إلا بما جازى ذلك الكاهن السيد إيان.

فوجد الكوندي هذه النصيحة حسنة واتباعها فحالفه التوفيق.

ولما رأى دون خوان أنها عبرة جيدة، فقد أمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية: **من ساعدته كثيراً ولا يشكرك على أفعالك**

فلا خير فيه عندما يصل إلى مكانة عالية.

مثال 12

ما جرى لثعلبة مع الديك

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، تعلم أن لي أرضاً شاسعة وكل ذلك بفضل الرب، لكنها موزعة هنا وهناك ومعزول بعضها عن بعضها الآخر، وعلى الرغم من أن بعض أملاكي حصينة وصامدة، إلا أن أخرى ليست كذلك وأخرى بعيدة جداً. وعندما أكون في حرب مع الملوك، أو مع جيراني الأقوياء، الكثير ممن يدعون صداقتي أو يدعون النصح لي، يثيرون الخوف في قلبي وهم يخبروني بأن عليّ أن أتجنب البقاء طويلاً في الأماكن البعيدة، وأن ألبأ إلى الأماكن المحصنة في وسط أملاكي. وبما أنني على معرفة بإخلاصك وولائك لي ونباهة رأيك في هذه الأمور، فأتمنى عليك أن تشير عليّ بما ينبغي أن أقوم به.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- ليس بالهين النصح في الأوقات العصيبة، فأفضل الناصحين قد يخطئ في تقديراته لأنه لا يعرف النتيجة. وكثيراً ما نتوقع حدوث شيء ويحدث شيء آخر. ونخشى أحياناً أن تنتهي الأمور بسوء لا بخير. أو أن نتوقع أن تنتهي بخير وتعود علينا بالسوء. لذلك فمن شاء أن يُبدي النصح، وهو مخلص وغرضه أن ينجح، فإنه يجد نفسه في ضيق شديد، فإذا انتهى نصحه على خير فالشكر الذي سيقابل به لن يزيد على أنه قد أدى واجبه بإسدائه تلك النصيحة. وإذا لم يصب فالاحتقار وتقليل الشأن من نصيبه. لذلك من الأفضل ألا أضطر لإبداء النصيحة في مثل هذه المسألة العميقة، إذ مهما قلبتها وفحصتها وجدتها مكتظة بالأخطار المحدقة. لكن بما أنك ترغب في نصيحتي وأنا لا يمكنني أن أمتنع عن إبدائها، فأرجو منك أن تسمع ما جرى للديك مع الثعلبة.

فسأله الكوندي عما جرى.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان لرجل طيب بيت في الجبل، وكان له عدد كبير من دجاجات وديكة إضافة إلى حيوانات أخرى. وحدث أن كان أحد تلك الديكة بينما كان يتجول ساهماً في الحقل، بعيداً عن البيت، أن رآته ثعلبة وجاءت بقربه لتمسك به دون أن يشعر بها. لكن الديك انتبه إلى الأمر وصعد على شجرة معزولة نوعاً ما عن بقية الأشجار الأخرى. ولما رأت الثعلبة أنه قد نجا من برائتها، تحسرت كثيراً وراحت تفكر في حيلة للإيقاع به. فاقتربت من الشجرة وراحت تمدح الديك وتتزلف إليه وتطلب منه النزول لينتزه معها في الحقل كما كان يفعل قبل لحظات. لكن

الديك امتنع عن الاستماع إليها. ولما رأت الثعلبية أنها لم تتمكن من خداعه بالإطراء، فقد هددته قائلة إنه سيندم لأنه لم يثق بها. لكن الديك الذي كان في مأمن منها، لم يكثر لتهديداتها ولا لتطميناتها.

عندما أدركت الثعلبية أن الديك لن تنطلي عليه الحيلة بتلك الطريقة، اقتربت من الشجرة وراحت تقرض الجذع بأسنانها وتضرب عليه بذيلها. فكان أن جزع الديك المسكين وهو لا يعرف أنها لن تشكل أي خطر عليه. لكن خوفه حمله على الهروب من شجرة إلى أخرى لكي يكون بمأمن منها. فطار حتى شجرة أخرى لكن دون أن يصل إلى الأشجار الكثيفة. ولما رآته الثعلبية جزعاً، تبعته وراحت تطارده من شجرة إلى أخرى حتى ظفرت به وأكلته.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، عندما تجد نفسك غارقاً في حروب كثيرة وعليك أن تدافع عن ممتلكاتك، فلا ينبغي أن تجزع أبداً دون سبب ولا تخشى التهديدات ولا من الأقوال. كما لا ينبغي لك أن تضع ثقتك في أحد قد يسيء لك. مع ذلك عليك أن تبذل ما في وسعك للدفاع عن أراضيك البعيدة. وتأكد أن رجلاً مثلك، ما دام بحوزته السلاح والجنود، فحتى لو لم تكن القلعة محصنة جداً، فلا خطر عليها. وإذا ما غادرت إحدى أراضيك البعيدة دون سبب معين فتأكد أنهم سيسعون لإخراجك من الأماكن الأخرى حتى لا يبقى بحوزتك منها شبر واحد. لأنه ما أن يرى أعداؤك أن الخوف قد حملك على التخلي عن أحد المواقع، تزداد رغبتهم وحماستهم بالحصول على كل ما عندك. أما أنت فكلما رأيت إصرار أعدائك فسوف تهن وتفشل أنت وصحبك، إلى أن يسلبوك كل ما لديك. أما إذا دافعت بحماسة عن المكان الأول، فتق أنهم لن يواصلوا الهجوم على الأماكن الأخرى، وكذا الأمر بالنسبة للديك لو بقي صامداً على الشجرة الأولى. وهذا المثال يجب أن يعرفه كل من له حصون تحت نفوذه، فلا يجزع دون سبب عندما يحفر الأعداء الخنادق أو يهجمون عليه بأبراج من خشب أو أي آلة حربية أخرى؛ لأن الهدف الوحيد منها هو إخافة المحاصرين. وسأخبرك بشيء آخر حتى ترى مقدار صوابي. فلا يمكن الاستيلاء على حصن إلا بارتقاء جدرانه أو حفر أنفاق من تحته: فإذا كان السور عالياً لن تطاله السلالم. أما حفر الأنفاق فيحتاج لوقت وهدوء طويلين. لهذا السبب فالاستيلاء على أحد الحصون يتم بسبب من نقص شيء لدى المحاصرين أو لأنهم يجزعون دون سبب. وأعتقد أن رجلاً مثلك، وحتى من هو ليس بقوتك ومكانتك، يجب عليه أن يصبر كثيراً فيما عليه أن يفعله وألا يقرر فعل شيء إلا إذا اضطرت الظروف واستحال عليه تجاوز الأمر.

عليه حين تقوم بالفعل فلا ينبغي عليك أن تخشى أي شيء في العالم حتى لو كان لديك كل الأسباب لذلك، لأنه من المرجح أن من يدافع عن نفسه في وقت الخطر يكون له من حظوظ النجاة أكثر ممن يلوذ بالفرار. لتلاحظ أن الكلب الصغير الصامد في مكانه قد ينجو عندما يكشر عن أنيابه وذلك حين يحاول كلب الدرواس الضخم الفتك به، لكن الكلب الذي يهرب سرعان ما يدركه ويفتك به مهما كان كبيراً.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت الأمور على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: لا تجزع
من الأمور لأتفه الأسباب

بل دافع عن نفسك كرجل شجاع.

مثال 13

ما جرى لرجل كان يصطاد حجلًا

مرة أخرى تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، يُلحق بي أحياناً البعض من ذوي السلطة وآخرون أقل نفوذاً منهم، أضراراً في ممتلكاتي وأتباعي، وبعدها يتأسفون للأمر ويزعمون أنهم اضطروا إلى ذلك ولم يكن بمقدورهم في تلك الساعة فعل شيء آخر. فأتمنى عليك أن تخبرني رأيك فيما عليّ أن أقوم به.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- هذا الذي تخبرني بأنه قد حدث معك وتطلب نصحي، هذا يشبه كثيراً ما جرى لرجل كان يصطاد طيور الحجل.

فترجاه الكوندي أن يخبره عما جرى من ذلك الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- وضع رجل فخاً لصيد الحجل وعندما وقع بعضها فيه، اقترب منها وراح يخرج الحجل واحداً بعد الآخر ويقتلها في الحال. وكانت الريح في تلك الساعة تنفخ بشدة في وجهه حتى أن عيناه دمعتا.

فقال طير حجل حي في الفخ لرفاقه:

- لتتأملوا أيها الصحب فيما يفعله هذا الرجل، إنه يقتلنا لكنه يبكي إشفافاً علينا.

فقال حجل طليق، وكان أكثر حكمة من ذلك الذي تكلم منهم، لذلك نجت من الفخ:

- إيه أيها الصاحب، الحمد لله الذي نجاني من الوقوع في الفخ، وأرجو أن يحفظني دائماً أنا وكل رفاقي من ذلك الذي يقتلنا ويؤذينا ثم يريد أن يقنعني بتألمه من فعلته.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، احذر دائماً ممن يسعى لإيذائك وبعدها يظهر حسرتة. أما إذا لحقك الضرر من أحدهم عن غير عمد ولم يكن ضرراً أو خسارة كبيرة وكان قد ساعدك ذات مرة أو قدّم لك خدمة، فتكتم على الأمر بشرط ألا يتكرر كثيراً إلى حد الإهانة والإضرار بمصلحتك. وأما من ينوي لك الشر فابعده عنك حالاً لتحافظ على ممتلكاتك وتصون هيبتك.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: صن

نفسك قدر ما تستطيع

ممن يؤذيك ويتأسف بعد حين.

مثال 14

المعجزة التي قام بها القديس سانتو دومنغو
في صلاته على روح رجل جشع

ذات يوم تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، ينصحي البعض بأن أجمع أكبر قدر من الأموال، وقد زعموا أنه من أفضل ما يمكن أن أقوم به. لهذا أرجو منك أن تقول لي رأيك فيما تراه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إن السادة الكبار يحتاجون بالفعل لأموال طائلة وذلك للقيام بأعبائهم ولكي يفعلوا ما يوافق مرامهم. لكنني أحذرك من الحرص على جمع الأموال إلى درجة إهمال حاجات ذويك ومتطلبات مكانتك وشرفك، وإلا فقد يقع لك ما وقع لأحد اللومبارديين²⁰ في بولونيا.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- عاش في مدينة بولونيا أحد اللومبارديين وقد جمع مالاً كثيراً دون أن يهتم بمصدره، بل عمل على ادخار أكبر قدر منه. وذات يوم مرض الرجل اللومباردي مرضاً خطيراً. وعندما رآه أصحابه على تلك الحالة السيئة، نصحوه بأن يعترف بذنوبه للقديس سانتو دومنغو²¹ الذي كان في ذلك الوقت في بولونيا. فبعث فعلاً من يستقدمه. عندما تسلم القديس دومنغو الدعوة، جاءه إلهام بأن الرب لن يخلص ذلك الرجل من العقاب الذي استحقه بسبب جشعه. فقرر ألا يستجيب لدعوته، وأرسل بديلاً عنه راهباً آخر. لما علم أبناء الرجل اللومباردي بأن أباهم قد بعث بطلب القديس دومنغو، قلقوا كثيراً وخشوا أن ينجح القديس بإقناع أبيهم بالتنازل عن كل ما استولى عليه بغير حق مقابل خلاص روحه، ويبقون هم دون أي شيء. لذلك قالوا للراهب إن أباهم قد انتابته نوبة تعرق شديدة وإنهم سيبعثون في طلبه في وقت أنسب من هذا.

لم يمر وقت قصير على ذلك حتى فقد اللومباردي القدرة على الكلام ومات في الحال. ولم يتح له فعل أي شيء مما ينبغي لتخليص روحه. وعندما جهزوه في اليوم التالي للدفن، طلبوا من القديس سانتو دومنغو أن يصلي على روح ذلك اللومباردي. وهو ما قام به القديس سانتو دومنغو. لكنه في صلته على ذلك الرجل قال جملة من الإنجيل وهي التالية: «Ubi est thesaurus tuus ibi es cor tum» والتي تعني: «حيث يكون كنزك، يكون قلبك». وعندما قال هذا التفت إلى الحشد وقال لهم: - أيها الصحب، لكي تتأكدوا من صدق الإنجيل، ابحثوا عن قلب هذا الرجل ستجدونه في الصندوق الذي كُنزَ فيه أمواله وليس في جسده.

فراحوا يبحثون عن قلبه في جسده ولم يجدوه، بل عثروا عليه في صندوق أمواله كما قال لهم القديس سانتو دومنغو. ووجدوه مملوءاً بالدود وتنبعث منه أنتن الروائح.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، على الرغم من أهمية الأموال إلا أن عليك أن تحرص جيداً على أمرين اثنين: الأول أن يكون ما تجمعته حلالاً وبوسائل شرعية؛ والثاني ألا تتعلق به إلى درجة أن تفعل ما لا ينبغي فعله متناسياً مكانتك وشرفك، فالكنوز التي عليك جمعها هي تلك الأعمال الصالحة التي تُرضي الرب وتمنحك طيب السمعة بين الناس.

- استحسّن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية: *احصل على الكنوز الحقيقية*

ولا تقرب الكنوز الفانية.

مثال 15

ما جرى للسيد لورنثو سواريث في حصار إشبيلية

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، حدث أن وقعت عداوة بغيضة بيني وبين أحد الملوك المقتدرين. وبعد أن دام النزاع بيننا زمناً طويلاً، رأينا أن الأوفق لنا في التصالح. وعلى الرغم من أننا في سلام ودون نزاع، لكننا مازلنا يخشى كل من الآخر. كما أن بعضاً من جماعته كما عليه مجموعة من جماعتي يزرعون في داخلي الخوف ويؤكدون لي أنه يبحث عن ذريعة ليهاجمني. ولمعرفتي برجاحة آرائك، أرجو منك أن تنصحنني بما ينبغي عليّ فعله في هذه الحالة.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- ستكون نصيحة عسيرة عليّ لأسباب عدة، إذ يمكن لكل من يريد أن يورطك في المصاعب أن يقوم بذلك بسهولة تامة واهماً إياك بأنه يقوم بهذا

لمصلحتك، فيحذرك من ضرر ما قد يصيبك، كما يدخل الريبة على قلبك. وقد تضطر لاتخاذ التدابير اللازمة فيكون عند ذلك بداية حرب، ولن تستطيع حينئذ أن تُلقي باللائمة على من نصحك بذلك، لأن من نصحك بعدم الحذر لا يبدو مكثرثاً بحياتك. ومن ينصحك بعدم الاهتمام بقلاعك والحفاظ عليها وتعزيزها يبدو أنه لا يهتم أن تحافظ على أملاكك. ومن ينصحك بالإكثار من الأصدقاء والتابعين والتواصل معهم بالعطايا والمحافظة عليهم، إنما لا يهتم بشرفك وسلامتك. وإذا لم تفعل كل هذا فقد وضعت نفسك في خطر كبير وستكون بداية للفوضى. لكنك تطلب رأيي، لذا أود منك أن تعرف ما جرى لأحد الفرسان النبلاء.

رجاه الكوندي أن يخبره ما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- عندما حاصر الملك القديس المبروك دون فرناندو مدينة إشبيلية، كان رفقته عدد من الفرسان، ثلاثة منهم كانوا يُعدون من أفضل فرسان السلاح في العالم كله. الأول هو لورنثو سواريث غايتانو، والثاني هو غارثيا بيريث دي بارغاس والثالث لم أعد أتذكر اسمه.²² وذات يوم اختلف الفرسان الثلاثة فيما بينهم حول أيهم الأفضل من بين فرسان السلاح. وعندما لم يتوصلوا لقرار، اتفقوا على أن يتسلحوا ويقتربوا من بوابة إشبيلية ليقرعوها برماحهم.

في صباح اليوم التالي، تسلحوا جيداً وتوجهوا ناحية المدينة. عندما رأى المسلمون من فوق الأبراج أنهم لا يزيدون على ثلاثة، ظنوا أنهم رسل فلم يخرجوا لمقارعتهم. اجتاز الفرسان الثلاثة الخندق والتحصينات الأولى ووصلوا حتى بوابة المدينة وقرعوها بنبال رماحهم، وبعد أن قاموا بذلك، قادوا جيادهم ورجعوا إلى المعسكر.

عندما رأى المسلمون لم يخبروهم بشيء، عدوا المسألة استهزاءً بهم وقرروا اللحاق بهم. وعندما فتحت البوابة، الفرسان الثلاثة الذين قفلوا راجعين ببطء، كانوا قد أصبحوا بعيدين. خرج من خلفهم أكثر من ألف وخمسمائة فارس وأكثر من عشرين من المشاة. وعندما رأى الفرسان الثلاثة أنهم يقتربون منهم، استداروا على أعقابهم وانتظروهم. عندما أصبح المسلمون قريبهم، هجم عليهم ذلك الذي نسيته اسمه، بينما بقي لورنثو سواريث وغارثيا بيريث ساكنين. وعندما اقترب المسلمون أكثر، هجم عليهم دون غارثيا بيريث دي بارغاس. وبقي دون لورنثو ساكناً ولم يقدم على مهاجمتهم حتى شن المسلمون هجومهم عليه. عندئذ توسطهم وعمل فيهم الأعاجيب بسلاحه.

عندما رأى جنود المعسكر أن المسلمين قد أحاطوا بأولئك الفرسان، أسرعوا لنجدتهم. وعلى الرغم من أن الثلاثة مروا بلحظات عصيبة وقد أصيبوا بالجراح، إلا أن مشيئة الرب قد أنجبتهم كلهم. وكانت المعركة شديدة بين المسلمين والمسيحيين، وقد شارك فيها الملك دون فرناندو بنفسه، وكان النصر من نصيب المسيحيين.

عندما عاد الملك إلى خيمته أمر بالقبض عليهم؛ لأنه رأى أنهم يستحقون الموت بسبب فعلتهم المتهورة، فقد وضعوا الجيش في خطر ودون أمر من الملك، والأمر الآخر أنهم قد خاطروا بحياة أفضل ثلاثة فرسان. وعندما شفع لهم كبار رجال الجيش أمام الملك، أمر بإطلاق سراحهم.

وما أن علم الملك بأنهم قد قاموا بذلك ليعرفوا من فيهم الأفضل، أمر باستدعاء عدد من أفضل رجاله ليحكموا معه أيهم الأفضل. وعندما اجتمعوا طال الجدل بينهم: فبعضهم رأى أن الجهد الأكبر جاء مع الأول الذي بادر بمهاجمتهم. آخرون قالوا إنه الثاني وآخرون أشاروا إلى الثالث منهم. وكان الجميع يقدم البراهين المناسبة حتى ليظن أن الحق معه. وفي الحقيقة إن ما فعله الفرسان الثلاثة كان مدهشاً ويستحقون جميعهم المديح. ولكن الحكم النهائي كان كما يلي: لو كان عدد المسلمين الذين هاجمهم أقل مما كان عليه، بحيث يمكن للفرسان الثلاثة هزيمتهم، فالأشجع من بينهم هو الأول الذي بادر بالهجوم، لأنه قد بدا له أن الأمر سينتهي بخير. لكن عدد المسلمين كان كبيراً بحيث يستحيل عليهم هزيمتهم، ومن الواضح أن أول من هاجمهم لم يكن في نيته ذلك، لكنه كان قد خجل من الفرار فلم يهرب، مما دفعه الخوف وغصة القلب إلى مهاجمتهم. أما الثاني بمهاجمتهم فقد بقي ينتظر أكثر من الأول، فرأوا أنه الأفضل لأنه تحمل وعانى الجزع أكثر من الأول. أما دون لورنثو سواريث، فقد تغلب على الخوف كله وانتظر بصبر حتى هاجمه المسلمون، وحكموا على أنه أفضل فارس.

وها أنت ترى سيدي الكوندي لوكانور أنهم يحاولون إدخال الخوف إلى قلبك وأن المعركة لو نشبت فلن تستطيع حسمها بما لديك من قوة. وتأكد إذن أنك إذا تحملت الجزع وثبتت على نفسك فستكون أكثر شجاعة وحكمة. وطالما كانت ممتلكاتك في أمان ولا أحد يملك القدرة على إلحاق الضرر الكبير بك، فنصيحتي لك أن تحافظ قدر الإمكان على هدوئك. وبما أنه لا يمكن أن تتلقى أي خسارة كبرى بشكل فجائي، فعليك بالصبر حتى يهجم عليك الآخر فربما اتضح أن خوفك بلا مبرر. ومن قال لك تلك الأشياء لم يفعل ذلك إلا لطمع ولمصلحته الخاصة، وأولئك هم من يتبوأون

المناصب في الأجواء العكرة. وكن على ثقة بأن أصدقاء عدوك وأصدقاءك الذين يحاولون أن يدخلوا الرعب إلى قلبك، فهم لا يرغبون في الحرب ولا السلام، فلا وسائل عندهم لخوض الحرب ولا يرغبون في سلام تام، بل يريدون الفتنة التي تتيح لهم سلب أراضيكم ونهب خيراتها وإرغامكم أنت وذويكم على منحهم كل ما تملكون وما لا تملكون، دون خوف من نيل العقاب على أفعالهم هذه. لذا أعود وأسدي النصح أنه حتى لو قام عدوك بفعل شيء ضدك، لتنتظر بصبر أن يبادر بالحرب أولاً، لأن الصبر كله مزايا: فوئلاً سيكون الرب إلى جوارك، وهذا ضروري في مثل هذه الأمور. وثانياً، سيمنحك الناس الحق. وقد لا يهاجمك أي أحد إذا لم تفعل ما لا ينبغي عليك فعله، فتعيش في سلام وتخدم الرب وتنفع أهل الخير ولا تضر نفسك إرضاء لأهل الشر، وما أقل ما سيتحسر هؤلاء عليك فيما لو مسك السوء.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

*لا تهاجم وقد غلبك الخوف
فالنصر دائماً حليف الصبور.*

مثال 16

جواب الكوندي فرنان غوثالث لقريبه نونيو لاينث

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، أنت على علم بأنني لم أعد شاباً، وقد مررت بالعديد من المشاق حتى وصلت لما أنا عليه اليوم. والآن أرغب في الراحة لما تبقي لي من عمر، وكذلك أرغب في ممارسة الصيد لأتجنب العمل ومشاقه. وكما أعلم عنك دائماً بأنك أهل للنصح والرأي السديد، أرجو منك أن تقول لي ما عليّ أن أفعله.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- على الرغم من أن كل ما تقوله صحيح ومحق فيه، إلا أنني أرغب في أن تعرف مني ما قاله الكوندي فرنان غونثالث لـ نونيو لاينث.

فترجاه الكوندي أن يخبره عن ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- عاش الكوندي فرنان غونثالث في مدينة بُرغش بعد أن دافع عن أراضيهِ دفاعاً مستميتاً. وبينما كان في دعة وسلام، قال له قريبه نونيو لاينث أن عليه من الآن ولاحقاً ألا يجازف بالدخول في صراعات أخرى، وأن يستريح ويدع ناسه تستريح أيضاً.

فأجابه الكوندي بأنه لا أحد في الدنيا أكثر منه حباً للراحة والدعة متى استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه يعرف جيداً أن قومه في حرب مع المسلمين والليونيين والناباريين²³، وأنهم لو ركنوا إلى الراحة فسيهاجمهم الأعداء. وإذا أرادوا هم التسلية بقنص الطيور الفارهة عند نهر لانتون صعوداً وهبوطاً، أو على متن بغالهم السمينة عوضاً عن التفرغ للدفاع عن أراضيهم، فيمكنهم عمل ذلك، لكن سيحدث لهم ما قاله المثل القديم: «مات الرجل ولم يمت اسمه». وكلنا سنذوق الموت، مزهوين أو تعساء، ولن ينجو منه أهل الدعة والتسلية، فلا أرى الخير في ألا نتصرف بما يضمن لنا السمعة الطيبة بما عملنا.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان انه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

إذا ما أضع المرء سمعته

باللهو والراحة،

فالحياة فانية لا محال

ولن نحصل فيها حينئذٍ غير الخزي.

مثال 17

ما جرى لرجل أهلكه الجوع
وقد دعاه آخرون²⁴ لمشاركتهم الطعام بلا حماس

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، جاءني رجل ليقول لي إنه مستعد للقيام بعمل ما يرضيني. وعلى الرغم مما قاله، إلا أنني وجدت في عرضه قولاً بلا حماس يذكر سوف يجعله فرحاً إن لم أقبل مساعدته. وأنا من جانبي، يروفتني جداً أن يعمل لي ذلك الذي يرجوني به، ولكن من جانب آخر، يحز في نفسي أن أتقبل منه عرضه، لأنني وجدته يقوله بلا حماس. ولأنني واثق من إدراكك للأمور، أرجو منك أن تخبرني بما عليّ فعله في هذا الشأن.

- سيدي الكوندي لوكانور - أجاب باترونيو - لكي تفعل ما نراه مناسباً لك، أود منك أن تعرف مني ما حدث لرجل دُعي إلى طعام من قبل رجل آخر.
فرجاه الكوندي أن يحكي له عن ذلك.

- سيدي الكوندي - قال باترونيو - حدث لرجل أن كان ثرياً وأصابه الفقر مصاباً شديداً. وكان يخجل من طلب أي شيء وعلى الأخص خجله من طلب الطعام. لهذا عانى الجوع والعوز الدائم. واشتدت تعاسته ذات يوم عندما لم يجد ما يسد به رمقه، فمر ببيت أحد معارفه بينما كان يأكل، وعندما رآه يمر من أمام الباب، دعاه لكي يأكل معه بلا حماسة. فراح الرجل، وكان بحاجة كبيرة للأكل، يغسل يديه وقد قال للرجل:

- يا فلان²⁵ بما أنك تلح عليّ كثيراً وتترجاني أن أشاركك الطعام، فلن أسيء الأدب معك ولن أقف ضد رغبتك.

قال هذا ثم جلس وأكل حتى قهر جوعه. وبعد ذلك، منَ عليه الرب بالبركة وألهمه طريق الخلاص من الفقر الشديد الذي ألمَّ به.

وأنت سيدي الكوندي، بما أن الرجل يعرض عليك شيئاً يوافقك، لتفهمه بأنك تقبل به إرضاء له ولا تشغل بالك إن كان يفعل ذلك عن رغبة أم لا. ولا تنتظر منه أن يلح عليك أكثر، وإلا فقد لا يعود إلى الحديث عن ذلك وسوف يكلفك بعد ذلك الكثير أن تطلب منه ما جاء يعرضه عليك بنفسه.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

ما تستطيع الحصول عليه لمنفعتك

لا تنتظر منه توسلاً وإلحاحاً.

مثال 18

ما جرى لـ دون بيدرو دي بالديس عندما كُيّرت ساقه

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، تعلم أنني في خصام مع جار لي، وهو رجل قدير ومبجل، وقد اتفقنا أن يتجه كل واحد منا نحو بلدة فمن وصل أولاً ستكون من نصيبه ويخسرهما الآخر. كما تعلم أن قومي مستعدون وواثقون بمشيئة الرب أنني سوف أفوز بها وبذلك أزداد شرفاً ونفوذاً. لكنني لا أستطيع فعل ذلك بسبب التعاسة التي أصابتنني بتوعكي. وعلى الرغم من أن فقدي البلدة سيكون خسارة كبيرة، لكن ما يشغلني أكثر هو أنه سوف يفوز بمديح الناس بينما أنال تقريعيهم. ولثقتي الكبيرة بك، أرجو منك أن تخبرني ما عليّ أن أفعله.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لك كل الحق في الشكوى، ولكي تفعل الأفضل دائماً في مثل هذه الحالة، أود أن تعرف مني ما جرى للدون بيدرو ملنديث بالديس.

رجاه الكوندي أن يخبره عما جرى.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الدون بيدرو ملنديث بالديس فارساً شريفاً من مملكة ليون، وكان معتاداً في كل مرة تحدث له مصيبة، أن يقول: «مبارك هو الرب، ما دامت هذه مشيئته فلا بد أنه خير».

وكان الدون بيدرو ملنديث مستشاراً ومن خاصة ملك ليون. والبعض من أعدائه وقد كانوا يغارون منه، اتهموه زوراً بأشياء سيئة كثيرة حتى أن الملك قرر قتله.

وبينما كان الدون بيدرو في منزله إذ أتاه أمر من الملك بالمثل أمامه. وكان المأمورون بقتله على بعد فرسخ واحد من بيته. وعندما أراد دون بيدرو ملنديث امتطاء جواده للذهاب إلى الملك، سقط من على السلم وكسرت ساقه. وعندما رآه جماعته، وكانوا يريدون المضي معه، ما حدث له من مصيبة، تأسفوا كثيراً وعاتبوه على هذا النحو:

- إيه دون بيدرو ملنديث، دائماً ما تقول إن ما يفعله الرب فهو خير، إذأً لنتقبل الآن ما أعطاك.

فرد عليهم بأن يكونوا على ثقة أن ما حدث له من مصيبة، سيرون بعد ذلك أنه خير لأنها مشيئة الرب. وحاولت جماعته أن يقنعوه بخطئه فلم يفلحوا.

أما أولئك الذين كمنوا لقتله بأمر من الملك، عندما رأوا أنه لم يأتِ وعرفوا ما جرى له، عادوا إلى حيث الملك وأخبروه لماذا لم يستطيعوا تنفيذ أوامره.

مر وقت طويل والسيد بيدرو ملنديث لا يستطيع امتطاء جواده، وبينما كان في ذلك العسر، علم الملك بأن الاتهامات التي كالوها لدون بيدرو ملنديث كانت ملفقة، فألقى القبض عليهم. ومضى بنفسه ليزور دون بيدرو ملنديث في داره وقصّ عليه الاتهامات الملفقة التي اتهموه بها وكيف أنه قد أرسل بمن يقتله. ثم أنه قدم اعتذاره بسبب الخطأ الذي كان سيقترفه بحقه، وأحسن إليه وأغدق عليه بالعطايا. ثم إنه أمر بالقصاص من أولئك الذين اتهموه زوراً.

وهكذا أنقذ الرب دون بيدرو ملنديث لأنه لم يكن مذنباً ولأن الكلمة التي يرددتها «ما دامت هذه مشيئة الرب، فلا بد أنها الأفضل» كانت كلمة حق.

وأنت سيدي الكوندي، فلا تتشكي من الضائقة التي ألمت بك، ولتكن على يقين في صميم قلبك أن ما يفعله الرب هو الأفضل دائماً. وإذا اعتقدت بهذا، فإنه سيحسن إليك في كل الأحوال. لكن يجب أن تعلم أن الحوادث التي تلم بنا قسماً: قسم يمكن علاجه، وقسم لا حيلة لنا به. أما الحوادث القابلة للعلاج، فينبغي على المرء أن يبحث فيها عن الحلول الممكنة لا أن ينتظرها تستقيم وحدها بالمصادفة أو بمشيئة الرب؛ لأن كل ذلك سيكون بمثابة اختبار له. وبما أن البشر قد وهبوا الفهم والإدراك لكي يبذلوا كل جهدهم للوصول إلى مخرج من محتهم. وأما الحوادث التي لا حيلة لنا بها، فعلياً أن نؤمن إيماناً حقيقياً بأنها نافعة لنا ما دامت تحصل بمشيئة الرب. وبما أن المرض الذي ألم بك لم يكن لك حيلة لتفاديه، فلنكن واثقاً أنه جاء بمشيئة الرب ولا بد أن يعود عليك بالخير، كما أن الرب سيجعل كل الأشياء تنتهي مثلما تتوقعها.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

لا تشكو مما قدره الرب لك

فهو خير لك متى شاء.

مثال 19

ما جرى للغربان مع البوم

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، تعلم أن لي خصومة مع رجل مقتدر، وقد عاش في بيت عدوي واحد من أقربائه وقد وجد منه كل عناية. وذات يوم نشب خلاف بينهما فقسا عليه عدوي ذاك وأهانته قولاً وفعلاً على

الرغم مما لديه من واجبات عليه. وعندما رأى ذلك القريب ما لحق به من أضرار، نسي أنه مدين له بالكثير، وراح يبحث عن طريقة ينتقم بها منه. وقد جاءني ليعرض عليّ خدماته، وهذا ما يوافقني تماماً، فهو يعرف عدوي جيداً وسوف يطلعني على أفضل طريقة للإيقاع به. وبما إنني أثق بك وبإدراكك كثيراً، لذا أرجو أن تشير عليّ بما يجب أن أفعله.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- من البداية أقول لك أن ذلك الرجل قد جاء ليخدعك، ولكي تعرف كيف سيمكر بك، أود أن تعرف ما جرى لليوم مع الغربان.

فرجاه الكوندي أن يخبره بذلك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كانت الغربان والبوم في نزاع. وقد كانت الغربان الخاسرة في المواجهة؛ لأن طيور البوم معتادة العيش في الليل وتختبئ نهاراً في الكهوف المحصنة، إذ كانت تأتي تحت جناح الظلام إلى حيث تعشش الغربان في أشجارها وتقتل العديد منها وتجرح المتبقي. وأمام هذا الوضع من المعاناة، قام غراب يعتبر حكيماً بينها، وقد أحزنه كثيراً ما يحدث لها من شرور أعدائه طيور البوم، وتحدث مع أقربائه الغربان وبحث معها عن خطة تستطيع بها الثأر لنفسها.

- والخطة كانت على النحو التالي: طلب أول الأمر من الغربان أن تنتف ريشه كله حتى لا يبقى عليه سوى القليل في الأجنحة ليساعده على الطيران بصعوبة وبشكل سيئ. - وتوجه من فوره إلى طيور البوم وهو على حالته تلك وحدثها عما فعلته به الغربان، خاصة أنه قد أخبرها بنيته ألا يشارك في حربها ضد الغربان. وبيّن لها عن استعداده أن يدلها على طريقة لتنتقم بها من الغربان وتلحق بها ضرراً بالغاً.

عندما سمعت طيور البوم ذلك فرحت كثيراً وظنت أن وجود ذلك الغراب بينها قد ساهم في حل المعضلة، وبدأت تثق به ولا تتكتم الحديث أمامه عن أفعالها وأسرارها.

لكن من بين الغربان الأخرى، كان هناك بوم عجوز وقد مرت به العديد من الأحداث، ورأى ما قام به ذلك الغراب وعرف الخديعة التي يريد تمريرها على البوم، فذهب إلى زعيم طيور البوم وأخبره متأكداً من أن ذلك الغراب لم يأت إلا لإلحاق الشر بها ولكي يعلم عنها وعن أسيائها الكثير. لكنه لم يلق منهم تصديقاً، وعندما رأى ذلك منها هجرها إلى أرض بعيدة ليجت عن مأوى لا تصله

الغربان. أما بقية اليوم فقد صدقت ما قاله الغراب. - وعندما نما ريش الغراب قال لطيور البوم إنه قد أصبح قادراً على الطيران بصورة جيدة وأنه سوف يذهب للبحث عن الغربان ويعود إليها ليدلها على مكانها ليقضوا عليها جميعاً. فاستحسنت طيور البوم هذا كله.

- لكن عندما وصل الغراب إلى حيث توجد الغربان الأخرى، اجتمع بها وأعلمها بكل ما يعرفه عن طيور البوم. فهجمت عليها، وهي التي لا تطير في النهار وقد كانت واثقة وبأمان، فقتلت منها الكثير ودمرتها وحقت النصر في كل حروبهم.

وكل ما لحق بطيور البوم من مصائب يعود لثقتها في الغراب وهو عدوها الطبيعي.

وأنت تعلم سيدي الكوندي لوكانور أن هذا الرجل الذي جاءك هو قريب لعدوك ومدينٌ له بالكثير لذلك فهو عدوك أيضاً دون شك، لهذا أنصحك بالألا تسمح له بصحبتك بأي حال من الأحوال، وكن على ثقة أنه لم يأت إلا للاحتيال عليك والإضرار بك. أما إذا أراد أن يقدم لك فعلاً الخدمة من بعيد، بحيث لا يستطيع أن يسيء إليك ودون أن تسمح له بمعرفة أي شيء من أسرارك وعاداتك، ورأيت أنه قد ألحق أذى حقيقياً بعدوك الذي هو قريبه، بحيث يؤدي ذلك إلى أن تنفصم ما بينهما من عرى وروابط إلى الأبد، فقط حينذاك يمكنك أن تثق به، ومع ذلك فلا تتح له فرصة الإساءة إليك أبداً.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

من اعتاد أن يكن لك العدا

فلا تثق به ولا تحابه.

مثال 20

ما جرى لملك مع رجل ادعى معرفته بعلم الخيمياء

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، جاءني رجل وقال لي إنه يستطيع أن يمدي بنفوذ و ثراء كبيرين، وطلب مني بعض المال ليتم عملاً قد بدأه، وقد وعدني بأن يعيده لي مضاعفاً عشر مرات. وبما أنني أعرف مدى نباهتك، لهذا أرجو أن تنصحي بما تراه موافقاً لي.

- سيدي الكوندي، لكي تدرك ما عليك أن تفعله، فلا بد أن تعلم ما جرى لملك مع رجل ادعى أنه على معرفة بالخيمياء.²⁶

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان هناك رجلٌ من الشُّطار²⁷ يحلم بالثراء ليخرج من الحياة البائسة التي عاشها. وسمع ذلك الرجل أن ملكاً عرف بقلة حنكته كان يجهد نفسه ليقوم بأعمال الخيمياء.

فأخذ الرجل مائة قطعة نقدية من المعرفة بالدوبلات²⁸ وحكها كلها، ثم مزجها مع أشياء أخرى وصنع منها مائة كرة، بحيث وزنت كل كرة ما مقداره قطعة دوبلة واحدة وفعل الأمر نفسه مع البقية. ومضى بها حتى مدينة الملك، مرتدياً ملابس الوجهاء وحمل معه الكرات وباعها لأحد العطارين. وحين سأله العطار عن فائدتها، قال له المحتال إنها تصلح لأمر شتى، خاصة أنه من دونها لا يمكنك أن تمارس عمل الخيمياء. وكان أن باعه كل الكرات المائة باثنين أو ثلاث دوبات. وعندما سأله العطار عن اسم تلك الكرات، أخبره المحتال بأن اسمها هو «طبردية».²⁹

وقضى المحتال أياماً عدة في المدينة كرجل محترم وأشاع بين الآخرين في السر، أنه على معرفة بفن الخيمياء.

عندما وصلت الأخبار إلى الملك، بعث في طلبه وسأله إن كان على معرفة حقيقة بالخيمياء. وعلى الرغم من أن المحتال قد تظاهر بالإنكار بادئ الأمر، لكنه في النهاية أعلمه بأنه يعرفها حق المعرفة. وقال للملك ناصحاً ألا يثق بأحد ولا يغامر كثيراً في هذا العمل، ولكنه لو شاء فيمكنه أن يجرب أمامه ما يعرفه. فشكره الملك واقتنع بأن الأمر لا خديعة فيه. عندئذ طلب أن يشتروا له مواداً بقيمة دينارين أو ثلاثة دنانير. وعندما جلبوا له كل شيء، بما فيها كرة واحدة من الطبردية، أذابها

أمام الملك وصنع منها ما يعادل دويلة واحدة من الذهب الخالص. وعندما رأى الملك أنه باثنتين أو ثلاث يمكنه الحصول على دويلة واحدة، شعر بالسرور واعتبر نفسه من أسعد الخلق في العالم، وقال للمحتال إنه بعمله هذا يرى أنه رجل طيب.

فقال له المحتال كما لو أنه لا يعرف أكثر من ذلك:

- سيدي، لقد أريتك كل ما أعرف وأنجزته أمامك. من الآن فصاعداً يمكنك أن تفعله مثلي، إلا إنني أنبهك إذا ما نقصك شيء واحد من تلك المواد فلا يمكنك أن تستخلص منها الذهب.

وبعد أن قال هذا، ودّع الملك ومضى إلى بيته.

وبدأ الملك يجرب بنفسه صنع الذهب. فكان أن ضاعف المقادير فاستخلص منها مقدار دويلتين من الذهب. وضاعف المقادير مرة أخرى فاستخلص ذهباً بمقدار أربع دويلات. وكلما كان يزيد في المقادير يحصل على وزنها من الدويلات. وعندما رأى الملك أن بمقدوره أن يصنع ما يشاء من الذهب، طلب أن يشتروا له ما يمكنه من صنع ألف من الدويلات. وعثروا على كل المواد ولم يجدوا من مادة الطبردية شيئاً. وعندما رأى الملك أنه ينقصه الطبردية، وإلا فإنه لن يستطيع صنع الذهب، بعث في طلب ذلك الذي علمه صنعها وأخبره أنه لا يستطيع صنع الذهب كما اعتاد أن يفعل. وعندما سأله إن كان بحوزته كل المواد المطلوبة التي أمر بكتابتها، أخبره الملك بأنها كلها موجودة عدا مادة الطبردية.

عندئذ قال له المحتال إن أي نقص يمنعه من صنع الذهب، وكان قد أخبره بذلك منذ اليوم الأول.

فسأله الملك إن كان يعرف من أين يمكنه شراء الطبردية فأجابه المحتال بالإيجاب.

فبعث به الملك طالما أنه يعلم أين توجد، وأن يشتري له منها ما يكفيه لصنع كل الذهب الممكن.

فأجاب المحتال بإنها مهمة يمكن أن يقوم بها أي واحد مثله أو أحسن منه، لكنه إذا شاء منه هذه الخدمة فهو على استعداد لتلبية طلبه، ففي بلاده منها الكثير. فأحصى الملك ما يعادل قيمة الشراء والمصروفات وأنقده مبلغاً كبيراً.

عندما أصبح المال في متناوله، غادر المحتال فوراً ولم يعد إلى الملك أبداً. وهكذا انخدع الملك لقلة تدبيره. وبعد أن رأى تأخره عليه، أرسل من يستعلم عنه في بيته، ولكنهم لم يجدوا شيئاً في بيته، بل كانت بوابته مغلقة. وعندما فتحوها، وجدوا فيها ورقة مكتوب عليها «تأكد أنه لا يوجد في العالم شيء اسمه الطبردية، لكن لتعلم أنني خدعتك. وعندما قلت لك أنك ستربح أموالاً طائلة وتزداد ثراء، كان عليك أن تجيبيني: أغن نفسك أولاً حتى أصدقك».

بعد أيام عدة اجتمع مجموعة من الرجال للضحك والتسلية، وخطر على بالهم أن يعدوا قائمة بأسماء الرجال الذين يعرفون، ومع كل واحد ما يدل عليه بطريقة ما، فقالوا: «الشجعان هم فلان وفلان، والأثرياء هم فلان وعلان، والنبهاء فلان وفلان». وهكذا مع الجميع بذكر الأشياء الجيدة وما يخالفها. وعندما أرادوا أن يدونوا أسماء الرجال المغفلين، فكتبوا اسم ذلك الملك. وعندما علم الملك بذلك، أرسل في طلبهم ومنحهم الأمان وسألهم لماذا وضعوا اسمه مع قائمة المغفلين. أجابوه بأنهم فعلوا ذلك لأنه ائتمن رجلاً غريباً دون سابق معرفة به.

فقال لهم الملك إنهم على خطأ لأنه سيتمكن من إحضار ذلك الرجل مع ما حصل عليه منه وسوف يصبح عليهم حذفه من قائمة المغفلين. فكان أن أجابوه بأن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، فلو عاد الآخر، سوف يحذفون اسم الملك ويضعون بدلاً عنه اسم ذلك الرجل.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا أردت ألا يعدونك من المغفلين فلا تجازف بما عندك، بحيث يجعلك تندم إذا خسرت له لوثوقك في ربح مشكوك فيه.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

*لا تجازف بثروتك الكبيرة
لأنك قبلت بنصح دائم الفقير.*

ما جرى لملك شاب مع فيلسوف كبير عهد به أبوه إليه

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، حدث أن كان لي قريب أوده كثيراً، ومات ذلك القريب تاركاً من بعده ابن صغير تكفلت بتربيته بنفسي. ذلك لأنه من أهلي وبينني وبين أبيه مودة كبيرة وأنا أنتظر أن أستعين به حين يصبح رجلاً، والرب يعلم أنني أوده كما لو كان ابناً لي. وعلى ما به من شمائل وثقتي بالرب أن يكون رجلاً صالحاً، إلا أنني أخشى عليه أن تضله فتوته وتمنعه عن فعل ما يناسبه، وأتمنى ألا يقع الفتى فريسة الزهو بشبابه وهو ما يحدث عادة. ولعلمي بنباهتك، أتمنى عليك أن تنصخني بما ينبغي عليّ فعله حتى يستطيع الفتى أن ينتفع بصحته وثروته.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تفعل ما يمكن أن يوافق هذا الفتى جيداً، أرغب في أن تعرف مني ما جرى لفيلسوف كبير مع مريده الملك الشاب.

فسأله الكوندي عما جرى في ذلك الأمر.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان لملك ابنٌ وقد عهد بتربيته إلى أحد الفلاسفة الذي يثق به ثقة عمياء. وعندما توفي الملك خلفه ابنه وهو ما يزال صغيراً. فسهر الفيلسوف على تربيته حتى بلغ سن الخامسة عشرة. وبعد أن دخل في مرحلة الفتوة بدأ يزدري نصائح ذلك الذي رباه وتبع نصائح بعض الفتية ممن لم يكونوا على دين معه ولم يعملوا للحفاظ عليه من الأخطار. وبعد فترة وهو على تلك الحال ساءت حالته البدنية والنفسية بشكل كبير. فجعل كل الناس ينتقدونه لعدم اهتمامه بصحته وتبذيره لثرواته. ازداد الأمر سوءاً، وحزن الفيلسوف الذي سهر على تربيته كثيراً، لكنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقد حاول أن يصلحه بالرجاء والإطراء مرة وبالعتاب القاسي مرات، لكن كل ذلك كان دون جدوى، وفتوته كانت تمنعه عن كل هذا. وعندما علم الفيلسوف بأنه لن يظفر بأي شيء بهذه الطريقة، فكر بالطريقة التالية التي ستسمعها مني الآن.

أشاع الفيلسوف في بلاط الملك شيئاً فشيئاً بأنه يفهم في تفسير لغة الطير. وقد سمعه العديد من الرجال حتى وصل إلى أسماع الملك الشاب. وعندما علم بذلك سأل الفيلسوف إن كان حقيقة أنه يفهم

لغة الطيور كما يقولون. وعلى الرغم من أن الفيلسوف قد أنكر في البداية، إلا أنه كان مُجبراً على الاعتراف له في النهاية وطلب منه ألا يعلم بالحقيقة أحد غيره. وبما أن الفتية لا يصيرون على معرفة كل الأشياء، فقد كان الملك الشاب متشوقاً لمعرفة كيف يقوم الفيلسوف بتفسير لغة الطيور. فراح الفيلسوف يؤجل الأمر والملك الشاب يستعجله ويلح عليه حتى اتفق الفيلسوف معه أن يخرج ذات يوم في ساعة مبكرة دون أن يعلم بهما أحد ليريه كيف يفسر ما تقوله الطيور.

خرجوا في الصباح الباكر وقاد الفيلسوف الملك عبر وادٍ عامر بالقرى القفر المهجورة، وبعد أن سارا طويلاً، لمحا أنثى غراب تتعق على الشجرة. فدَلَّ الملكُ الفيلسوف عليها، فتصنع هذا بأنه يفهم ما تقول. ثم راحت أنثى غراب أخرى تتعق على شجرة أخرى. وظللتا تتعقان لوقت طويل، مرة هذه ومرة تلك. وبعد أن استمع الفيلسوف إليهما لفترة وجيزة بدأ بالبكاء وتمزيق ثيابه وأظهر تألمه الكبير الذي لا يعادله كل آلام العالم.

عندما رأى الملك الشاب ما رأى، جزع وسأل الفيلسوف لماذا يفعل كل ذلك. تظاهر الفيلسوف بأنه لا يرغب في شرح السبب، لكن أمام إلحاحه، قال إنه يفضل الموت على الحياة قبل أن ينطق بكلماته، فحتى الطيور قد أدركت وليس الناس فقط، أنه بتدبيره السيئ قد أضاع أراضيهِ وبدد ثروته وأساء لصحته. فطلب منه الملك الشاب أن يفسر له ذلك. فأجابه الفيلسوف أن أنثى الغرابين كانتا قد اتفقتا على أن يتزوج ابن الأولى بابنة الثانية، وإن انثى الغراب التي تكلمت أولاً قالت للثانية إن الاتفاق قد تم منذ وقت طويل، وقد آن الأوان لتزويجهما. وافقتا الأخرى على ذلك، لكنها أضافت أن الحال قد تغيرت لأنها صارت أكثر ثراءً منها، إذ بفضل الرب ومنذ أن تقلد الملك الجديد الحكم، فإن كل قرى الوادي قد أصبحت قفراً، وأنها تعثر في بيوتها المهجورة على الكثير من الأفاعي والسحالي والضفادع وكل تلك الدواب التي تعيش في الأماكن المُقْفرة. ولهذا فهي تأكل اليوم أفضل بكثير من ذي قبل، لهذا ترى أن الزواج لم يعد متكافئاً. عندما سمعت أنثى الغراب الأخرى ذلك بدأت بالضحك وأجابتها بأنه من حماقة أن تتحدث عن هذا السبب في تأجيل الزواج، لأنه لو فقط أطل الرب من عمر الملك قليلاً فسوف تصبح أكثر ثراءً منها، لأن الوادي الذي تسكنه لن يفتأ أن يصبح قفراً مهجوراً هو الآخر، وفيه عشرات القرى، لذلك فلا داعي لتأجيل الزواج. وهكذا اتفق الطائران على الاحتفال بالزواج دون تأخير.

عندما سمع الملك الشاب هذا الكلام اغتاض جداً، وبدأ يفكر في أنه بسبب سوء أعماله قد جعل أملاكه قفراً. لاحظ الفيلسوف بعد ذلك قلق الفتى ورغبته في الحفاظ على ممتلكاته، فقدم له العديد من النصائح القيمة ونجح في فترة وجيزة في تغيير سلوكه وتنظيم حياته ومملكته.

وأنت سيدي الكوندي قد ربيت هذا الفتى وتريد منه أن يحافظ على حاله، فعليك البحث عن الأمثلة والكلمات الناجعة والإطراء الممكن حتى يتفهم وضعه. ولا تختلف معه أبداً، ولا تحاول تأديبه عن طريق الشجار والشتيمة؛ لأن أغلب الفتية يضجرون ممن يكثر في عتابهم، ويعتبرون كل ذلك إهانة لهم، ولا ينتبهون بالمرّة لأخطائهم. وأفضل صديق للفتية هو من يصل إلى تقويمهم حتى لا يضرروا أرواحهم، ولو أنهم يستأوون عادة من كثرة النصائح. أما إذا فعلت خلاف ذلك، فستشعل فتيل العدا بينكما ويضر بعضكما بعضاً.

استحسن الكوندي نصيحة باترونيو وعمل به فسارت أموره بخير.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

*لا تعاقب الفتى بالإساءة
بل علمه الأمور بالرفق.*

مثال 22

ما جرى للأسد والثور

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، عندي صديق مقتدر ذو نفوذ، والحق أنني لم أر منه إلا الخير، نما إليّ من يقول إنه لم يعد يودني كما كان عليه في السابق، وأصبح يتحين الفرص لمهاجمتي. وأنا اليوم منشغل بهمين اثنين: الأول خشيتي من أن يهاجمني وهذا ما قد يسبب لي المزيد من الأضرار. أما الثاني

فهو خشيتي من أن يعلم بارتياحي وحذري منه فيرد عليّ بالمثل، فتكبر حينها الشكوك والبغضاء ويفسد كل شيء بيننا. ولثقتي الكبيرة فيك، أرجو أن تنصحي فيما تراه مناسباً كي أقوم به.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لكي تتفادي كل هذا، أتمنى عليك أن تعلم ما جرى للأسد والثور.

فرجاه الكوندي أن يخبره عما جرى.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الأسد والثور صديقين حميمين، ونظراً لقوتهما فقد بسطا نفوذهما على بقية الحيوانات، واستطاع الأسد بمساعدة الثور السيطرة على السباع آكلة اللحوم، وسيطر الثور بمساعدة الأسد على الحيوانات آكلة الأعشاب. ولما رأت الحيوانات أن الثور والأسد قد سيطرا عليها بفضل اتحادهما وتعاونهما وهذا ما سبب لها المزيد من الأضرار، فقد تشاورت الحيوانات فيما بينها جميعاً للبحث عن وسيلة للتخلص من سيطرتهم. وأدرك الجميع أنه لو نشب خلاف بين الصديقين، يصبح الجميع أحراراً من سيطرة الأسد والثور. وبما أنهما يعرفان بقرب الثعلب والكبش من الأسد والثور أكثر من بقية الحيوانات، فتمنت عليهما كل الحيوانات أن يعملتا على إثارة الخلاف بين الأسد والثور. وهؤلاء بدورهما وعدا الجميع بأن يعملتا بكل جهد لتحقيق ما فكرت فيه.

طلب الثعلب، وكان مستشاراً للأسد، من الدب وهو أقوى الحيوانات المفترسة بعد الأسد، أن يمضي حتى الأسد ليقول له إنه قد وصل إلى سمعه منذ أيام أن الثور يبحث عن وسيلة للإيقاع به، ومن الضروري أن يحذره حتى لو لم يكن الأمر صحيحاً كل الصحة.

والكبش، وقد كان مستشاراً للثور، طلب الشيء نفسه من الفرس وهو أقوى الحيوانات آكلة العشب بعد الثور.

عندما سمع كل من الثور والأسد ما قاله لهما الدب والفرس، لم يصدقا كل ما جاء به، على الرغم من معرفتهما أنهما من أخلص التابعين لهما، وشكا في الأمر، على الرغم من أن الشك قد غلب عليهما. فقد تشاورا كل واحد منهما على حدة مع الثعلب والكبش.

فقالا لهما إن الدب والفرس من الممكن أن يحيكا لهما الأحابيل لخداعهما، إلا أنه من الأفضل من الآن فصاعداً أن ينتبه كل من الأسد والثور لأفعال وأعمال الآخر ويريا ما عليهما فعله في هذا الشأن.

وحين رأت الحيوانات أن الشك قد بدأ يتسرب بين الأسد والثور، بدأت جميع الحيوانات بالقول لهما ودون موارد إن الحذر إنما ينجم عن سوء النية الخفية في القلوب.

وراح الثعلب والكبش، بعد أن تحولوا إلى مستشارين مزيفين، يبحثان عما يوافقهما ونسيا إخلصهما لسيديهما، فلفقا الكثير من الأكاذيب، وبذلا المزيد من الجهد والتفكير حتى تحولت المحبة التي تجمع الأسد والثور إلى كراهية. وحين رأت الحيوانات ذلك الوضع زادت من الإلاح عليهما والضغط حتى يبدأ المواجهة فيما بينهما، وقد أفهمت كل واحد أنها تقف بجواره، حتى زادت الخلاف ما بين الأسد والثور.

وفي النهاية حدث التالي. على الرغم من أن الأسد قد ألحق ضرراً بالغاً بالثور وأضعف نفوذه، إلا أنه في المقابل تضرر هو أيضاً، وعجز عن السيطرة على الحيوانات التي تقع تحت سيطرته ولا على الحيوانات الأخرى كما كان يفعل من قبل. وهكذا، فإن الثور والأسد لم يفهما أنه بفضل تحالفهما وتعاونهما كسبا احترام الحيوانات الأخرى وفرضا سيطرتهم عليها، كما لم يعرفا كيفية الحفاظ على صداقتهم، ولم يمتنعا عن سماع النصائح المغرصة لتلك التي سعت إلى إضعافهما والتخلص من نفوذهما، فأصاب الأسد والثور الضعف، وخضعا فيما بعد لمن كانوا خاضعين لهما.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، احذر من أن يكون هؤلاء الذين يثيرون الشكوك حول صديقك إنما يسعون للشيء نفسه الذي سعت إليه تلك الحيوانات مع الأسد والثور. لذلك أنصحك إذا كان صديقك ذلك رجلاً مخلصاً ولم تصدر عنه إلا الأعمال الطيبة الوافية، عليك أن تثق به كتفك بابن لك أو أخ طيب، ولا تصدق كل ما يقولونه عنه جزافاً، بل وأنصحك بأن تقول له ما يقولونه عنه ليقول لك هو بدوره ما يقولونه عنك. وعاقب من يسعى لديك بهذه الأقاويل الكاذبة كي يرتدع الآخرون ولا يقومون بالفعل نفسه. أما إذا لم يكن صديقك على الشكل الذي قلته لك، وكانت صلته بك عابرة وبالمصادفة أو للمنفعة، فاحرص على ألا تفعل أو تقول ما يوحي إليه بأنك تشك فيه أو

أنك تريد الإساءة إليه، ولتغفر له بعض أخطائه، واكتم الأمر، وتأكد أنه لن يستطيع أن يلحق بك شراً أكبر من الشر الذي قد يلحقه بك إذا اختلفتما وتعاديتما كما ذكرت ذلك سابقاً. ولكن اجعل هذا الصديق يدرك بأفضل الوسائل أنه من الأفضل لك أن تتقبل مساعدته، وبدوره أن يتقبل منك المساعدة. وأول شيء هو أن يعمل أحكما للآخر الأعمال الصالحة وأن يبدي إرادته الطيبة وألا يدع للشك طريقاً إلى قلبه دون سبب، كما عليه ألا يعتقد بما يقوله رجال السوء أو التركيز على بعض الأخطاء. والآخر هو، أن توضح دائماً أنه من الأفضل أن تتلقى مساعدته كما عليه أن يتلقى مساعدتك. وبهذا تدوم الصداقة ما بين الاثنين ولن تقعا في الخطأ الذي وقع به كل من الأسد والثور.

استحسن الكوندي مثال ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره بخير.

ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

احذر فقدان صديق نافع

بأحابيل رجل كاذب.

مثال 23

ما يفعله النمل لكي يعيش

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، أنا ثري بفضل الرب، لذلك ينصحي بعض الناس، وهو ما أستطيع عمله، ألا أشغل بالي بعد ذلك إلا بالمتعة والأكل والشرب، فالثروة التي بحوزتي تكفيني لما تبقى لي من عمر، بل ولأبنائي من بعدي. وبما أنني أعرف بمدى نباهتك، لهذا أرجو أن تنصحي بما تراه موافقاً لي.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لا أجد عيباً في الراحة والمتعة، لكن لتفعل ما يعود عليك بالنفع في كل الأوقات، لهذا أود أن تعرف مني ما يفعله النمل من أجل أن يعيش.

فسأله الكوندي عن ذلك، وأجابه باترونيو:

- سيدي الكوندي لوكانور، تعلم كم هي صغيرة النملة، ولهذا السبب، ليس عليها أن تكون بذكاء خارق، لكنها تخرج من أوكارها في كل سنة وفي الوقت الذي يحصد فيه الرجال القمح، فتمضي حتى البيادر لتحمل كل ما تقدر عليه من حبوب لتخبئه في بيوتها. وعندما تهطل الأمطار، يُخرج النمل تلك الحبوب. والناس يعتقدون أنه يفعل ذلك لتجفيفه. لكنهم مخطئون لأن الأمر ليس على هذا النحو، فأنت تعلم جيداً أن النمل يُخرج الحبوب من أوكاره مع زخات المطر الأولى، ولا يفعل ذلك كلما أمطرت، وإلا سوف يقوم بعمل شاق جداً. ثم إن الشمس في فصل الشتاء قلما تبرز حتى يتم تجفيف الحبوب بدفء أشعتها.

السبب الحقيقي وراء إخراج الحبوب المخزونة بعد زخة المطر الأولى، هو أنه قد ملأ بها وكره عن آخره، ولتيفرغ بعدها لحفظ مخزون الحبوب ليضمن الحياة تلك السنة. فعندما يهطل المطر، تتبلل الحبوب وتبدأ بالانتفاش، ويدرك النمل أن انتفاش الحبوب معناه فساد المداخل والمخارج وبذلك يكون سبباً في هلاكه. لذلك يخرج الحبوب ويأكل لبها، إذ منها تنطلق الجذور والسيقان، ولا يترك منها سوى قشرتها الخارجية التي لا تنمو أبداً مهما انتفشت بالأمطار، وبذلك يضمن تغذية العام.

لاحظ أيضاً أن النمل يستغل الطقس الجيد دائماً ليقوم بحمل الأعشاب الصغيرة التي يعثر عليها حتى لو كان لديه مخزون من الحبوب يكفيه ويزيد. أي أنه لا يتوقف عن العمل ولا يضيع وقته الذي منحه له الرب لينتفع به.

وأنت سيدي الكوندي، على وتيرة النمل الذي يبين نباهته وحبه للعمل على الرغم من ضآلته، عليك أن تقتنع بأنه لا يصلح لأي أحد لاسيما أصحاب الجاه والسلطة، الاعتماد على ما كسبه من قبل؛ لأن المال الذي يُنفق منه المرء كل يوم دون أن يخلفه سينفذ لا محالة مهما كان طائلاً. وزيادة على ذلك، إن مثل هذا التصرف يعتبر علامة على ضعف العزيمة وقلة في الحزم. لذا أنصحك بالأبتسامة حين تريد أن تأكل أو أن تستريح، وأن تنظر للغد وتتيقن من أنه لن ينقصك شيء من الأموال، فإذا كان عندك منه الكثير وأردت أن تقوم بعمل الخير، فإنك لن تعدم أبداً ما تنفق فيه أموالك، مع ما تحصل عليه من شرف أكبر.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو وعمل به فسارت أموره على خير ما يرام.
ولما وجد دون خوان أنه مثال جيد، أمر بتدوينه، وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية:

*لا تبذر كل ما حصلت عليه
ولتعش حياتك ولتتمت بشرف.*

مثال 24

ما جرى لملك أراد أن يختبر أبناءه الثلاثة

تحدث باترونيو ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، في بيتي يتربى الكثير من الفتية، ومن بينهم أبناء عليّة القوم وآخرون من أبناء الناس البسطاء، وإنني أجدُ في كل واحد منهم خصالاً مختلفة ومتنوعة. وبما أنني أعرف أنك على فهم وإدراك عميقين، فأرجو منك أن تخبرني مَنْ مِنْ هؤلاء الفتية سيصير أفضل الرجال.

- سيدي الكوندي- أجب باترونيو- لا حيلة لي لمعرفة الغد ومن الصعب معرفة ما يخبئه المستقبل. وأنت تسألني عن أمور المستقبل ولن أقدر أن أجيبك إجابة شافية. كل ما يمكن عمله في هذه الحالة هو استقراء العلامات البارزة والخفية التي تصدر عن الفتية. والعلامات الظاهرة هي في قسّمات الوجه ولون الجسد وشكله والأعضاء الأخرى. وكلها تنبئ عن طبع الأعضاء المهمة كالقلب والدماغ والكبد. لكن هذه العلامات ليست سوى إشارات مجردة ولا يمكن التوصل لمعرفة الحقيقة عبرها، فهي نادراً ما تستقر على شيء محدد، فتدل أحياناً على شيء وفي أحيان أخرى على عكسه. لكن الأعمال عادة ما تكون بما تنبئ به العلامات.

الأكثر وضوحاً بينها هي علامات المحيا، خاصة العيون والمظهر، إذ إنها قلما تكذب. ولا تظن المظهر في الحُسن أو الدمامة، فربّ رجل جميل لا مروءة فيه، وربّ دميم الوجه يكون كثير المروءة. وتنبئ هيئة الجسد والأعضاء عن الطباع، وهو ما يدل على شجاعة أو رعونة في المرء.

لكنها لا تنبئ عن الأعمال، فهي مجرد علامات، أي إشارات محددة لا يمكنها أن تخبرنا باليقين التام عما سيحدث. وهذه هي العلامات البارزة، ولا يمكننا الاعتماد عليها للإجابة عن تساؤلك. ولكن لكي نتعرف إلى خصال الفتية من العلامات الباطنة وهي الأصدق، أتمنى أن تعرف مني ما جرى لملك مسلم وهو يقوم بتجربة أبنائه الثلاثة ليختار من بينهم من يخلفه في الحكم.

فرجاه الكوندي أن يخبره بما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان لملك مسلم ثلاثة أبناء، وهو الذي يقدر أن يختار من سيخلفه من أبنائه في الحكم متى يشاء. وعندما بلغ الملك الشيخوخة، طلب منه رجاله الخُص أن يختار من بين أبنائه من يخلفه في الحكم. فوعدهم الملك بأن يقوم بذلك بعد مرور شهر.

وبعد أن مرت ثمانية أو عشرة أيام، قال لابنه الأكبر ذات مساء إنه يريد التجوال معه على صهوة الجواد في صباح يوم غدٍ باكراً. وفي اليوم التالي جاء الابن الأكبر في طلب أبيه، لكنه لم يصل مبكراً كما اتفقا. وعندما وصل أخبره أبوه بأن يطلب له الملابس التي عليه أن يرتديها. فطلب الابن الأكبر من الخادم أن يجلب الثياب، فسأله الخادم أي الملابس يريد؟ فعاد الابن الأكبر إلى الملك ليسأله عن رغبته، فأجابه الملك بأنه يريد ارتداء الجُبة،³⁰ فذهب ليخبر الخادم عن رغبة الملك، فسأله الخادم أي نوع من العبي³¹ يريد؟ فعاد الابن الأكبر ليسأل الملك عن ذلك. وتكرر الأمر مع بقية الثياب، والابن الأكبر يذهب ويجيء ما بين الملك والخادم، حتى حصل الملك على كل ما يبتغيه. وجاء بعدها الخادم ليساعده بارتداء الثياب والنعلين.

وبعد أن انتهى الملك من ارتداء الثياب والنعلين، أمر ابنه بإحضار الجواد. فطلب الابن الأكبر من السائس أن يحضر الجواد، فسأله هذا أي جواد يريد الملك؟ فعاد الابن الأكبر يسأل الملك، وتكرر الأمر بسؤال الملك مع السرج واللجام والسيف والمهاميز وكل ما يحتاجه للركوب.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، أخبر الملك ابنه الأكبر بأنه لا يستطيع الخروج للتجوال، وطلب منه أن ينزل وحده إلى المدينة ويراقب كل شيء ليعود ويقص عليه ما رآه.

امتطى الابن الأكبر جواده وخرج رففته رجال البلاط والملك تسبقهم الأبواق والمزامير وبقية الآلات. وتجول في المدينة بعض الوقت، ثم عاد إلى حيث الملك الذي سأله بدوره عن رأيه

فيما شاهد. فأجاب الابن الأكبر بأن كل شيء على ما يرام، إلا أن ضحيج تلك الآلات كان عالياً ومزعجاً.

بعد مضي أيام قليلة، أمر الملك ابنه الأوسط بأن يأتيه في صباح اليوم التالي باكراً، ففعل الابن الأوسط. وأخضعه الملك للاختبار نفسه الذي مرّ به أخوه الأكبر. وقال تماماً مثلما قال شقيقه الأكبر.

وبعد أيام أخرى استدعى الملك ابنه الأصغر ليأتيه باكراً. ووصل الابن الأصغر باكراً وقبل أن يستيقظ الملك وانتظر حتى استيقظ، عندئذٍ دخل عليه كما يجب بكل أدب وتواضع. فأمره الملك أن يأتيه بثيابه. فسأل الابن الأصغر أي الثياب يريد، وبعد أن سأله عن كل شيء بشأن الثياب والنعلين، مضى لي جلب كل شيء مرة واحدة. ولم يشأ أن يقوم أي خادم باللباس الملك بل قام به بنفسه، وعبر عن سعادته وسروره بخدمته، فهو أبوه ومن الطبيعي أن يقوم الابن بخدمة الأب. وعندما انتهى الملك من ارتداء ثيابه ونعليه، طلب من الابن الأصغر أن يجلب له جواده. فسأله أي جواد يرغب وأي سرج وأي لجام وأي سيف وكل تلك الأشياء اللازمة لامتناء الجواد، ومن يرغب بمصاحبته في الجولة ولم ينس أي شيء ينبغي السؤال عنه. وعندما انتهى من السؤال، لم يتأخر في جلب كل شيء دفعة واحدة. ف جلب كل شيء وأحضره مثلما أمر به الملك.

بعد كل ما عمله، قال الملك أنه غير راغب في الخروج وطلب منه أن يمتطي الجواد وأن يحكي له عما سيشاهده في تجواله. فامتطى الابن الأصغر جواده ومضى معه كل أولئك الذين رافقوا شقيقه. لكنه لا هو ولا أي شقيق ولا أي أحد آخر يعرف أسباب ما كان يريده الملك من كل هذا.

عندما امتطى الابن الأصغر جواده، طلب أنه يأخذوه ليشاهد كل ما يجري في المدينة من الداخل وفي الشوارع، وكل ما للملك من ثروات وكم عددها، وعن المساجد وكل ما هو مميز في المدينة، وكم عدد سكانها. بعد ذلك مضى إلى خارج المدينة وأمر أن يستعرض أمامه كل الرجال المسلحين والفرسان والمشاة، وطلب منهم أن يتصارعوا فيما بينهم وأن يقوموا بالمناورات والألعاب الحربية الأخرى. وراجع كذلك الأسوار والأبراج والقلاع. وبعد أن رأى كل شيء، عاد إلى حيث أبيه الملك.

ووصل في وقت متأخر. فسأله الملك عن الأشياء التي شاهدها، فأجابه الابن الأصغر بأنه يود قول الحقيقة ويتمنى ألا يزعجه ذلك. فأكد له الملك أنه مهما قال فلن يجد عنده إلا الرضا والقبول. فقال له الابن الأصغر إنه دائم الولاء له، وقد رأى فيه دائماً ملكاً جيداً، لكنه تأكد الآن أن الأمر ليس إلى هذا الحد، إذ لا يفهم لماذا لم يفعل أي شيء، ولم يحاول السيطرة على العالم بأجمعه لو شاء ذلك.

راقت للملك صراحة الابن الأصغر، وعندما حانت الفرصة ليخبر رجال مملكته عن اختياره، قال لهم إن الابن الأصغر هو الأفضل ليكون ملكاً.

لقد دلته العلامات التي رآها في الآخرين وفي هذا الابن الأصغر، وحتى لو كان يفضل أي واحد منه الآخرين أن يكون ملكاً، فإنه قد رأى في الابن الأصغر ما لم يره في الآخرين.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، تريد أن تعرف أي فتى سوف يصير رجلاً نافعاً، فعليك أن تتمعن جيداً في الأمور لتستخلص ما سيكون عليه كل واحد منهم.

استحسن الكوندي ما ذكره له باترونيو.

ولأن دون خوان قد رأى أنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

تمعن في أعمال وخصال الفتية

لتعرف ما سيكون عليه كل واحد منهم.

مثال 25

ما جرى لكوندي بروفنسا الذي تم تخليصه من السجن
بفضل نصيحة أسداها له صلاح الدين³²

تحدث الكوندي لوكانور في يوم من الأيام مع باترونيو، مستشاره فقال له:

باترونيو، قال أحد رعاياي لآخر في يوم من الأيام إنه يرغب في تزويج إحدى قريباته، ولأنه يريد أن أقدم له نصيحة نصوح فقد طلب مني أن أنصحه بما هو خير له، قائلاً لي إنه هو الذي يطلبون منه إحدى قريباته لتكون زوجة، ولأنني أريد لهذا الرجل أن يتخذ سواء السبيل، وأنت تفهم في هذه الأشياء، فإنني أطلب منك أن تقول لي ما تعتقده حتى أقدم له النصيحة التي ترضيه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- حتى تستطيع تقديم نصيحة كل من يرغب في تزويج قريبتة بشكل طيب، أحب أن تعرف ما حدث لكوندي بروفنسا مع صلاح الدين، الذي كان سلطاناً على مملكة بابل.

فرجاه الكوندي أن يقص عليه ذلك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- يُحكى أنه كان في بروفنسا كوندي طيب جداً وكان يتوق إلى فعل أي شيء في سبيل الله ليجزيه الله خيراً ويحصل على الرضاء الأبدي وتدخل روحه الجنة، وأن يقوم بأعمال تزيد من ثروته وسلطته وتحفظ له كرامته. وحتى يمكنه أن يقوم بذلك فقد جمع جيشاً كبيراً ومجهزاً وقاده باتجاه الأراضي المقدسة، وكان يعتقد أنه مهما حدث له فإنه سوف يعتبر نفسه محظوظاً، لأن ما يحدث له سوف يكون أثناء جهاده في سبيل الله، لأن الله معجزاته الخفية فإنه يمتحن أحياناً بعض عباده الصالحين، فإذا نجحوا في الامتحان فإنه يزيدهم من الثراء والسلطة، ولذلك فقد رأى الله أنه من المفيد أن يمتحن كوندي بروفنسا فأوقعه في أسر السلطان.

وعلى الرغم من أنه كان أسيراً إلا أن السلطان صلاح الدين عندما عرف مكانة الكوندي فقد عامله بما يليق به من العزة والكرامة، وكان إذا أراد أن يقدم على فعل مهم كان يطلب من الكوندي النصح، وكان الكوندي يبذل الجهد ويسدي النصح حتى نال ثقة السلطان، مما جعل له تأثيره عليه على الرغم من الأسر الذي كان فيه، وكان يتمتع لدى صلاح الدين بما يكاد يساوي نفوذه في بروفنسا.

عندما خرج الكوندي من بلاده كان قد ترك خلفه ابنة صغيرة جداً، ولأنه ظل أسيراً لفترة طويلة فقد كانت الطفلة قد بلغت سن الزواج، فقامت زوجته الكونديسة وأقاربه بالكتابة له لإبلاغه بأسماء أبناء الملوك والنبلاء الذين يطلبون الزواج منها.

في يوم من الأيام ذهب إليه صلاح الدين ليتجاذب أطراف الحديث مع الكوندي، بعد أن كان قد توصل إلى حل لبعض الأمور التي وضعها السلطان بين يديه، فحدثه الكوندي قائلاً:

- سيدي، أنتم تفعلون معي أجمل وأكرم الأشياء، وتتقون بي عظيم الثقة، مما يجعلني عاجزاً عن رد ما تفعلونه معي مقابل خدماتي التي أقدمها لكم، وعظمتكم تطلبون مني النصح لما يعن لكم من مشاكل، وأنا أقدم لكم أفضل ما أعرفه، والآن أرجو منكم النصيحة في أمر يؤرقني.

شكر السلطان للكوندي كلماته، وقال له إنه على استعداد لنصيحته عن طيب خاطر، وإنه على استعداد لم يد المساعدة له إذا كان ذلك في إمكانه.

حينئذٍ حدثه الكوندي عن خطاب ابنته، ورجاه أن ينصحه ويخبره عن أفضل المتقدمين لها ليزوجها له.

فأجابه صلاح الدين:

- يا كوندي، أنا أعرف أن ذكائك يجعلك تفهم الكلمات القليلة التي سأقولها لك. وفي هذا الموضوع سوف أقدم لك النصيحة طبقاً لرأيي الخاص، فأنا لا أعرف خطاب ابنتك، ولا أنسابهم ولا قوتهم، ولا مواهبهم ولا حتى علاقتهم بك، ولا أعرف أيّاً منهم أفضل من الآخرين، لهذا لا أستطيع أن أكون موقناً من مدى صلاحية نصيحتي، وكل ما أقوله لك أن تزوج ابنتك من رجل.

شكره الكوندي كثيراً، وفهم جيداً مغزى كلمات السلطان، فأجاب زوجته وأهله بنصيحة السلطان، قائلاً لهم أن يسألوا عن عدد النبلاء في إقطاعيته، وكيف حالهم، وما هي عاداتهم، وما هي شمائلهم، وطلب منهم ألا ينظروا إلى ثرواتهم وسلطانهم، وعليهم أن ينظروا فقط إلى الذين يثقون في قدراتهم الشخصية، وطلب منهم أن يبحثوا هذه الأمور حول أبناء الملوك والسادة الكبار الذين يأملون في الزواج من ابنته، وعن بقية الرجال الآخرين في المنطقة.

تعجبت الكونديسة وباقية الأقارب كثيراً، لكنهم استجابوا لطلبه وكتبوا له في الصفات الحميدة والمذمومة وأحوال الخطاب الذين يطلبون الزواج بابنة الكوندي، و عملوا الشيء نفسه بشأن رجال المقاطعة النبلاء الآخرين، وبعثوا بها كلها إلى الكوندي.

عندما توصل الكوندي بالمكتوب عرضه على السلطان حالاً. وعندما اطلع عليه صلاح الدين وجد أن المرشحين جيدين على العموم، لكنه وجد في أبناء الملوك والسادة الكبار مأخذ: بعض منهم يسرف في الشرب والآخر في المأكل، آخرون سريعو الغضب، وآخرون أفضاضاً أو متكبرين، وبعض منهم يميل لرفاق السوء وآخرون بهم عي في اللسان، وآخرون مملؤون بعيوب أخرى. إلا أنه قد وجد في واحد منهم وهو ابن لرجل ثري ليس له نفوذ كبير مثل الآخرين وهو حسب تقديره أفضلهم وأجدرهم وأقلهم عيوباً. فكان أن نصح الكوندي بتزويج ابنته من ذلك الرجل، إذ حتى لو كان الآخرون أكثر ثراءً ونفوذاً، فمن الأفضل تزويجها بذلك الرجل وليس بواحد من أولئك الذين تشوبهم العيوب، وقد وجد الفضل في مناقب هذا أكثر مما وجده في ثراء وشرف أولئك.

أرسل الكوندي إلى زوجته وبقية أقربائه طالباً منهم أن يزوجوا ابنته من الرجل الذي وقع اختيار صلاح الدين عليه. وعلى الرغم من استغراب الكثير منهم، إلا أنهم بعثوا في طلب ابن ذلك الرجل الثري وأخبروه بما استقر عليه الكوندي. فأجابهم الشاب بأن الكوندي أكثر ثراءً ووجاهة من أبيه، وهو لو كان يمتلك النفوذ نفسه لكان لائقاً بالزواج من الفتاة، وبما أنه ليس كذلك، فيبدو اقتراحهم مجرد كلام ولا نية حقيقية لتنفيذه وهم بذلك يسيئون له ويهينونه بلا سبب. فأكدوا له أنهم يعنون ما يقولون وأطلعوه على نصيحة صلاح الدين للكوندي بتزويج ابنته منه وليس بواحد من أبناء أولئك الملوك والسادة الكبار، وقد اختاره لمروءته.

ما أن سمع الشاب ذلك الكلام حتى عرف أن الأمر جاد، فقال في نفسه بما أن السلطان قد شرفه واختاره لمروءته، فلن يستحق هذه السمعة إن لم يفعل ما يؤكد لها. وكان أن أجاب الكونديسة وبقية الأقارب بأنه يصدق ما يقولون لو أنهم سلموه في الحال إدارة أموال الكوندي وأملاكه دون أن يخبرهم بما ينوي عمله بها. أعجبوا بطلبه واستجابوا لطلبه دون تأخير. فأخذ منهم مبلغاً كبيراً من المال وجهاز سفناً حربية عدة دون أن يخبر أحداً بنواياه واحتفظ بما تبقى لديه من أموال. وبعد ذلك أعلن موعد زواجه.

أقيمت احتفالات رائعة ومبهجة وتم عقد قرانه على الفتاة. عند حلول الليل ذهب إلى مقصورة زوجته، لكنه لم يدخل عليها، بل استدعى الكونديسة وبقية الأقارب وأخبرهم سراً بأنهم يعرفون جيداً أن الكوندي قد اختاره بناء على نصيحة نصحه بها صلاح الدين وهو أن يزوج ابنته من «رجل»، والكوندي والسلطان قد شرفاه بهذا الاختيار، إلا أنه لن يكون رجلاً لو لم يقيم بواجبه.

لهذا فإنه يترك الفتاة التي تزوج بها وأملاك الكوندي عهدة في أيديهم لأنه سيرحل حالاً على أمل أن يهديه الرب للقيام بواجبه، وسيرى الجميع أنه «رجل» فعلاً.

بعد أن قال ذلك، ركب حصانه وانطلق في مغامرته. اتجه أول الأمر إلى مملكة أرمينيا، حيث عاش لوقت طويل حتى تعلم لغة البلاد وعاداتها، وعرف بشغف صلاح الدين بالقنص.

جمع العديد من طيور الصيد الحاذقة والعديد من الكلاب واتجه لملاقاة صلاح الدين. لكنه قبل ذلك كان قد وزع سفنه في كل المرافئ، وقد أمرهم بألا يغادروا مواقعهم إلا بأمر منه.

عندما وصل إلى السلطان، لقيّ ترحيباً طيباً. لكنه لم يقبل يده ولم يبجله كما يبجل الخدم السادة. أمر صلاح الدين بمنحه كل ما يحتاج، لكنه شكر له فضله ولم يتقبل منه أي شيء، وقال له أنه لم يأت طمعاً في مساعدته، بل بما سمعه عنه. وطلب منه أن يسمح له بقضاء وقت في بلاطه ليتعلم من خصاله وخصال جماعته. كما أنه يعلم بشغفه بالصيد لذلك أحضر له طيوراً وكلاباً مدربة، وهو يرجوه أن يختار منها ما يشاء، كما يرغب بمرافقته في رحلات الصيد وهو مستعد أن يخدمه بما يستطيع أو في أي مهام أخرى.

شكره صلاح الدين على ذلك، واختار مما وجده مناسباً منها، لكنه لم يستطع أن يقبل منه الآخر أي هدية أو مالاً أو أي شيء آخر يجبره على أن يرهن حياته ويقيدها بالولاء له. وهكذا أمضى أيامه في بلاطه لوقت طويل.

وبما أن الرب يرتب الأمور حسب مشيئته، وقد شاء الرب، وهما في رحلة صيد معاً أن تطير الصقور لاحقاً بطيور الكراكي ولكنها لم تظفر بها حتى وصلت إلى المرافئ التي رست عندها السفن التي وزعها نسيب الكوندي. واتفق أن السلطان على جواد رائع، وهو على الجواد الآخر، أن ابتعدا كثيراً عن المرافقين الآخرين حتى غابا عن الأنظار. عندما وصل صلاح الدين إلى حيث كانت الصقور تنهش طيور الكراكي، تزلزل عن جواده لمساعدتها، وعندما رأى نسيب الكوندي ذلك أعطى إشارته لأصحابه في المراكب. عندما وجد السلطان، وهو منشغل بإطعام الصقور، نفسه محاطاً بمجاميع السفن، تعجب من هول الأمر. حينذاك استل نسيب الكوندي سيفه واتجه إليه يريد أن يقتله. عندما رأى صلاح الدين ذلك، بدأ بالشكوى واعتبرها خيانة له. فأجابه نسيب الكوندي بأنه ليس من الخونة، وذكره بأنه رفض في كل لحظة أن يعامله معاملة الخادم للسيد، ولم يتقبل منه أي

عطايا، أو أي شيء يجعله مديناً له بالولاء، لذلك لا ينبغي له أن يشتكي لأنه مسؤول عن كل ما يحدث.

بعد أن قال ذلك أخذه وصعد به إلى السفينة. وعندما أصبحا على متنها، قال له إنه نسيب الكوندي، وهو نفسه الفتى الذي اختاره هو بنفسه من بين آخرين أعلى منه شأنًا ومكانة، لأنه «رجل»، وأنه لو لم يفعل ما فعله الآن فلن يكون قد تصرفَ كرجل. لذلك يطلب منه أن يقوم بإطلاق سراح حماه حتى يرى هذا الأخير كم كان صائباً السلطان في نصيحته.

عندما سمع صلاح الدين هذا الكلام، حمد الله وسرَّ كثيراً بصواب نصيحته وهو سرور لا يعادله أي نفع أو انتصار آخر مهما كان عظيماً. فقال لنسيب الكوندي إنه سوف يطلق سراحه عن طيب خاطر.

ما أن وثق النسيب بكلام السلطان حتى تركه يغادر السفينة. ثم مضى معه بعد أن أمر أصحابه بالابتعاد عن المرفأ، بحيث لا يراهم أي شخص يصل إلى هذه الناحية. استمر صلاح الدين ونسيب الكوندي بتحريض الصقور على اللحاق بالكرائي. وعندما التحق به أصحابه وجدوه فرحاً مسروراً، ولم يخبرهم عما جرى له.

عندما وصل إلى المدينة، اتجه فوراً إلى بيت محبس الكوندي رفقة النسيب الشاب، وما أن رآه، حتى ابتدأه الكلام بفرح قائلاً:

- أيها الكوندي، الحمد لله الذي جعلني أوفق بنصيحتي لك بشأن زواج ابنتك. ها هو نسيبك هنا وقد أُنقذك من الحبس.

حينذاك قصَّ عليه ما عمله نسيبه. وأطرى كثيراً على المجهود والحذر اللذين أبداهما حتى ألقى القبض عليه ومن ثم المروءة التي أبداها بثقته بوعده. أثنى الكوندي وكل من سمع بالحادثة على ما قام به النسيب، وحمدوا الرب الذي قام بتصريف الأمور على خير ما يرام. وكان أن قدم السلطان عطايا نفيسة وكثيرة للكوندي ونسيبه، ولكي يعوض الكوندي عن متاعب حبسه، منحه أضعاف إيرادات بلاده إثناء كل ذلك الوقت الذي أمضاه بينهم. وأرسله إلى بلاده سعيداً وثرياً.

وقد حدث كل ذلك بفضل نصيحة السلطان للكوندي بتزويج ابنته من «رجل».

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، ترغب في نصح تابع لك بتزويج قريبة له، فلتنصحه أولاً أن يكون الخطيب رجلاً حقيقياً، فمن الخطأ بمكان أن يُبنى الزواج على الشرف والجاه فحسب. اعلم أن صاحب الرجولة والمروءة يزيد من شرفه ويعزز من نسبه ويزيد من ثرائه، إذ مهما كان الإنسان ثرياً أو صاحب ثروة وشرف، فسرعان ما يخسر كل ما يملك إن لم يكن رجلاً حقيقياً. كما أنني أستطيع أن أقص عليك الكثير هنا عن رجال ترك لهم آباؤهم الثروات الطائلة والشرف العظيم، لكنهم لم يستطيعوا القيام بواجبهم على ما يرام، فضيعوا الثروات والنسب. أو عن رجال آخرين أقل شأنًا وثراء فوُفقوا بزيادة ثرواتهم والرفع من منزلتهم لقيامهم بواجبهم، وكان أن استحقوا المديح والإطراء بفضل ما حققوه لا بفضل ما ورثوه عن آبائهم. فلتدرك أن كل النفع والضرر إنما يأتي من سلوك الرجل نفسه، لا من منزلته أو مكانته. فأول ما ينبغي لنا الاهتمام به في الزواج، سواء كان للرجال أو النساء، يكمن في الخصال والعادات والنباهة والأعمال الصالحة عن الطالحة. وبعد أن نضع كل هذا في الحساب، فإذا كان النسب أعلى والجمال أفضل والقربى أمتن رباطاً، كان الزواج أحسن لا محالة.

استحسن الكوندي آراء باترونيو واستصوب كل ما قاله من حجج.

ولأنه رأى بأنه مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

الرجل الحقيقي من يُعلي من شأن الأمور

ومن لا يكون، يُصغر كل الأعمال.

مثال 26

ما جرى لشجرة الكذب

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو فقال له:

- باترونيو، تعلم أنني مستاء جداً وفي خصام مع بعض الأشخاص الذين لا يودوني كثيراً، وهم أشخاص مشاغبون وكاذبون ولا يكادون يقولون كلمة صدق بحقي، وتلك عاداتهم مع كل من يتعاملون معهم. وأكاذبيهم التي يقولون ويعملون بها مزينة جداً وتعود عليهم بالنفع وتسبب لي ضرراً بالغاً، وبها يزدادون قوة وسطوة ويثيرون بها الناس ضدي. وإذا ما عملت مثلهم، فبإمكاني أن أقوم به خيراً منهم. لكنني أعرف أن الكذب شر وأرغب بالنأي عنه. والآن أرجو أن تسعفني برأيك السديد عن كيفية التصرف مع مثل هؤلاء الرجال.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تقوم به لمنفعتك على خير ما يرام، فلا بد أن تسمع مني ما جرى للحق مع الكذب.

فرجاه الكوندي أن يخبره عن ذلك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- اجتمع ذات مرة الحق مع الكذب وأمضيا وقتها معاً، وبما أن الكذب مجبولٌ برغبات عنيفة، فقد اقترح على الحق أن يغرسا شجرة حتى يتمتعا بثمارها ويجلسا في ظلها حين يشتد القيظ. فوافق الحق على هذا الاقتراح لبساطته ولمعدنه الطيب.

وبعد أن غرسا الشجرة وبدأت في النمو، قال الكذب للخير أنه يقترح أن يتقاسما الشجرة فيما بينهما. فوافق الخير عن طيب خاطر. وقال الكذب مقنعاً الحق، مزوقاً له الأسباب ومزيناً لها، إن الجذور تمنح الحياة والديمومة للشجرة، وهي الشيء الأفضل والأكثر نفعاً، لذلك ينصحه أن يقبل بالجذور العميقة تحت الأرض. بينما هو سيقبل بالأغصان التي لم تبرز بعد على الرغم من الخطر الكبير الذي ينتظرها فوق الأرض، إذ إنها ستكون عرضة لأن يحجبها أو يسحقها البشر، أو تتعرض للكسر من قبل الحيوانات أو أن تخمشها الطيور بالمخالب أو بالمناقير أو أن يجففها الحر الشديد أو أن يجمدها البرد الكثير. بينما لن تتعرض الجذور أبداً لأي من هذه المخاطر.

عندما سمع الحق كل هذه الحجج، ولأنه لا يفقه فنون التلاعب الشريرة ولثقتة وطيبته، صدق أن كل ما يقوله الكذب حقيقة، وفكر في أن الكذب ينصحه بأن يختار الجزء الأنفع منها. لهذا وافق على الجذور ومضى عندها بكل رضا. عندما انتهى الكذب من هذه المهمة، شعر بسعادة بالغة لأنه خدع صاحبه بأكاذيب رائعة مزوقة.

هبط الحق إلى حيث الجذور التي اختارها وعاش هناك. وبقي الكذب على وجه الأرض حيث يعيش ويتنقل البشر وكل الأشياء الأخرى. ولأنه كان مُعلماً في الإطراء فقد جعل الجميع يرضون عنه في وقت قصير. أما الشجرة، فقد بدأت في النمو وتتفرع أغصانها الكبيرة وأوراقها العريضة تشكل ظلاً وارفاً، إضافة إلى أزهارها ذات الألوان الزاهية التي تسر الأنظار.

بعد أن رأى البشر جمال الشجرة، بدأوا يجتمعون جوارها برغبة، متمتعين بظلها وبأزهارها ذات الألوان الزاهية. وزاد حضور الناس عندها، بل إن الناس في مناطق أخرى كانوا يخبر بعضهم بعضاً بأن من يبتغي الراحة والسرور فلا بد له أن يلجأ إلى ظل شجرة الكذب.

وبما أن الكذب متملقٌ بطبعه وذكي، فعندما يجتمع البشر أسفل تلك الشجرة، كان يقوم بإدخال السرور عليهم وتعليمهم الكثير من فنونه. وبهذا جذب الكثير من البشر من أصقاع العالم: لبعضهم كان يعلمه الأكاذيب البسيطة، ولآخرين الأكثر نباهة يعلمهم الأكاذيب المزدوجة، أما الحكماء منهم فيعلمهم تلك الأكاذيب المُركبة.

ولكي تعرف عن هذا، فالكذبة البسيطة هو عندما يقول رجل لآخر «سيد فلان، سأعمل هذا الشيء من أجلك» وهو يكذب بذلك. أما الكذبة المزدوجة هي حين يقسم المرء ويقدم العهود والضمانات بأنه سوف يقوم بإنجاز كل ذلك المتفق بينهما من وعود، بينما يكون قد فكر في الأمر وعلم بالوسيلة التي يتملص فيها بالكذب والخديعة. أما الكذب المُركب، فهو الخداع المميت، أي أن يكذب عليه ويخدعه بالحق.

كان الكذب حاذقاً في كل هذا، وكان يحسن تعليمه لمن يرغب في الاجتماع تحت ظل شجرته. وأصبح المتعلمون النبهاء الذين أحاطوا بتلك المعارف يظفرون بكل ما يرغبون فيه ويخضعون لإرادتهم من لا علم لهم. وكانوا يحصلون على ذلك بفضل جمال الشجرة من جهة ومن جهة أخرى بفضل الفضل الكبير الذي تعلموه من الكذب. لهذا كان البشر يرغبون في الحضور تحت ظل الشجرة وتعلم ما يلقنه الكذب.

بهذه الحال، عظم شأن الكذب بين الناس وزاد البشر من رفقتها، وتم تقليل شأن من لم يظفر بقربه منها ولا تعلم فنونها، بل أصبح هؤلاء يستصغرون أنفسهم بأنفسهم.

بينما كان الكذب يستمتع بالشهرة، كان الحق تعيساً ومطموراً تحت الأرض ولا أحد في العالم يعلم عنه شيئاً أو يسعد به أو يرغب في البحث عنه. ولما لم يبق له شيئاً يسد رمقه، راح يقرض جذور الشجرة تلك، وهي الجزء الخاص به مقتفياً نصيحة الكذب. وبسبب ما ينقصه من طعام، فقد مضى بالقص والقشط والتغذي على جذور شجرة الكذب. وعلى الرغم من أن الشجرة كانت ذات أغصان قوية وأوراق عريضة تنفع كظل كبير صالح للاحتماء به والعديد من الأزهار البهيجة الزاهية، فقد أتى الحق على جذورها قبل أن تؤتي ثمارها؛ لأنه لم يجد شيئاً يسد جوعه.

عندما تأكلت كل الجذور، وبينما كان الكذب مستلقياً تحت الشجرة رفة بشر جاءوا لتعلم فنونه، هبت الريح واقتلعت الشجرة، بما أن جذورها قد تأكلت فقد كان من السهولة الإطاحة بها، فوقعت فوق الكذب وتركته بأسوأ حال. كما قتلت وجرحت وأصابت العديد ممن كانوا معه يتعلمون من فنونه.

من الكوة التي خلفها الجذع، خرج الحق الذي كان مختبئاً، وعندما أصبح على السطح وجد الكذب ومن معه مصابين وبحال سيئة نادمين على تعلمهم استعمال فنون الكذب.

وأنت سيدي الكوندي، لاحظ أن للكذب أغصاناً طويلة وأزهاراً هي أقواله وأفكاره وتملقه. ومهما كانت رائحة تعجب البشر، فهي ليست سوى ظل لا يمنح أبداً ثماراً طيبة. - لهذا إذا استخدم خصومك الكذب والخداع، فحاول أن تتجنبهم ولا تنافسهم ولا تغبطهم على ما يظفرون به بهذه الوسيلة، وتأكد أن كل ذلك لن يدوم لهم كثيراً، وسوف تكون في انتظارهم عاقبة السوء، وسيقعون وهم يظنون أنهم بمأمن، كما سقطت شجرة الكذب فوق رؤوس من كانوا يستمتعون بظلمها. وحتى لو كان الحق مُحترقاً، فلا بد لك أن تنتشبت به والرفع من شأنه كأحسن ما يكون، لأنه بالحق ستعيش سعيداً، وستؤول أمورك إلى الخير وتفوز برضاء الرب، وينعم عليك باليسر والخير للجسد في هذه الدنيا، وخلص الروح في الآخرة.

استحسن الكوندي نصيحة باترونيو وعمل بها وسارت أموره على خير.

ولأنه رأى أنها مثال جيد، فقد أمر دون خوان بتدوينه في كتابه هذا، وكتب فيه هذه الأشعار:

تجنب الكذب واتبع الحق دائماً

فالشـر لصيق بمن يتبجح بالكذب .

مثال 27

ما جرى لأحد الأباطرة وللسيد آلبار فانيث مينايا مع زوجتيهما

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو وقال له:

- باترونيو، لي شقيقان متزوجان وكل واحد منهما يعيش بطريقة مختلفة عن الآخر، فالأول يحب تلك السيدة التي تزوج بها حباً شديداً، حتى أننا نعجز تماماً عن إبعاده عنها ولو ليوم واحد. كما لا يفعل أي شيء سوى ما ترغب فيه وقبل أن يسألها عنه. أما الآخر، فقد عجزنا بكل الطرق أن نجعله ينظر إليها ولو لمرة أو أن يدخل عليها في البيت. ولأنني أعاني كل هذا، أرجو منك أن تدلني على الوسيلة المناسبة لكي نبحت عن علاج لهما.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- حسب هذا الذي ذكرت، فإن شقيقك يخطئان في فعلهما هذا، فليس عليهما أن يظهرأ مودة كبيرة ولا كرهاً مقبلاً للسيدتين المتزوجين بهما. بل وأكثر، فإذا كانا مخطئين، فالسبب يعود لطبع تلكما السيدتين. ولكي يتضح لك ما أعنيه، فلا بد أن تعرف مني ما جرى للإمبراطور فديكو وللسيد دون آلبار فانيث مينايا مع زوجتيهما.

فسأله الكوندي عنهما.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- بما أنهما مثالان اثنان، لا يمكنني أن أقصهما في الوقت نفسه، لهذا سوف أقص عليك ما جرى للإمبراطور فديكو وبعدها فوراً ما جرى للسيد دون آلبار فانيث.

سيدي الكوندي، تزوج الإمبراطور فديكو بفتاة من علية القوم مثله، وعلى الرغم من ذلك، جرى أنه لم يتعرف إلى طباعها إلا بعد الزواج بها. إذ بعد زواجهما، وعلى الرغم من طبيعتها

وعفتها، إلا أنها أظهرت شراسة وعناداً وتمرداً لا مثيل له في العالم. فإذا أراد الإمبراطور أن يأكل، قالت إنها صائمة، وإذا شاء الإمبراطور النوم، تقوم من الفراش، وإذا خص الإمبراطور أحدهم بالمودة، أبغضته على الفور. «ماذا أضيف أكثر؟» فكل الأشياء التي تعجب الإمبراطور، كانت تسوؤها، وكل ما يفعله الإمبراطور، تعاكسه فيه دائماً.

بعد أن عانى الإمبراطور لبعض الوقت، أيقن أنه لا تنفع معها أي وسيلة لإخراجها من عنادها لا هو ولا أي شخص آخر، فلا بالرجاء ولا بالتهديد، لا بالإطراء ولا بالوعيد. وعندما تأكد أنه لن يعثر على وسيلة تخلصه من الأضرار التي تلحقه هو وأعماله وقومه من الحياة المنغصة التي يحيوها، عندما رأى كل هذا، مضى إلى البابا ليقص عليه مشكلته وما تجره من منغصات عليه وعلى كل من يعيش على أرضه جراء تصرفات الإمبراطورة. ورجاه لو كان ذلك ممكناً أن يفرق بينهما. لكن البابا أجابه بأن المسيحيين لا يمكنهم الطلاق، ولا وجود لوسيلة تسمح بذلك على الرغم من الطبع السيئ للإمبراطورة، ورأى البابا أن الزواج يجب أن يستمر.

عندما لم يعثر البابا على وسيلة للخروج من هذا المأزق، قال للإمبراطور إنه يترك الأمر لفهمه وذكائه، إذ لا يمكنه أن يمنحه التوبة قبل أن يرتكب الخطيئة.

ودع الإمبراطور البابا وعاد لبيته وبذل هناك كل ما في وسعه، ولجأ لكل الوسائل من إطراء وتهديد ونصح وخداع وكل ما رآه من كانوا يعيشون معه نافعاً لإصلاح طبعها السيئ، لكن دون جدوى، فكل ما يقومون به كانت تقابله كل يوم بالعكس تماماً.

وعندما رأى الإمبراطور أنه لا سبيل لإصلاحها بالمرّة، أخبرها يوماً ما بأنه راغب في الذهاب في جولة لصيد الغزلان، وسوف يحمل معه القليل من الأعشاب التي يستعملها لتسنين السهام لصيد الغزلان، ويترك المتبقي منها في البيت، لكنه حذرهما من ألا تستعمل تلك الأعشاب ضد أي جرب أو قشرة أو جرح ينزف دماً، لأن الأعشاب قوية ولا أحد في الدنيا يعيش بعد أن يستخدمها لأنها تقضي عليه فوراً. وتناول مرهماً آخر ودهن به جروحاً متقرحة كانت في جسمه، وعمل ذلك أمامها. ورأت هي ومن كان معها من الحضور أنه شفي في الحال. وقال لها الإمبراطور أمام حشد من النساء والرجال إن عليها استخدامه في أي جرح عندها وستشفى حالاً. بعد أن قال لها ذلك، حمل ما يحتاج من تلك الأعشاب وعدة صيد الغزلان ومضى إلى صيده.

لم يكد يغادر الإمبراطور المكان بعد، حتى راحت تتكلم عنه بسوء قائلة:

- انظروا لزييف الإمبراطور فيما يخبرني به! إنه يعلم بأن الجرب الذي ألم بي مختلف تماماً عن جربه ولكنه قال لي استعملي المرهم نفسه الذي استعمله هو، لعلمه بأنه لن ينفعي. وفي الوقت نفسه ينصحني بالأستخدام المرهم الآخر القادر حقيقة على شفاء قروحي. وأنا واثقة بأن هذا سيزعجه، لذلك سأدهن نفسي بذلك المرهم وعندما يرجع سيجدني متعافية جداً. وبما أنه سيزعجه أشد الإزعاج، فسأقوم بعمله.

ترجاها الرجال والسيدات الحضور ألا تفعل ذلك، وراحوا يتوسلون إليها رحمة- بها وقد بدأوا سيكون بشدة ألا تفعل ما تريد عمله، لأنهم متأكدون من أنها لو قامت بذلك ستسقط ميتة لا محال.

على الرغم من كل ذلك لم تشأ أن تترك الأمر. فتناولت العشب ودهنت به قروحها. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ جسدها بالتشنج، فدمت ولكن لم يعد هناك وقت للندم أو عمل أي شيء. وهكذا ماتت بسبب نزقها وطبعها السيئ.

أما ما جرى للسيد ألبار فانيث فهو العكس من هذا، ولكي تعرف كيف ذلك، فها أنا أحكيه لك كما حدث.

كان السيد ألبار فانيث رجلاً طيباً شريفاً وقد عمرّ بنفسه بلدة إيسكار وعاش فيها. أما الكوندي دون بيدرو آنسوريث فقد عمرّ بلدة كويار وعاش فيها.³³ والكوندي دون بيدرو آنسوريث له ثلاث بنات. وذات يوم قام السيد ألبار فانيث بزيارة مفاجئة، أفرحت الكوندي كثيراً. وبعد أن تناولوا الطعام سأله الكوندي عن سبب مجيئه غير المتوقع. فأجابه الدون ألبار فانيث بأنه قد جاء لخطبة واحدة من بناته، وأنه يرغب في رؤية الثلاث والحديث معهن كل واحدة على حدة، ليختار من بينهن من يريد لها زوجة له. أما الكوندي وقد رأى ما منّ به الرب عليه من خير، قال إنه يسعده أن يوافق على ما جاء من أجله الدون ألبار فانيث.

انفرد دون ألبار فانيث بالابنة الكبرى وقال لها إذا ما وافقت، فإنه يرغب الاقتران بها، لكنه قبل هذا يود أن يخبرها عن بعض أحواله: الأول منها أنه لم يعد شاباً وأنه قد أصيب بجروح بالغة في المعارك التي شارك فيها، كما أنه إذا شرب القليل من الخمر يفقده صوابه ويغضب كثيراً ويفقد

السيطرة على زمام نفسه ويتترف بعنف، وهو على هذه الحال لا يعرف ما يقوم به من أفعال، وكان قد جرح العديد من الناس في حالته تلك، التي يندم عليها ما أن يصحو إلى حاله. كما أنه لا يتحكم في نفسه عندما ينام، فما أن ينطرح على الفراش حتى يقوم بأعمال لا تنفع معها إن كانت الأشياء طفيفة أو نظيفة.³⁴ وقال لها أشياء أخرى عديدة، بحيث إن أي امرأة حتى لو كانت قليلة الفطنة، ما وافقت على الزواج به.

بعد أن قال لها الكوندي كل ذلك، أجابت البنت بأن زواجها منه لا يعتمد عليها، وإنما ما يقوله الأم والأب. وبهذا تركت دون ألبار فانيث ومضت إلى أبيها.

عندما سألتها الأبوان عن قرارها، وبما أنها لم تكن واعية بشكل كافٍ، فقد قالت لأبيها وأمها، إنها بعد أن سمعت ما ذكره دون ألبار فانيث، فتفضل الموت على أن تتزوج به.

ولم يشأ الكوندي أن يجيب دون ألبار فانيث بذلك، بل قال له إن ابنته غير راغبة في الزواج الآن.

وبعدها تكلم دون ألبار فانيث مع الابنة الوسطى، وحدث له ما جرى مع الابنة الكبرى نفسها.

وبعدها تكلم مع البنت الصغرى، وقال لها كل ما ذكره لشقيقتيها. فأجابته بأنها ممتنة للرب على رغبته في الزواج بها. ووعده فيما يتعلق بضعفه وتضرره من الخمر بأنه لو اضطر يوماً بسبب ذلك الاعتزال عن الناس فستقوم بالتغطية عليه أفضل من أي أحد في العالم. أما قوله إنه لم يعد شاباً فإنها لن تتخلى بسبب ذلك عن شرف وسعادة الزواج دون ألبار فانيث. أما عن غضبه وتهجمه على الناس، لأنها تطلب منه ألا يقلق من ذلك، فهي لن تمنحه من الأسباب ما يجعله يقدم على ذلك، وإذا ما فعله، فإنها ستصبر على الحال جيداً.

كل الأشياء التي كان يقولها لها دون ألبار فانيث، عرفت الإجابة عنها، مما جعل دون ألبار فانيث يسر سروراً بالغاً وشكر الرب بعثوره على تلك المرأة الذكية. وأخبر الكوندي أنسوريث أي بنت يرغب الزواج بها.

فرح الكوندي كثيراً. وأقيم حفل الزواج حالياً، ومضت الزوجة مع زوجها، التي سوف تسمى هذه المرأة من حينها بالسيدة دونيا باسكونيانا.

بعد أن حمل دون ألبار فانيث الزوجة إلى البيت، تصرفت كسيدة بيت حسيبة وطيبة، وشعر ألبار فانيث بنفسه محظوظاً بزواجه بها وأمر أن تُطاع كل أوامرها وتُلبى كل طلباتها. وقد أمر بهذا لسببين: الأول لأن الرب قد مَنَّ عليها بالصلاح ولأنها كانت تحب زوجها حباً جماً وتحترم رأيه إلى درجة أنها اعتقدت أن كل ما يقوله أو يفعله صائب، وكانت تمتدح وتستحسن رأي زوجها وأفعاله حتى أنها لم تكن تعارضه في حياتها أبداً. ولا تظن أنها قد فعلت ذلك مجاملة أو مداينة، بل لأنها كانت متيقنة فعلاً أن السيد دون ألبار فانيث لا يمكنه أن يخطئ ولا يمكن أن تكون قراراته أفضل مما كانت عليه. والأول لأنه على ما يبدو الأكبر أهمية، فالسبب الآخر هو راحة عقلها واستقامة طبعها مما جعلها تصيب في كل ما تفعل، وهو ما حمل دون ألبار فانيث على حبها وتقييم كل ما تقوم به وأمر الجميع بإطاعتها في كل شيء تفعله، وكان هو يستشيرها في أموره فتكون النتيجة المزيد من الشرف والكسب. ولم تنصحها هي أبداً بما لا يليق به، بل بكل ما عليه دون ألبار فانيث من شرف وفخر.

وحدث يوماً أن كان دون ألبار فانيث في بيته، ونزل عنده ابن شقيقه ضيفاً وقد كان يعيش في بلاط الملك. ففرح دون ألبار فانيث بمقدمه. وبعد أن قضى بضعة أيام مع دون ألبار فانيث، قال له ابن الأخ إنه معجب كثيراً بخصاله، لكنه وجد فيه عيباً واحداً. فسأله دون ألبار فانيث عن أي عيب يتكلم. فأجابه ابن الأخ إن عيبه الوحيد هو ما منحه لزوجته من سلطة التدخل والتأثير في كل شؤونه. فوعده دون ألبار فانيث بأن يجيبه عن ذلك بعد مرور بضعة أيام.

وقبل أن يعود دون ألبار فانيث لرؤية دونيا باسكونيانا، امتطى جواده ومضى مع ابن أخيه إلى مكان آخر. وهناك أمضى مع ابن الشقيق أياماً عديدة. وبعدها بعث في طلب دونيا باسكونيانا، بحيث يلتقيان بها على الطريق، ولم يتح الوقت لهما للحديث على انفراد.

وتقدم دون ألبار فانيث مع ابن أخيه، وتخلفت عنهما دونيا باسكونيانا. وبعد مسافة التقى دون ألبار فانيث وابن أخيه بقطيع من الأبقار. فتحدث دون ألبار فانيث قائلاً:

- انظر يا ابن أخي ما أجمل الأفراس في أراضينا؟

عندما سمع ابن الأخ كلامه، اندهش وظن قوله مزحة فسأله لماذا يقول عنها أفراس وهي ليست سوى أبقار.

فاستغرب دون ألبار فانيث من قول ابن أخيه وظن أنه قد فقد رشده، لأنه يراها جيداً وهي أفراس لا محالة.

ذعر ابن الأخ بعد أن رأى أن دون ألبار فانيث يصُتر على رأيه، وظن أنه قد فقد عقله.

واستمر دون ألبار فانيث في جدله، حتى اقتربت منهما دونيا باسكونيانا. وعندما لمحها دون ألبار فانيث في طريقها لهما، قال لابن شقيقه:

- ها هي دونيا باسكونيانا يا ابن الأخ، وستفض الخلاف الذي بيننا.

راق الأمر لابن الأخ وقال لدونيا باسكونيانا عندما اقتربت منهما:

- سيدتي، لقد اختلفنا أنا ودون ألبار فانيث، فهو يصُتر على أن هذه الأبقار أفراس، وأنا أرى أنها أبقار. وقد طال بنا الجدل حولها، وهو يظن بي الجنون وأنا أعتقد أنه فقد عقله. فهل يمكنك يا سيدتي أن تحكمي بيننا؟

عندما رات دونيا باسكونيانا أن ابن الأخ يقول إن دون ألبار فانيث يقول إنها أفراس، على الرغم من أنها ترى أنها أبقار، قالت في نفسها إنه من المستحيل أن يخطئ دون ألبار فانيث، وإذا قال إنها أفراس وليست أبقاراً، فهي دون شك أفراس.

فقالت لابن الأخ بينما هما هناك:

- بحق الرب يا قريبي، أنت لا تعرف كم يؤسفني ما تقول. ولا أصدق أن الرب وقد منحك الفهم، وأنت تعيش في بلاط الملك وتتمتع بالإقامة بينهم، فيؤسفني أن تكون بهذا الضعف في الفهم وفي النظر حتى أنك تخطط بين الأفراس والأبقار.

وبدأت تبرهن له بأنه بالنظر للونها وتقاطيعها وأشياء أخرى عدة لا يمكن أن تكون إلا أفراساً، وأن ما يقوله دون ألبار فانيث هو الحقيقة وهو صاحب رأي وفهم ولا يمكن أن يخطئ.

وأصرت على الأمر حتى بدأ القريب وبقية الحضور يرتابون في سلامة أبصارهم، وأن دون ألبار فانيث يقول الحق وأن ما يرونه أبقاراً ليست سوى أفراس.

ثم إن دون ألبار فانيث وابن أخيه راحا يمشيان حتى تقابلا بقطيع من الأفراس. وهنا قال دون ألبار فانيث لابن الأخ:

- انظر يا ابن الأخ العزيز، هذه هي الأبقار لا تلك التي ادعيت من قبل!

وعندما سمعه ابن الأخ يقول ذلك، قال لعمه:

- بحق الرب يا دون ألبار فانيث، إذا كنت تقول الحق، فلا بد أن الشيطان قد جاء بي إلى هذه الأرض. فإذا كان حقيقة أنها أبقار وليست أفراساً، فأني قد فقدت عقلي دون شك.

أصرّ دون ألبار فانيث على قوله إنها أبقار واستمر على ذلك حتى وصلت دونيا باسكونيانا. وهناك شرحا لها الأمر حول ما يقوله دون ألبار فانيث وابن الأخ. وهي وقد رأت أن ابن الأخ على حق، لكنها كانت عاجزة عن الاعتقاد أن دون ألبار فانيث يمكن أن يخطئ أو يكذب في هذا الأمر، بل لا بد أنه يقول الصواب. فراحت تبحث عن الأسباب التي تبرهن فيها على قول دون ألبار فانيث، وقد ذكرت الكثير من الحجج المؤيدة، حتى ظن القريب ومن يرافقهم أنهم قد أخطأوا في الإدراك وفي البصر، وأن ما قاله دون ألبار فانيث هو الحق. وهكذا مضى الأمر.

ومضى دون ألبار فانيث وابن أخيه إلى الأمام، حتى وصلا إلى نهر على جانبيه طواحين كثيرة. وبينما تركوا الخيول تشرب من مياه النهر، بدأ دون ألبار فانيث يقول إن النهر ذاك يجري باتجاه منبعه، وإن المياه تصل حتى الطواحين من الناحية الأخرى.

ارتاب ابن الأخ بأن دون ألبار فانيث قد فقد عقله، وبعد أن أخطأ ما بين الأفراس والأبقار، ها هو يصر على أن النهر يأتي من الاتجاه المعاكس. فتجادلا أكثر حتى وصلت دونيا باسكونيانا.

وحين أخبراها بما يظن كل من دون ألبار فانيث وابن أخيه، وعلى الرغم من أنها رأت بما يقوله ابن الأخ القول الصائب، لم تثق كثيراً برأيها الخاص وفضلت استصواب ما قاله دون ألبار فانيث. فراحت تدافع عن رأي زوجها حتى أن ابن الأخ وكل السامعين ظنوا أنها على حق فعلاً.

وأصبح المثل منذ ذلك اليوم شائعاً وهو: «إذا قال الزوج إن النهر يجري نحو منبعه، فليس على الزوجة الصالحة إلا أن تعتقد بذلك وتصادق عليه».

ولما رأى ابن الأخ أن دونيا باسكونيانا تبرهن دائماً أن ما يقوله دون ألبار فانيث هو الصواب بعينه وأنه هو المخطئ بخلطه بين الأشياء، تحسّر على نفسه وخشي أن يكون قد فقد عقله حقاً.

وبعد أن سارا مسافة كافية وهم على تلك الحالة، وما أن رأى دون ألبار فانيث الحزن والغم قد تلبس ابن أخيه، قال له:

- يا ابن أخي، لقد أجبته الآن عما سألتني عنه في اليوم الآخر وهو ما يشير له الناس بأن عيني هو خضوعي لزوجتي دونيا باسكونيانا. تأكد أنني أردت بكل ما قمت به اليوم هو أن تعرف عنها الشيء القليل، ولكي ترى أنني أفعل جيداً حين أستشيرها وأتبع رأيها الصائب. أعرف تماماً أن الأبقار الأولى التي لقيناها وقلتُ لك إنها أفراس، كانت أبقاراً كما قلت أنت، وأنا متأكد أن دونيا باسكونيانا عندما سمعت قولك في الأمر رأت أنك على صواب فيما تقول، ولكنها تعتقد أنني لا يمكن أن أخطئ إطلاقاً، لهذا قالت إنك وهي على خطأ بعدم رؤية الحقيقة. لذلك دافعت عن رأيي بكل تلك الأدلة حتى اعتقدت أنت وكل من سمعها أنني على حق في أقوالي. وحدث الشيء نفسه مع الأفراس ومع النهر. والحق أقوله لك إنني ومنذ اليوم الأول لزواجي بها، لم أرها تستمتع إلا بما يسرني، ولا تقول ما يسوئي أو يزعجني مهما فعلت. وهي على اقتناع تام بأن ما أقوم به وأفعله هو الأفضل دائماً. كما أنها تؤدي واجباتها على أحسن ما يكون واعتادت أن تفعل ما أكلفها به بكل تفانٍ مبدية كل الاحترام، وتحاول دائماً أن أظهر أنني سيد الموقف أمام الجميع، وأن إرادتي مطاعة في كل الأوقات. كما أؤكد لك أن دونيا باسكونيانا لا ترغب في السمعة والجزاء لنفسها بل تسعى لأن تكون لي، وتفعل دائماً ما يوافقني ويعجبني. ولو أن شخصاً على غير ملتي من وراء البحار قد فعل من أجلي كل هذا، لانبغى لي أن أوده وأجلّه، فكيف بها وهي علاوة على أنها زوجتي، فهي ذات حسب ونسب، بحيث أعد نفسي محظوظاً بزواجي منها. وها أنا يا ابن أخي قد أجبته عن انتقادي في ذلك اليوم.

عندما سمع ابن الأَخ ما قاله دون أَلبار فانيث من حجج، فهم أن دونيا باسكونيانا ذات ذكاء وعزيمة ماضية، وأن دون أَلبار فانيث محق بحبه لها كل هذا الحب وثقته بها وأن يفعل من أجلها كل ما يفعل وأكثر.

وهذا هو الفرق ما بين زوجة الإمبراطور وامرأة دون أَلبار فانيث.

انت سيدي الكوندي لوكانور، إذا كان شقيقاك متعارضين إلى هذا الحد، فأحدهما يفعل ما ترغب فيه زوجته ويفعل الآخر العكس، فذلك عائد حتماً إلى أن زوجتيهما مختلفتان اختلاف الإمبراطورة ودونيا باسكونيانا. فإذا كانتا على هذه الشاكلة، لا ينبغي لك أن تتعجب ولا أن تلوم أخويك. لكن إذا لم تكن إحداها سالحة والأخرى سيئة الطوية كالاثنين اللتين كلمتك عنهما، فلاخويك الذنب في ذلك. حتى لو كان الشقيق الذي يود زوجته كثيراً يحسن كثيراً بحبه لها، فإن هذا الحب والمودة لا ينبغي لها أن تخرج عن حدها. لأنه من العيب أن يود الرجل زوجته كثيراً إلى حد ترك مصالحة خشية افتراقه عنها. وعلى هذا، ينبغي على الزوج ألا يبخل بالمودة والثقة بها. كذلك لا ينبغي له أن يبذل الجهد لإغصابها وإزعاجها في تلك الأمور التي لا تهمه كثيراً، خاصة إذا جاء سخطها من ذنب يقترفه الزوج، فإنه حينئذ يضطر لفعل كل ما يسيء لماله وسمعته من أجل إرضائها. أما من كان حظه سيئاً وارتبط بزوجة مثل الإمبراطورة، وهو لم يعرف أو لم يستطع منذ البداية، أن يعالج ذلك، فلن يبقى له سوى تحمل مصيبته إلى أن يشاء الرب. ليكن من الواضح لك أنه من أجل الحصول على الأول وتقادي الثاني، يجدر بالرجل أن يبين منذ اليوم الأول لزوجته بأنه هو السيد هنا، وأن يقرر لها كيفية العيش معه.

لهذا أظن سيدي الكوندي أنني بهذه الأشياء التي ذكرتها لك، يمكنك أن تنصح أخويك كيف عليهما أن يتصرفا مع زوجتيهما.

استحسن الكوندي كثيراً كل ما قاله باترونيو، وعرف أنه محق فيه.

ورأى دون خوان أنهما مثالان جيدان فأمر بتدوينهما، وكتب فيهما هذه الأشعار:

على الرجل ومنذ اليوم الأول لنواجه

أن يحدد ما يرغب به وما يريد عمله بحياته.

مثال 28

كيف قتل دون لورنتو سواريث غاينانو أحد الرهبان

- أشهر إسلامه في غرناطة -

تحدث الكوندي لوكانور مع باترونيو مستشاره قائلاً:

- باترونيو جاءني رجل يطلب حمايتي، وعلى الرغم من معرفتي بأنه رجل طيب، أخبرني بعض الناس بأنه اقترف بعض الآثام. ونظراً لثقتي برأيك، أرجو منك أن تتصحني بما ينبغي عمله معه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تفعل ما أراه موافقاً لك، أود منك أن تعرف ما جرى للسيد دون لورنتو سواريث غاييناتو.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- عاش دون لورنتو سواريث غاييناتو رداً من الزمن مع ملك غرناطة. وبعدها عاد إلى خدمة الملك فرناندو، وسأله هذا ذات يوم إن كان يطمع بمغفرة الرب وخلص روحه حين يقدم أجله بما قام به من خدمة للمسلمين.

فقال له دون لورنتو سواريث إنه لا يطمع أبداً في مغفرة الرب سوى في شيء واحد وهو قتله لأحد الرهبان الميسكانتانو.³⁵ فاستغرب الملك الأمر كثيراً وسأله عن السبب.

فقال له إنه في ذلك الوقت كان في خدمة ملك غرناطة، وكان هذا الملك يثق فيه كثيراً حتى أنه كان يتخذ حارساً خاصاً. وبينما كان يتجول ذات مرة مع الملك، سمع صراخ وصياح بعض الرجال، فقلق على سلامة الملك وكان أن همز حصانه ليقترب من مكان الصراخ. وهناك قابل مرتداً. وكان ذلك راهباً قد هجر المسيحية وأشهر إسلامه. وكان قد وعد المسلمين بأن يريهم، لو شاءوا، الرب الذي يعبد المسيحيون معتقدين أنه الرب الحق. وما أن طلبوا منه ذلك، حتى عمل الراهب المرتد على إقامة الهيكل وأمر بملابس القُداس، فأقامه وأعطى القربان للمسلمين، حينها راحوا يجررونه في الطين هازئين.

عندما رأى السيد لورنتو ذلك تذكر أنه مازال مسيحياً على الرغم من وجوده بين المسلمين، وهو يؤمن بيقين أن القربان هو جسد المسيح حقاً وأن المسيح قد صُلب ليخلص الخاطئين، وسيكون

هو من يضحى بحياته انتقاماً وتخليصاً له من الشائنة التي يتهمونه بها زيفاً. وبذلك الألم والغضب، توجه إلى الخائن المرتد وبسبب فعلته الشائنة قطع رأسه.

بعد ذلك نزل عن جواده وركع ليقدم جسد المسيح الذي كان المسلمون يسحلونه في الطين. وبينما كان خاشعاً على ركبتيه، كان القربان البعيد عنه، قد قفز من الطين واستقر على أذبال ثياب دون لورنثو سواريث.

عندما رأى المسلمون ذلك المشهد، غضبوا واستلوا أسلحتهم من سيوف وعصي وأحجار، وأقبلوا نحو دون لورنثو سواريث ليقتلوه. فاستل سيفه الذي قطع به رأس الراهب وراح يدافع عن نفسه.

عندما سمع الملك كل تلك الجلبة ورأى أنهم يريدون قتل دون لورنثو سواريث، منعهم من عمل أي شيء وسألهم عن السبب. فحكى له المسلمون كل شيء وهم مهتاجون.

اغتاظ الملك هو أيضاً وسأل دون لورنثو سواريث عن فعلته هذه. فأجابه بأنه يعلم أنه ليس على دينه، ولكن الملك مع ذلك قد آمنه على حياته ووثق فيه لإخلاصه ويعلم أنه لن يتراجع عن القيام بواجبه خشية الموت. فإذا كان يثق بإخلاصه كل الثقة مع أنه غير مسلم، فلا يستغرب فعلته لحماية جسد المسيح وهو ملك الملوك ورب الأرباب، فإذا رأى جواز قتله بسبب ما فعل فإن ذلك يسعده.

عندما سمع الملك كل هذا، فرح كثيراً بما فعله دون لورنثو سواريث إخلاصاً لدينه وقدره حق التقدير وزاد من مودته كثيراً منذ ذلك الحين.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا كنت تعلم الصلاح والإخلاص في ذلك الرجل الذي طلب حمايتك، فلا يجب عليك أن ترفض مطلبه حتى لو بلغك بارتكابه جناية دون حق، ذلك لأن الناس قد يعتقدون أنه فعل ذلك دون وجه حق وهم لم يطلعوا على حقيقة الأمور. تماماً مثلما جرى مع الملك باعتقاده للوهلة الأولى أن دون لورنثو قد أساء بقتله الراهب، حتى عرف حقيقة ما جرى ووجد أنه عمل من أفضل الأعمال في الدنيا. ولكن لو كنت متأكداً أنه قد ارتكب فعلاً شائناً ودون وجه حق، فعليك بمنعه من رفقتك.

استحسن الكوندي ما قاله باترونيو جداً، وعمل به وسارت أموره بشكل أفضل.
وأدرك دون خوان أنه مثال طيب، فأمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب فيه هذه الأبيات
الشعرية التي تقول:

*أشياء عديدة تبدو بلا منطق
فمن يدري، لعلها تكون مفيدة.*

مثال 29

ما جرى لثعلبة تمددت في الشارع وتظاهرت بالموت

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، يعيش أحد أقربائي في أراضٍ ليس له القدرة فيها على رد المظالم التي يتعرض لها، فأصحاب النفوذ في تلك الأرض يترقبون أن يفعل أي شيء ليتخذوا منه ذريعة للتهجم عليه. ويقول قريبي ذلك إنه صار من المجحف حقاً تحمل ما يفعلونه ضده وإنه يفضل المجازفة بكل ما لديه على أن يعيش تلك المعاناة اليومية. ولأنني لا أريد له أن يقع في الخطأ، فأرجو منك أن تجد الوسيلة التي يمكن أن أنصحه فيها لتمضية وقته بأفضل ما يكون في تلك الأرض.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تستطيع أن تنصحه بما يناسبه، أود أن تعرف مني ما حدث ذات مرة لثعلبة تظاهرت بالموت.

فسأله الكوندي عما جرى لها.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- دخلت ثعلبة في إحدى الليالي إلى حظيرة الدجاج، وانشغلت بمعاركها مع الدجاجات، وعندما فكرت في الانسحاب، كان النهار قد طلع ورأت الناس يمشون في

الشوارع. عندما رأت أنه من الصعوبة أن تختبئ، خرجت خلسة إلى الشارع وتمددت هناك متظاهرة بالموت. عندما رآها الناس، ظنوا أنها ميتة، ولم يهتموا بأمرها.

بعد مضي بعض الوقت، مرّ إلى جوارها رجل وقال إن غرة جبين الثعلبة إذا ما وضعت على جبهة الأطفال طردت عنهم الحسد. فقص بالمقص شعر غرة الثعلبة.

بعدها مرّ رجل آخر وعمل الشيء نفسه مع زغب المتن وقال آخر عن زغب الجنب وقال آخرون الشيء نفسه حتى قصصوها تماماً. ولم تتحرك الثعلبة لأنها اعتقدت أن كل ما فقدته لن يضرها بشيء.

وبعد مضي بعض الوقت، جاء رجل آخر وقال إن ظفر إبهام الثعلبة يفيد بمداواة ورم الداحوس³⁶ فقلعه ولم تتحرك الثعلبة.

بعد فترة، جاء آخر وقال إن القلب مفيد للتخفيف من آلام القلب، وأخرج سكينه ليقتلعه. فرأت الثعلبة أنه يريد استخراج القلب وهو ليس بالشيء الذي يمكن استرجاعه، وأن الحياة عندها ستكون ضائعة، لذلك فكرت في أنه من المفيد المجازفة بشيء بدلاً من ضياع كل شيء. ففرت بكل سرعتها لتنجو بنفسها.

وأنت سيدي الكوندي، انصح قريبك ما دام قدره أن يعيش في أرض لا يستطيع أن يدافع فيها عن نفسه من الاعتداءات، وليس بإمكانه أن يثأر منها، فليتحمل بصبر كل ذلك، وليحاول إفهام الآخرين أنه لا يكثرث لهذه الأمور، مادام قادراً على التعاضي عنها ومادامت أضرارها بسيطة. فالإنسان يمكنه أن يتجاوز ما لا يهينه بشيء ويواصل العيش. لكن لو شعر بأي إهانة أو وقع عليه ضرر بعلم الناس ومعرفتهم، فلا بد أن يثأر لنفسه. لهذا من الأفضل أن يتكتم على الأمر كلما استطاع ذلك. لكن إذا تحوّل الأمر إلى إهانة أو ضرر بالغ، فعليه أن يجازف بكل ما قوته ولا يغض الطرف عنه، فمن الخير للمرء أن يفقد كل ما لديه ويقضي نحبه دفاعاً عن حقوقه وعزته، على أن يتحمل الظلم والإهانة.

استحسن الكوندي النصيحة جداً.

وأمر دون خوان بتدوينها في هذا الكتاب، وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

اصبر على الأمور قدر ما يتطلب
وتجنب الأمور الأخرى قدر المستطاع.

مثال 30

37 ما جرى لملك إشبيلية ابن عبّاد مع زوجته الرُميكية

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، حدث لي مع رجل ما يلي: مرات عديدة يرجوني أن أساعده وأن أعطيه من بعض ما عندي. وعلى الرغم من أنه يشكرني كلما فعلت ذلك، إلا أنه قد عاد للطلب ولم أعطه مثل الأول، أشعر بأنه قد نسي كل ما فعلت من أجله من قبل. ولرجاحة ما لديك من إدراك، أرجو منك أن تنصحني عن وسيلة أتعامل فيها مع هذا الرجل.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- يبدو لي أنه يحصل معك ما جرى لملك إشبيلية ابن عبّاد مع زوجته الرُميكية.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الملك ابن عبّاد متزوجاً بالرُميكية وكان يحبها حباً لا مثيل له في كل الدنيا. وكانت هي من أفضل النساء وماتزال أقوالها تتردد حتى اليوم بين المسلمين، لكن كان بها خصلة معيبة: كانت متقلبة الأهواء ونزقة. وحدث أن سقطت الثلوج في شهر فبراير (شباط) وهي في قرطبة، وما أن رأت الرُميكية الثلج حتى أجهشت بالبكاء. فسألها الملك عن سبب بكائها. قالت له إنه لا يأخذها إلى الأماكن التي يسقط فيها الثلج. وبما أن قرطبة أرض دافئة ولا يسقط فيها الثلج إلا في ما ندر، فقد أمر الملك إرضاء لها، بغرس كل سفوح الجبال بأشجار اللوز، حتى إذا أزهرت في شهر فبراير (شباط)، بدت الجبال وكأنها مكسوة بالثلوج، فتنطفئ رغبته في رؤية الثلوج.

ومرة أخرى، والرُميكية تجلس في مقصورة تطل على النهر، أن رأت إحدى النساء حافية وهي تملحُ الطين بقدميها لتصنع منه الطُوب. وعندما رأت الرُميكية ذلك المشهد، أجهشت بالبكاء. وعندما سألتها الملك عن سبب بكائها، أجابته بأنها لا تستطيع أن تكون على سجيتها، حتى في شيء مثل ذلك التي تقوم به تلك المرأة. حينها، أمر الملك، إرضاء لها، بملء حوض البركة الكبيرة الموجود في قرطبة، بدلاً من الماء والطين، أن تُملاً بالسُكر والقرفة والخزامي والقرنفل والأعشاب العطرية والعنبر وكل ما استطاعوا أن يعثروا عليه من طيب، وبدلاً من إضافة القش، أمرهم بملئه بأعواد قصب السُكر. وبعد أن ملأوا البركة بكل تلك الأشياء، ولك أن تتصور نوعية الطين الذي كان عليه، قال الملك للرُميكية أن تخلع نعليها وأن تقوم بسحق الطين وأن تصنع منه طُوباً قدر ما تريد.

وفي يوم آخر، اشتهدت شيئاً وأجهشت بالبكاء. وعندما سألتها الملك عن سبب بكائها، أجابته كيف لها ألا تبكي وهو لا يفعل أي شيء يُدخل السرور على قلبها. ما أن رأى الملك هذا وهو الذي عمل كل شيء لإبهاجها وإرضاء رغباتها وأنه لا يستطيع عمل أكثر من ذلك، قال لها بالعربية: «ولا نهار الطين»،³⁸ وكان يريد به القول إنها حتى لو نسيت الأشياء الأخرى، فلا يمكنها نسيان الطين الذي أمر بصنعه لها ليرضيها.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا كنت قد فعلت الكثير من أجل ذلك الرجل، وكان هو ينسى أفضالك عليه ولا يشكرك عليها إذا لم تلبِّ له مطلباً جديداً، فاحذر أن تقوم بما يمكنه أن يضر بك، كما أنصحك بالأفضل الآخرين عليك إذا لم يقوموا بفعل ما تريده منهم.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

من ينسى أفضالك عليه

فلا تضحي من أجله بما لديك.

مثال 31

عن الحكم الذي أصدره أحد الكاردينالات
في قضية بين كهنة باريس والرهبان الفرنسيين³⁹

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، ننوي أنا وصديق لي على عمل شيء يوافقنا ويشرفنا. وأرغب في أن أقوم بالعمل الآن وحدي، لكنني لا أجرؤ على ذلك حتى يصل صديقي. ولعلمي بما منحك الرب من إدراك وفهم، أرجو أن تنصني في هذا الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لتفعل ما يوافقك، أود أن تعرف مني ما حدث لرجال الكاتدرائية مع الرهبان الفرنسيين في باريس.

فسأله الكوندي ما جرى من ذلك الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- قال كهنة الكاتدرائية بما أنهم رأس الكنيسة، فلهم الحق في دق ناقوس الأوقات⁴⁰ دون الآخرين. ورهبان الفرنسيين ردوا عليهم بأنهم يقومون مبكرين للدرس والتراتيل الصباحية وللصلاة حتى لا يفقدوا أوقات الدرس، وأضافوا على ذلك أنهم معفيون، وليس عليهم أن ينتظروا أحداً.

وحول هذا الأمر دام النزاع طويلاً وكلف أموالاً طائلة للدفع للمحامين عن دعوى كل طرف منهما.

وبعد وقت، أمر البابا أحد الكاردينالات بالحكم في هذا الشأن، وطلب منه أن يبحث عن حل بطريقة أو أخرى.

أمر الكاردينال بإحضار ملف الدعوى، وكان ضخماً ويثير حجه الفزع. عندما رأى الكاردينال كل تلك الأوراق، حدد لهم يوماً ليأتوا لسماع الحكم.

عندما أصبح الجميع أمامه، قام بحرق كل أوراق القضية وقال لهم:

- أصحابي، لقد دامت هذه القضية وقتاً طويلاً وأنفقتم فيها الأموال الطائلة، لذلك لن أطيل عليكم أكثر، وحكمي هو: من استيقظ منكم أولاً فليدق الناقوس.

وأنت سيدي الكوندي، إذا كان الأمر موافقاً لكما معاً ويمكنك أن تفعله وحدك، فأنصحك بأن تفعله ولا تضيع وقتك، فكثيراً ما تضيع الأمور بالتأجيل، وقد يعجز الواحد أن يقوم بها بعد ذلك.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

*إذا رغبت في عمل ما ينفعك
فلا تؤجله، كي لا يضيع عليك.*

مثال 32

ما جرى لأحد الملوك مع محتالين نسجوا له ثوباً⁴¹

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع باترونيو مستشاره قائلاً:

- باترونيو، جاءني رجل يقترح عليّ أمراً في غاية الأهمية وأكد لي أنه يوافقني، ولكنه طلب مني ألا أخبر أحداً عنه مهما كانت ثقتي فيه. وألح كثيراً على ضرورة كتمان الأمر وقال لي إنني لو أفشيتَه لأحد، فسأعرض كل ممتلكاتي وربما حياتي إلى الخطر. ولأنني لا أعرف أحداً مثلك يستطيع أن ينصحني فيما إذا كان الأمر صائباً أم خادعاً، فأرجو منك أن تخبرني برأيك في هذا.

- سيدي الكوندي لوكانور - قال باترونيو - لكي تعرف حسب رأيي ما يوافقك، أود أن تعرف ما جرى لملك مع ثلاثة من المحتالين.

فسأله الكوندي عما جرى.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- قصد ثلاثة من المحتالين أحد الملوك وأخبروه بأنهم حرفيون في صنع الثياب، خاصة أنهم يستطيعون صناعة أثواب عندما يلبسها الأب لا يراها سوى من هو ابن له من صلبه، ولا يمكن أن يراه من هو ليس كذلك.

راق هذا للملك كثيراً، إذ رأى أنه بهذه الطريقة سيعرف من هم أبناء آبائهم فعلاً ومن هم ليسوا كذلك، وبهذه الطريقة ستزيد ثروته كثيراً، إذ إن المسلمين لا يرثون إلا إذا كانوا أبناء حقيقيين لأبائهم، وهكذا أمر بمنحهم قصرأ ليقوموا بصنع تلك الثياب.

وقالوا له ليتأكد من أنهم لن يخدعوه، فطلبوا أن يغلقوا عليهم القصر حتى ينتهوا من صنع الثوب. وهذا ما راق للملك كثيراً، وكان أن أمدهم بالكثير من الذهب والفضة والحريير والكثير من الأموال ودخلوا ذلك القصر وحبسوا أنفسهم فيه.

أعدوا آلاتهم وتظاهروا بأنهم يمضون الوقت كله في حياكة الثوب. وبانقضاء أيام عدة، مضى واحد منهم إلى الملك وأخبره بأنهم بدأوا بنسج الثوب وأنه جميل وليس له نظير في الدنيا. وحكى له عن الرسوم التي يشغلونها وطلب منه كي يتأكدوا من أنها تعجبه، أن يزورهم وحده دون رفقة أحد ليراهما، فأعجب ذلك الملك كثيراً.

وأراد الملك أن يجرب الثوب شخصاً آخر قبله، فبعث بخادم له ليرى الثوب، ولم يخبره بخاصيته حتى يخبره بحقيقة ما رأى. عندما تكلم الخادم مع المحتالين وعرف سر الثوب، لم يجرؤ على الاعتراف للملك بأنه لم يره. وعندما عاد إلى الملك، أخبره بأنه قد رأى الثوب. وبعده بعث الملك بخادم آخر وقال له الشيء نفسه. وبعد أن بعث بالجميع وقد أكدوا له أنهم رأوه، مضى الملك بنفسه ليراه.

عندما دخل القصر ورأى الحرفيين منشغلين بالنسيج وكانوا يتحدثون: «هذه الشغلة يُقال لها كذا، وهذا الرسم كذا، وهذه الهيئة كذا، وهذه الألوان كذا»، وقد اتفقوا فيما بينهم على قول الكلام نفسه، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا ينسجون أي شيء، وعندما رأى الملك أنهم كانوا ينسجون ويتحدثون عن الثوب، وهو ولا يرى أي شيء مما يتحدث عنه الآخرون، شعر وكأن الموت يدهمه، فقد شك بأنه

ليس من صلب أبيه لهذا لم يستطع رؤية الثوب، وخشي أنه لو اعترف بذلك سوف يفقد ملكه. لهذا راح يعدد مزايا الثوب ويعاين جيداً ما كان يصفه الحرفيون.

وعندما رجع إلى قصره واختلى بناسه، راح يحدثهم عن روعة الثوب وجودته ووصف لهم الأشكال والرسوم التي تزين الثوب، لكن مع ذلك كان الشك يأكل قلبه.

بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام، بعث بوزيره ليرى ذلك الثوب، بعد أن حدثه الملك عن روائع الأشكال الغريبة التي لمحها على ذلك الثوب. فمضى الوزير إلى هناك.

عندما دخل ورأى أن الحرفيين كانوا ينسجون ويتحدثون عن الرسوم والأشكال التي على الثوب، وسمع من الملك ما رآه في الثوب، وهو الوحيد الذي لا يرى أي شيء، فقد فكر أنه ليس بابن أبيه، ولهذا لا يرى أي شيء، ولو اعترف بذلك فسيفقد شرفه. لهذا بدأ يمتدح الثوب مثل الملك وأكثر.

عندما عاد الوزير إلى الملك وأخبره بأنه قد رأى الثوب وأنه شيء نفيس لا شيء يشبهه في العالم أجمع، تيقن الملك من مصيبتة، ذلك لأن الوزير قد رآه وهو لا يراه. لهذا لم يعد لديه شك في أنه ليس ابناً لأبيه الملك، وراح يعدد مزايا الثوب ويؤكد روعة وجودة الثوب والحرفيين الذين يقومون بصنع مثل هذا الشيء.

في يوم آخر، بعث الملك بأحد خاصته وحدث له الشيء نفسه الذي جرى مع الملك والآخرين. ما الذي يمكنني أن أقوله لك بعد؟⁴². بهذه الطريقة وبسبب الخوف، انخدع الملك وكل أهل تلك الأرض. ولم يجرؤ أحدهم على الاعتراف بعدم رؤية الثوب.

واستمر الأمر على تلك الحال حتى وصل موعد أحد الأعياد الكبرى. فقال الجميع للملك إنه عليه ارتداء ذلك الثوب يوم العيد. فجاء الحرفيون بالثوب ملفوفاً بالشراشف، وقدموه للملك بعدما سألوه كيف يريدون أن يقصوا ذلك الثوب. فأخبرهم الملك أي ثوب يريد، فتظاهروا بالقص وأخذوا المقاييس التي يجب أن تكون للثوب وبعد ذلك راحوا ليخيطوه.

عندما وصل يوم العيد الأكبر عادوا إلى الملك بالثوب مفصلاً ومخيطاً، وفعلوا وكأنهم يلبسونه الثوب ويحددون ثناياه. وهكذا اعتقد الملك أنه قد لبسه ولم يجرؤ على القول إنه لا يراه.

وبعد أن سمع أنه قد لبس الثوب الجيد، امتطى جواده وراح يخب في المدينة، وقد وافقه ذلك دون شك لأنه كان فصل الصيف.

جميع الناس الذين كانوا يمعنون النظر إليه يعلمون أن من لا يرى الثوب فهو ليس من صلب أبيه، لذلك احترسوا من الاعتراف بذلك حتى لا ينزل بهم العار معتقدين أن غيرهم يراه. وهكذا كتم الجميع السر ظناً منهم أنه سرهم الخاص. إلى أن اقترب سائس جواد الملك وهو رجل أسود، ولم يكن يخشى على شرفه بشيء، وقال له:

- سيدي، أنا لا يهمني أن تعتقد أنني ابن أبي أو ابن رجل آخر؛ لهذا أقول لك إما أنني أعمى وإما أنك عريان.

فما كان من الملك إلا أن شتمه واتهمه بأنه ليس ابناً لأبيه لهذا لا يرى ثيابه التي عليه.

وبعد أن قال الرجل الأسود ذلك، تجرأ آخر وقال الشيء نفسه حتى وجد الجميع بمن فيهم الملك وقد فقدوا خوفهم من قول الحقيقة وأدركوا الحيلة التي انطلت عليهم. وعندما ذهبوا للبحث عن المحتالين، لم يجدوهم، فقد فروا بكل ما نهبوه من الملك بخداعهم الذي أخبرتكم به.

أما أنت سيدي الكوندي لوكانور، فتيقن أن ذلك الرجل الذي يطلب منك أن تتكتم على الأمر حتى على أقرب تابعيك، إنما يضمّر خداعك، وتأكد أن من تجمعك بك معرفة بسيطة لن يريك الخير أكثر ممن عاش معك طويلاً وخصصته بالعطايا ولم يعد له بد إلا أن يتمنى لك الخير ويخدمك بإخلاص.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

من ينصحك بكتم الأمور عن أصحابك

فتيقن إنه يريد المكر بك بثمرتي تين.

مثال 33

ما جرى لصقر الإنفانتي دون مانويل مع النسر ومالك الحزين

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، لقد خضتُ حروباً جمة ضد رجال كثيرين. وبعد كل حرب، كان ينصحنى بعضهم بأن أبدأ حرباً أخرى ضد آخرين، وبعضهم ينصحنى بالراحة والدعة، وبعض ينصحنى أن أشن حرباً ومعركة جديدة ضد المسلمين. وبما أنني أعرف أنه لا أحد مثلك يستطيع أن ينصحنى خيراً، لهذا أرجو منك أن تشير عليّ بما ينبغي عمله.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تكون مصيباً فيما عليك عمله، فمن الأفضل أن تعرف مني ما جرى لأفضل أنواع الصقور المختصة بصيد مالك الحزين،⁴³ خاصة ما جرى لصقر⁴⁴ الإنفانتي دون مانويل.

فسأله الكوندي عما جرى.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان الإنفانتي دون مانويل يصطاد في منطقة غير بعيدة عن إسكالونا، فأطلق صقره خلف طائر مالك الحزين، فطار الصقر خلف مالك الحزين، لكن أحد النسور هاجمه. وما أن رأى الصقر أن النسر يهاجمه حتى خاف وترك مالك الحزين ولاذ بالفرار. وبعد فترة رأى النسر أنه لن يلحق بالصقر فتركه ومضى. وعندما رأى الصقر ذلك، عاود الطيران خلف مالك الحزين على أمل أن يمسك به ويقتله. وكاد الصقر أن يظفر به لولا أن عاد النسر للظهور من جديد، فاضطر إلى الهروب مثل المرة السابقة. وعندما ولى النسر، عاود الصقر ملاحظته لطائر مالك الحزين. وجرى الأمر نفسه لثلاث أو أربع مرات، فكلما انسحب النسر، عاود الصقر مهاجمة مالك الحزين، وكلما عاد الصقر لمطاردة مالك الحزين، حضر النسر وحاول القضاء عليه.

عندما أدرك الصقر أن النسر لن يدعه يقتل مالك الحزين، تركه وهاجم النسر وجرحه وأرغمه على الهرب. وبعد ذلك عاد إلى مالك الحزين، وبينما هما يطيران عالياً في السماء، عاد النسر من جديد وهجم عليه. رأى الصقر أن ما فعله حتى الآن لم يساعده في شيء، فهاجم النسر بقوة وحمل عليه حتى كسر أحد جناحيه. - وعندما رآه يسقط بجناح مكسور، عاد إلى مالك الحزين وتمكن منه سريعاً. فعل الصقر ذلك لأنه كان مقتنعاً بأنه لا ينبغي له التخلي عن صيده بعد أن يتخلص من النسر الذي ضايقه.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، بما أنك تعرف أن شرفك وأفضل شيء للروح والجسد هو خدمة الرب، كما أن مكانتك تجعل أفضل الأشياء هي خدمة الرب في محاربة المسلمين دفاعاً عن الدين الكاثوليكي الحقيقي المقدس. وأنا أنصحك مرة بعد أخرى، بأن تحارب المسلمين كلما أمنت هجوم الآخرين. وبذلك تكون قد فعلت الخير الكثير؛ فأولاً خدمة للرب، وثانياً لتأدية واجبك كفارس ومحارب، بدلاً من العيش في الدعة وأكل الخبر بلا طائل، وهو شيء لا نراه يليق بالفرسان. والسادة الكبار عندما لا يكون لهم ما يشغلهم حقيقة، فهم لا يقدرهم الناس حق قدرهم ولا يفعلون من أجلهم ما هو واجب عليهم، بل يتفرغون لأمر لو تجنبوها لكان خيراً لهم. والحق أنك لن تجد عملاً أفضل وأكثر نفعاً للروح والجسد من مقارعة المسلمين. وتذكر ما جاء في المثال الثالث من هذا الكتاب، أعني وثبة ملك إنكلترا ريتشارد ومقدار ما ربح منها. ففكر بقلبك أن عليك أن تموت، وأن الرب سيعاقبك على ما اقترفت في حياتك، والرب عادل وحق، بحيث إنك لن تستطيع الهروب من عقابه بما اقترفت يداك. ولكن لترى أنك وسط كل هذا قد وجدت الوسيلة التي تشفع لك عن كل ذنوبك، فإذا مت في حربك ضد المسلمين وأنت معترف، فطوبى لك لأنك ستموت شهيداً، وحتى لو لم تمت بالسلاح، فسينجيك عملك ونيتك الصالحة.

استحسن الكوندي هذا المثال وقرر العمل به، داعياً الرب أن يساعده بحكمه.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا أنعم الرب عليك بالأمان

فدافع عنه كي تفوز بالحياة الأبدية.

مثال 34

ما جرى لأعمى كان يقود أعمى آخر

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، قريب لي وهو بمثابة صديق أثق فيه ومتأكد من المودة التي يبديها لي، أشار عليّ أن أذهب إلى مكان أخشاه تماماً. وهو يخبرني ألا أخشى شيئاً لأنه سيضحي بحياته قبل أن يلحق بي أي ضرر. والآن أرجوك أن تنصني في هذا الأمر.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي أنصك في هذا، أتمنى منك أن تعرف مني ما جرى لأعمى مع أعمى آخر.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- كان يعيش رجل في المدينة، وفقد قدرة البصر في العينين وأصبح أعمى. وبحالة العمى والفقر التي يعيشها، جاءه أعمى آخر كان يعيش في تلك المدينة واقترح عليه أن يذهبا معاً إلى مدينة أخرى قريبة من مدينتهم تلك، ويطلبان الصدقة لوجه الله وعليهما أن يحافظا على نفسيهما ويحصلان على الطعام معاً.

وقال له ذلك الأعمى إنه يعرف الطريق جيداً إلى تلك المدينة، وهو طريق مملوء بالحفر والمطبات والمسالك الخطيرة، لذلك هو خائف من تلك الرحلة.

فطمأنه الأعمى الآخر بأنه لن يحدث له شيء فسيكون رفقة وسيحرص على سلامته. وبقدر ما أكد له وما أظهره له من مزايا السفر، رضخ الأعمى الآخر وصدقته ومضى معه.

عندما وصلا إلى المسالك الخطرة الصعبة، سقط الأعمى الذي كان يقود الأعمى الآخر ومات، ولقي المصير نفسه الأعمى الآخر الذي كان يخشى الطريق.

وأنت سيدي الكوندي، إذا كنت خائفاً لسبب من الأسباب وتعلم أن الخطر حقيقي، فلا تحشر نفسك في الخطر مطمئناً لقول قريبك وصديقك بأنه سيضحي بنفسه قبل أن ينالك الضرر، فما أقل ما سيفيدك به لو مات هو أولاً وتأذيت أنت لتموت بعده.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذاها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

لا تلق بنفسك في المخاطر أبداً
حتى لو منحك الصديق كل الأمان.

مثال 35

ما جرى لفتى

تزوج من امرأة عبيدة وسيئة الطباع⁴⁵

تكلم الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو فقال له:

- باترونيو، قال لي أحد أتباعي إنهم عرضوا عليه الزواج من امرأة ثرية جداً، على الرغم من أنها من مرتبة أعلى منه، فهو يرى في هذا الزواج خيراً له، إلا أن هناك مانعاً وحيداً: إنهم قالوا له إن تلك المرأة كانت أكثر نساء الدنيا عناداً ونزقاً، وأنا أطلب منك الآن النصح حتى أقول له إن كان يتزوج من تلك المرأة، التي يعرف طباعها، أم أقول له ألا يفعل.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لو كان الأمر كما وقع مع ابن رجل طيب من المسلمين، فانصح به بأن يتزوج منها، أما إذا لم يكن الأمر كذلك، فلا تنصحه بأن يفعل.

رجاه الكوندي أن يحكي له ما كان من أمره.

قال له باترونيو إنه كان يعيش في إحدى المدن رجل شريف وله ولد، كان الفتى من أفضل فتيان الدنيا، لكنه لم يكن ثرياً بالقدر الذي يساعده على أن يحقق أحلاماً كبيرة كما كان يود، وهذا كان يزعجه كثيراً، لأنه كان يمتلك العزيمة، لكن تعوزه الوسائل.

في تلك المدينة نفسها كان يعيش مسلم آخر من مرتبة أعلى وأكثر ثراء من والد ذلك الفتى، وكانت له ابنة وحيدة، لكنها كانت على العكس تماماً من صفات ذلك الفتى، بقدر ما كان للفتى من صفات حميدة كانت للفتاة صفات سيئة، لهذا السبب فإنه لم يجرؤ أي رجل على الزواج من تلك الشيطانة. وقف ذلك الفتى الطيب جداً أمام أبيه وقال له إنه يعرف أنه ليس بالثراء الكافي ليعطيه ما يحتاجه ليعيش في سعة، وحتى لا يعيش في شظف ولا يضطر إلى الهجرة من بلاده، فإنه يرى من الأفضل له أن يبحث له أبوه عن زوجة طيبة تمكنه من تحسين أحواله. قال له الأب إنه سوف يسعد كثيراً أن يقبل بزوجة طيبة.

حينئذ قال له الفتى إنه لو وافق، يمكنه أن يحاول مع ذلك الرجل الفاضل ليزوجه من ابنته تلك. عندما سمع الأب ذلك، تعجب كثيراً، وقال له إنه مادام يفكر في هذه، فليعرف أنه لم يرغب أحد في الزواج منها، مهما كان فقره وبؤسه، فقال له الابن إنه على استعداد للزواج منها لو تطوع الأب وقام بواجب الخطوبة، من فرط إلهام الابن، على الرغم من دهشة الأب، إلا أنه قبل الأمر.

وتوجه الأب بعد ذلك إلى الرجل الطيب، الذي كان على علاقة ود به، وقص عليه ما وقع من ابنه، ورجاه أن يقبل جراً ابنة على طلب يد ابنته، وأن يتيح له الفرصة. عندما سمع الرجل الطيب كلام صديقه، قال له:

- بحق الله، يا صديقي، لو أنني قبلت هذا لكنت بنس الصديق لك، لأن لك ابناً من أفضل الفتيان، ولو أنا قبلت أن يمس بسوء أكون غير أمين معك، لأنني واثق أنه لو تزوج من ابنتي فإنه سيموت، أو أنه سوف يفضل الموت عن الاستمرار في الحياة معها. أرجو ألا تأخذ كلامي هذا على أنه رفض لطبلك، لأنك لو أردت فإنني أوافق على أن يأخذ ابنتي من البيت.

قال له ذلك الصديق أنه يكون ممتناً كثيراً لو أنه وافق على ما يقول، ورجاه أن يوافق على تلك الزيجة مادام ابنه يرغب فيها.

تم الزفاف، وحملوا العروس إلى بيت زوجها. عند المسلمين عادة إعداد العشاء للعروسين، ووضعها على المائدة، وتركه في البيت حتى اليوم التالي، وهذا هو ما فعلوه مع هذين العروسين، لكن أبوي العريس والعروس وأمهاتهما وأقاربهما كانوا في كرب كبير، فكروا أنهم سوف يعثرون على العريس ميتاً أو في سوء عظيم.

عندما بقي العروسان في البيت منفردين، جلسا إلى المائدة، وقبل أن تنطق العروس حرفاً، نظر العريس حول المائدة فشهد كلباً، فأمره بغضب:

- أيها الكلب هات لنا ماء لنغسل أيدينا.

لكن الكلب لم يتحرك، فازداد غضبه، وقال له بعصبية أشد أن يحضر لهما ماءً ليغسلا أيديهما، لم يتحرك الكلب لتنفيذ الأمر، عندما وجده لا يفعل ما يأمره به، ترك المائدة مهتاجاً، واستل سيفه، وتوجه إلى الكلب، حين رآه الكلب متجهاً نحوه انطلق هارباً، وتبعه العريس، وطفر كلاهما على الملابس والمائدة والنار، ظل العريس يطارد الكلب حتى لحق به وقطع رأسه وسيقانه، ومزقه إرباً، ولطخ كل البيت والمائدة والملابس بدمه.

ثم عاد إلى المائدة، نظر حوله، فرأى قطاً فأمره أن يحضر ماء ليغسلا أيديهما، ولأن القط لم يفعل ما أمره به قال له:

- كيف، أيها الخائن المزيف، ألم تر ما فعلته بالكلب لأنه لم ينفذ ما طلبت منه؟ أنا أؤكد لك إن لم تأنتي فوراً بما طلبت لفعلت بك ما فعلت بالكلب.

ولأن القط لم يفعل، وقف وأمسكه من سيقانه وقذف به باتجاه الحائط، ومزقه أكثر من مائة قطعة، مبدياً غضباً أكثر مما فعل مع الكلب.

ثم عاد إلى المائدة حانقاً مغتاظاً، على وجهه إشارات الغضب، نظر في جميع الاتجاهات، ثم إلى العروس، التي ما أن رآته يفعل ذلك حتى اعتقدت أنه مجنون، فلم تنطق بكلمة واحدة.

عندما نظر العريس من حوله رأى فرساً كان في البيت، فقال له بحنق شديد أن يأتيه بماء ليغسلا أيديهما، لكن الفرس لم يفعل، عندما رأى أنه لا يتحرك قال له: -

- كيف، أيها الفرس، هل تعتقد لأنني لا أملك غيرك قد أتسامح معك لو لم تفعل ما أمرتك؟ سأقتلك شر قتلة كما فعلت مع من سبقوك، ولن أرحم كائناً من كان لو لم يفعل ما أمره به.

ظل الفرس ساكناً، عندما رأى أنه لا يتحرك ليقوم بما أمره به، اقترب منه وقطع رأسه، وبكل ما يملك من حنق مزقه إرباً.

عندما شاهدت المرأة قتله للفرس ولم يكن هناك كائن آخر، وأنه قال إنه سوف يفعل ذلك مع كائن من كان لو لم ينفذ ما يأمره به، فكرت أن الأمر لم يعد يحتمل الهزل، ومن فرط رعبها لم تكن تعرف إن كانت ميتة أم أنها مازالت على قيد الحياة.

أما هو فإنه عاد إلى المائدة حانقاً وملطخاً بالدماء، مقسماً بأغظ الايمان، أنه لو كان لديه ألف فرس وألف رجل وألف امرأة في بيته لسوف يقتلهم جميعاً لو توانوا عن تنفيذ أوامره، جلس ثم نظر من حوله في جميع الجهات، فيما كان السيف على ركبتيه يقطر دماً. ثم نظر بعد ذلك من حوله مرة أخرى فلم يجد كائناً يتحرك، فوجه بصره بقوة نحو عروسه وقال لها بحنق شديد، والسيف مشهور في يده:

- قومي وأحضري ماء لأغسل يدي.

لم تكن تنتظر المرأة شيئاً آخر غير تمزيقها إرباً، وقفت بسرعة كبيرة وأحضرت ماءً ليغسل يديه، فقال لها:

- كم أحمد الله أنك نفذت ما أمرتك به، لأنك لو لم تفعلني بعد ما أصابني من جنون بسبب هؤلاء، لفعلت معك ما فعلته بهم.

ثم أمرها أن تقدم له الطعام، ففعلت، كلما قال شيئاً، كان يقوله لها بكل غضب وبلهجة شديدة، حتى أنها اعتقدت أن رأسها سوف يتدحرج على الأرض في أي لحظة، وهكذا أمضت الليلة، ولم تنطق بكلمة واحدة، ونفذت كل ما أمرها به.

بعد أن خلدا إلى النوم قليلاً، قال لها:

- إنه بسبب ما وقع في تلك الليلة فإنه لن يستطيع أن ينام جيداً، فعليها أن تحترس ألا يوقظه أحد في الصباح، وأن تعد له إفطاراً جيداً.

حين طلع النهار، وقف الآباء والأمهات والأقارب بالباب، لم تكن هناك أدنى حركة، اعتقدوا أن العريس ميت أو جريح، وحين شاهدوا العروس من فتحة الباب ولم يشاهدوا العريس، تأكد لهم اعتقادهم، وحين رأتهم العروس أمام الباب، همت للقائهم بخفة وخوف شديدين، وقالت لهم على الفور:

- أيها المجانين، ماذا تفعلون، كيف وصلتكم إلى هنا؟ لا تصدروا ضجيجاً، اصمتوا، وإلا، فإنكم وأنا سنكون في عداد الأموات.

حين سمعوا هذا، ملأت الفرحة قلوبهم جميعاً، وحين علموا كيف أمضيا الليلة، قدروا الفتى كثيراً، لأنه قام بما أملاه عليه واجبه، وسيطر على بيته جيداً، ومنذ ذلك اليوم تحولت المرأة إلى امرأة مطيعة، وعاشا حياة سعيدة.

بعد أيام قليلة حاول والد الفتاة أن يفعل ما فعله زوج ابنته، فقتل مثله فرساً، لكن زوجته قالت له:

- أخطأت يا سيد فلان، لقد جننت متأخراً، لأنه لن يفيدك في شيء أن تقتل مائة فرس، كان عليك أن تفعل هذا مبكراً، فنحن الآن يعرف كل منا الآخر.

أنت سيدي الكوندي، لو أن تابعك هذا يريد أن يتزوج تلك المرأة، فإذا كان على شجاعة مثل ذلك الفتى، فانصح به بأن يتزوج، لأنه سوف يعرف كيف ينظم حياته، لكن إن لم يكن مثل ذلك الفتى، فقل له ألا يحاول، وإن كنت أطلب منك أن تتعامل مع من تتعامل معهم بالطريقة التي تبين لهم كيف تريدهم أن يتعاملوا معك.

استحسن الكوندي النصيحة المفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إن لم تبين منذ البداية من تكون
لا تستطيع فعل ذلك أبداً حتى لو أردت.

مثال 36

ما جرى لتاجر
وجد زوجته وابنه نائمين في فراش واحد

تحدث الكوندي لوكانور يوماً مع مستشاره باترونيو، وهو غاضب من كلام مشين قيل له ويفكر بالتأثر لنفسه ثاراً لا ينساه التاريخ.

عندما رآه باترونيو على تلك الحالة من الهياج، قال له:

- سيدي الكوندي، كم أود أن تعرف ما جرى ذات يوم لتاجر مضى لشراء نصائح.

فسأله الكوندي ما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- في إحدى المدن عاش معلم⁴⁶ عظيم الشأن لم يكن له من مهنة ولا اهتمام آخر غير بيع النصائح. فسمع عنه ذلك التاجر الذي أخبرتك عنه وذهب إليه في أحد الأيام ليستشيريه في أمر ما. قال له المعلم إن لكل نصيحة سعراً، فكم باستطاعته أن يدفع. فأجابه التاجر بأنه يريد نصيحة بمرابطي⁴⁷ واحد. أخذ المعلم قطعة المرابطي وقال له:

- أيها الصديق، إذا دعيت إلى مائدة ولم تعرف عدد الأطباق التي ستقدم لك، فاشبع بطنك من الطبق الأول.

قال له التاجر إنها ليست بنصيحة عظيمة. فرد عليه المعلم ألا ينتظر شيئاً كبيراً مقابل مبلغ زهيد. فطلب التاجر منه نصيحة أخرى بثمن قطعة دويلة واحدة. ونقده إياها.

فقال له المُعلم إذا غضبت وهممت بفعل أمر وأنت تحت سلطة تلك الحالة، فتأنّ بالأمر ولا تقم بشيء قبل أن تعلم الحقيقة كاملة. عند ذلك قال التاجر مع نفسه إنه لو استمر في شراء مثل هذه النصائح فسوف يخسر كل النقود التي معه. فقتنع بما جرى له وحفظه جيداً في أعماق قلبه.

ووافق أن أبحر التاجر إلى أرض بعيدة وترك زوجته حاملاً. فتأخر كثيراً في تجارته في تلك البلاد وحين عاد كان ابنه قد بلغ العشرين عاماً. وكانت أمه تحبه حباً شديداً إذ لم تنجب بعده ابناً آخر وكانت في ظن من أن زوجها قد توفي. وبما أنها كانت تكن الحب الكبير لأبيه، فقد كانت تنادي الابن بصفة الزوج. كانت تأكل وتنام معه كما كانت تفعل وهو مازال صغيراً في عمر سنة واحدة أو سنتين. وكانت تعيش حياة شريفة وإن لم يفارقها الحزن لأنها لا تعرف شيئاً من أخبار زوجها.

أما التاجر وقد تمكن من بيع كل بضاعته، ورجع لبلدته وافر الثراء. حين وصل الميناء تكتم على أمر عودته، وذهب سراً إلى بيته واختبأ ليرى ما يجري فيه. بعد انتصاف النهار وصل ابنه، فقالت له الأم:

- من أين أتيت يا زوجي؟

عندما سمع التاجر زوجته وهي تنادي الفتى بزوجها، امتعض جداً، إذ ظن بها وقد تزوجت به فعلاً أو أنها عشيقة له لصغر سنه. فأراد أن يقتلها في الحال، لكنه تذكر تلك النصيحة التي كلفته قطعة دويلة واحدة، فقرر أن يصبر.

عندما حل المساء جلسا للأكل، وحين رآهما التاجر معاً حول المائدة، انتابته رغبة أقوى في قتلها، لكنه سيطر على نفسه بسبب النصيحة التي اشتراها. لكن عندما حل الليل وقد رآهما ينامان في سرير واحد، لم يصبر أكثر فتقدم إليهما. اقترب غاضباً، لكنه تذكر من جديد تلك النصيحة فلجم نفسه.

قبل أن تطفئ القنديل، قالت الأم لابنها وهي تبكي بحرقة:

- يا زوجي وولدي، لقد وصل إلى أسماعي وصول سفينة من تلك الديار التي سافر إليها أبوك منذ سنوات طويلة. فلم لا تذهب غداً لتتقصى الأخبار، لعل الرب يبسر لنا معرفة شيئاً ما من أخباره.

عندما سمع التاجر ذلك الحديث، تذكر أنه قد ترك زوجته حاملاً، فعرف أن الذي بجوارها هو ابنه. ولا أظنك تستغرب كثيراً لو أخبرتك بأنه قد سرّ كثيراً وشكر الرب لأنه جنبه قتلها بارتكاب جريمة شنيعة كهذه. وعرف أنه قد أحسن استخدام قطعة الدوبلة التي قدمها مقابل نصيحة ألا تقوم بفعل أي شيء وأنت تحت سطوة الغضب.

وأنت سيدي الكوندي، حتى لو ظننت أنك لن تصبر على تحمل الإهانة التي ألحقها بك، فلا بد أن تنتظر حتى تتيقن من الحقيقة. وأنصحك بأن تتمالك نفسك حتى تتعرف إلى حقيقة الأمر، لا سيما أنه لا ضرر ولا فقدان لمصلحة عندما تتأني، وإلا فالندم نتيجة العجلة.

رأى الكوندي أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

لا تتعجل في عمل شيء

قد تندم عليه فيما بعد.

مثال 37

ما قاله الكوندي فرنان من إجابة

⁴⁸ لقومه بعد أن انتصر في معركة هاتيناس

ذات يوم عاد الكوندي من الحرب منهكاً وخائر القوى، وقبل أن يستريح قليلاً وصلته الأخبار بأن حرباً جديدة قد نشبت. نصحه أهله بأن يأخذ قسطاً من الراحة أولاً ثم يقوم بما يراه مناسباً بعد ذلك. وعندما سأل الكوندي باترونيو بما عليه أن يقوم به. قال له باترونيو:

- سيدي لتعرف ما يليق بك فعله، أود أن تعرف ما قاله الكوندي فرنان غونثالث لأتباعه.

سأله الكوندي عما قاله لهم.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- على الرغم من أن الكوندي فرنان غونثالث قد انتصر على الملك المنصور في معركة هاثيناس، إلا أن الكثير من رجاله قد قضى نحبه في المعركة، وهو ومن بقي منهم قد أصيبوا بجراح كثيرة. وقبل أن يتمثل للشفاء، وصل إلى سمعه أن ملك نابارا قد غزا أراضيه، فأمر أتباعه بالاستعداد لمحاربة جيش نابارا. لكنهم ردوا عليه جميعاً بأن الجياد متعبة وهم منهكون، كما أنهم جرحى ومصابون، ولا بد أن يتم تأجيل الحرب بسبب ذلك، كما أنه من الأفضل أن ينتظر حتى يتمثل الجميع للشفاء ويستردون بعض قواهم.

لما رأى الكوندي ما أصاب أتباعه من وهن، شعر بالخزي، فكان أن قال لهم:

- أيه أيها الصحاب، لن نترك الحرب بسبب جراحنا، فالجراح الجديدة ستسببنا جراحنا في المعركة الأخرى.

وحين رأى أتباعه ما عليه من عزم وإصرار للدفاع عن أرضه وشرفه رغم ما ألم به من جراح، فمضوا خلفه. وكان أن انتصر الكوندي في المعركة وازداد شهرة.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا أردت أن تدافع عن أهلك وشرفك، فلا تستسلم بسبب المتاعب أو المخاطر، وتصرف، بحيث إن التعب والخطر المحقق الجديد ينسيك ما جرى في الماضي.

رأى الكوندي أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

تأكد من أن هذا قول الحق،

الشرف والراحة لا يجتمعان في مضجع واحد.

مثال 38

ما جرى لرجل غرق في النهر بسبب أحجار كريمة كان يحملها

قال الكوندي لوكانور لباترونيو ذات يوم إنه لا يرغب في الانسحاب من أراضٍ سيحصل منها على ثروة هائلة، وهذا ما سيمنحه ربهاً كبيراً. لكنه مع ذلك يخشى المجازفة بحياته في بقائه هناك. لذلك رجاه أن ينصحه فيما ينبغي عليه فعله.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لكي تفعل ما أراه مناسباً لك، هو أن تعرف مني ما حدث لرجل حاول عبور النهر وقد حمل حول عنقه شيئاً ثميناً.

فسأله الكوندي عما حصل له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان هناك رجل قد حمل كمية هائلة من الأحجار الثمينة، وهي ثقيلة إلى درجة تجعل من حملها مهمة شاقة. وحصل أن كان عليه عبور نهر عميق، وبما أنه كان يحمل ذلك الحمل الثقيل، فما أن وصل منتصف النهر حتى شعر بنفسه يغطس إلى العمق.

وصادف أن رجلاً آخر كان عند الضفة فصاح به أن يلقي بالحمل الذي على عاتقه وإلا فمصيره الغرق. إلا أن ذلك المجنون لم يدرك أنه إذا لم يلق بالحمل فسيفقد ثروته وحياته معاً، أما إذا ألقى بالحمولة فسيفقد الثروة وينجو بنفسه. لكن لطمعه ولقيمة الأحجار الكريمة التي يحملها معه، لم يشأ تركها فمات في النهر. وبهذا فقد حياته وثروته أيضاً.

- عليه سيدي الكوندي لوكانور، فحتى لو كان من مصلحتك الحصول على الأموال وأسباب الجاه، فأنا أنصحك بالأتمكث طويلاً في المكان الذي تحق فيه الأخطار طلباً للثروة. كما أنصحك كذلك بالأتمكث بحياتك إلا في واجب الدفاع عن الشرف أو لأي أمر واجب عليك. فمن يقلل من قدر نفسه ويخاطر بحياته طمعاً في نيل العلا. كما ينبغي للواحد منا أن يقدر نفسه ولا يتصرف فيها إلا بما يزيده رفعة بين الناس. فالقيمة ليست بما يراه في نفسه، بل بالأعمال التي تجعله عظيماً في عيون البشر. عليك أن تتيقن أن أهل الشأن يقدرّون حياتهم ولا يغامرون بأنفسهم طمعاً بتوافه الأمور.

رأى الكوندي على أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

مَنْ يَطْمَعُ فِيْغَامِرِ بَحْيَاتِهِ
فَلَنْ يَدُومَ لَهُ مِنْهَا شَيْئاً.

مثال 39

ما جرى لرجل مع طائر السنونو والعصفور

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو، فقال:

- باترونيو، لا أجد في بالي طريقة أتخلص فيها من الحرب مع جارين من جيراني. والحل أن الأقرب مني ليس قوياً مثل ذلك الأبعد مني. فأرجو منك أن تشير عليّ بما يجب أن أقوم به.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تفعل ما يليق بك في هذا الشأن، أود أن تعرف مني ما جرى لرجل مع عصفور الدوري وطائر السنونو.

فسأله الكوندي ما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- انزعج رجل سقيم ضعيف الجسد من ضجيج الطيور التي لا تدعه ينام في راحة، فرجا صديقاً له أن يبحث له عن علاج للتخلص من ضجيج العصافير والسنونوات.

فأخبره صديقه ذلك بأنه لا يستطيع تخليصه من الاثنين معاً، ولكنه يعرف طريقه ليخلصه من واحد منهما. فإما العصافير أو السنونوات. فقال الرجل السقيم إن السنونوات على الرغم من أن

ضجيجها يفوق ضجيج العصافير، إلا أنها في رواح ومجىء ولا تبقى في مكان واحد، واستقر أمره على التخلص من العصافير، فعلى الرغم من أن ضجيجها أقل إلا أنها لا تبرح البيت أبداً.

فكما ترى سيدي الكوندي أن ذلك الجار البعيد هو الأقوى، إلا أنني أنصحك أن تجابه الأقرب منك حتى لو كان أقل قوة.

رأى الكوندي على أنها نصيحة مفيدة، ونفذها، فكانت النتيجة طيبة.

ولأن السيد خوان رأى في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

*إذا ما تحتم عليك، بكل الوسائل، أن تحارب
فتجنب الأبعد منك حتى لو كان الأقوى.*

مثال 40

لماذا فقد مندوب الملك⁴⁹ روحه في كاركاسونا؟

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو فقال له:

- باترونيو، أعلم أن الموت لا مناص منه، لكنني أريد أن أقوم بعمل عظيم ينفعني ويمحو عني سيئاتي ويخلد سمعتي بعد مماتي. فأرجو أن تمن عليّ بنصحك عن طريقة أحقق بها ذلك بشكل أفضل.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- إن العمل الصالح صالح مهما كانت الطريقة والنية التي يتم بهما، ولكي تعرف الطريقة والنية الصالحة لما ينبغي عليك فعله من أجل روحك، أتمنى عليك أن تعرف مني ما جرى لمندوب الملك في قرية كاركاسونا.

فسأله الكوندي ما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- في يوم ما مرض أحد مندوبي الملك في كاركاسونا. وحين شعر بقرب أجله، طلب مقابلة رئيس الدير الأكبر ورئيس الرهبان الأدنى منه، وطلب منهما أن يقوما بشيء من أجل روحه، وطلب منهما أن ينجزا ما اتفقوا عليه بعد مماته.

فعل كل واحد ما طلبه منهما. وقد أنفق نائب الملك بسخاء على روحه وتم له كل شيء بسرعة وعلى أفضل حال. لذلك كان الراهبان مسرورين جداً وكان يحدوهما أمل كبير بخلاص روحه.

لكن اتفق بعد أيام قليلة، أن دخلت المدينة امرأة بها مس من الشيطان. وكانت تخبر الناس عن أسرار خفية لأن الشيطان الذي ركبها يتكلم بلسانها وقد كان من العارفين بكل ما حدث وقيل في كاركاسونا.

وعندما تناهى خبرها لمسامع الراهبين القائمين على روح المندوب، أسرعوا إليها ليسألها عما تعرفه عن تلك الروح. وبمجرد أن دخلا بيتها، قالت لهما إنها تعرف سبب مجيئهما، وأنها قد تركت تلك الروح التي جاء للسؤال عنها في الجحيم منذ وقت قصير.

ما أن سمع الراهبان كلامها حتى اتهماها بالكذب، لأن المندوب قد قام بواجب الاعتراف كما ينبغي، وقد تلقى أسرار الكنيسة وهذا يعني أن ادعاءها ليس صحيحاً حسب تعاليم الكنيسة المقدسة.

فكان أن ردت عليهما بأن عقيدة ودين المسيحيين حقيقية بلا شك، وأنه لو فعل ذلك قبل موته كما ينبغي للمسيحي الصالح أن يفعله، لكتب له الخلاص. لكنه لم يقم بما يعمله المسيحي الحقيقي. فعلى الرغم من أنه أمر بالكثير من الإحسان لأجل روحه، فإنه لم يفعل ذلك بالطريقة التي ينبغي عليه فعلها، كما أن نيته لم تكن خالصة بالمرّة. فهو أولاً قد أمر بفعل كل ذلك بعد أن تأكد من أنه يودع الحياة وكانت نيته أن يتم كل ذلك لو مات فعلاً، أما إذا نجا من الموت فلا. أي أنه كان سخياً بعد أن أصبحت ثروته بلا نفع. وثانياً، قد فعل ذلك حتى يذيع صيته وتخلد ذكراه. لذلك وعلى الرغم من فعله الخير إلا أنه قد قام بهذا بطريقة ناقصة، ونسي أن الرب لا يجازي الإحسان ببساطة، لكنه يجازي الإحسان الذي يتم كما ينبغي. والأعمال الصالحة تكون في النية الصالحة، وبما أن نية المندوب غير سليمة، فإنه لم ينل الجزاء الذي كان يتوقعه.

- وأنت سيدي الكوندي لوكانور، تطلب مني النصيحة، وأنا أنصحك بفعل الخير ما دمت حياً. ولكي تجازى عنه بالخير أنصحك أولاً أن تبادر إلى إصلاح ما أفسدت، فلن ينفعك في شيء سرقة الكبش ومن ثم توزيع لحمه في سبيل الرب. فما أقل منفعتك من سرقة تتصدق بها فيما بعد. فلن تكون الصدقة حقيقية ونافعة ينبغي أن تتوافر على شروط خمسة: الأول منها، أن تكون من أملاكك شرعاً؛ والثاني أن تتم والإنسان في توبة صدوق؛ والثالث أن يكون مقدارها لا ينقص مما لدى البشر؛ والرابع أن تمنح الصدقة والإنسان على قيد الحياة؛ والخامس أن تعطى في سبيل الرب بلا فخر ولا تبجح. فإذا تحققت هذه الشروط الخمسة، تصبح كل الصدقات وأعمال الإحسان كاملة، وينال صاحبها الجزاء الحسن. ولكن إن لم تقدر على العمل بهذا لأي سبب من الأسباب، فليس عليك أن تترك الصدقة بدعوى أنها لن تعود عليك بالنفع لعدم استيفائها أحد هذه الشروط، وإلا لكان ما تقوم به من الحماسة والشك برحمة الرب. فالإحسان يبقى خيراً مهما كان، وأعمال الخير تدفع المرء إلى الخروج من المعصية والتوبة، وتعود على جسده وشرفه وماله وسمعته بالخير. لهذا فالعمل الصالح ينفع دائماً، ولكن من الأفضل أن تجتمع فيه الشروط الخمسة التي ذكرتها لك.

وما أن رأى الكوندي أن ما ذكره باترونيو هو الحق بعينه، فقد قرر أن يتبع رأيه ودعا الرب كي يساعده على التصرف على هذا النحو.

وما أن رأى دون خوان في هذا مثلاً طيباً، فقد أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا شئت كسب المجد

فاعمل الخير صادقاً في الحياة.

مثال 41

50 ما جرى لملك قرطبة الملقب بـ الحَكَم

تكلم الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، تعلم أنني صياد كبير وقد ابتكرت حياً جديدة في فن القنص لم يسبقني إليها أحد. فقد أدخلت مثلاً التحسينات على قيود الصقور وغماء. 51 ويحاول البعض من خصومي اليوم أن يهزوا مني بهذا الشأن، فعندما يمتدحون السيد روي دياث أو الكوندي فرنان غونثالث على المعارك التي انتصروا فيها، أو الملك السعيد المبجل فرناندو على فتوحاته، يمتدحونني أنا، بأني قد حققت النصر الأكبر يوم ابتكرت القيد والغماء لطيور القنص. وبما أنه مديح يضرر الإساءة لي، أرجو منك أن تشير عليّ بما ينبغي فعله حتى لا يضايقوني بسبب ابتكارات ناجعة مثل هذه.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي تعرف ما ينبغي فعله، أرجو أن تسمع مني ما جرى لمسلم كان ملكاً على قرطبة.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان في قرطبة ملك يدعى الحَكَم. وعلى الرغم من سيادة السلم والأمان في مملكته أثناء حكمه، إلا أنه لم يجهد نفسه في تخليد ذكراه واكتساب السمعة الطيبة التي ينبغي للملوك الحقيقيين ألا يكتفوا فيها بما ورثوه، بل عليهم أن يسعوا إلى زيادتها بالسبل الشرعية، وأن يبذلوا قصارى جهدهم كي يستحقوا هذا المديح والإطراء، ويخلد اسمهم بعد الموت بفضل ما قاموا به من أعمال عظيمة. لكن الحَكَم كان غافلاً عن كل ما يجري من حوله، وتفرغ لمتع الحياة من راحة ومأكل.

وحدث ذات يوم، وكان منشراحاً، أن عزف أمامه أحد العازفين بألة يحبها المسلمون جداً وهي تلك المسماة بالبوق. 52 فلاحظ الملك أن صوت البوق لم يكن صافياً فأخذه من العازف وزاده ثقباً أسفل الثقوب الأخرى. فتحسن صوت البوق. وكان ابتكاراً رائعاً في حد ذاته إلا أنه من توافه الأمور بين الملوك، لذلك راح الناس يمتدحونه بسخرية، وأصبحوا يرددون «وهذه زيادة الحَكَم» 53 على أي شيء يمتدحونه. وراجت تلك العبارة وانتشرت بين السكان حتى وصلت إلى مسامع الملك، فسأل عن معناها. وعلى الرغم من امتناعهم في البداية عن الإفصاح له عن معناها، إلا أنه أجبرهم حتى أخبروه ما تعني.

ما أن سمع ذلك حتى غضب بشدة، لكنه كتم غيظه ولم يشأ، وهو الملك العادل، معاقبة من يتفوه بمثل هذه العبارة، بل عزم على التفكير في ابتكار آخر يرغم الناس على إطرائه عن جدارة. فكان أن عمد إلى إتمام المنقوصات في جامع قرطبة وأضاف إليه كل ما يخصه حتى أتمه. وصار ذلك الجامع من أجمل وأوسع مساجد المسلمين في إسبانيا، وهو اليوم، بمباركة الرب، قد تحول إلى كنيسة تدعى سانتا ماريا دي قرطبة، وذلك بعد أن استردها الملك المقدس دون فرناندو من أيدي المسلمين.⁵⁴

عندما أكمل الملك منقوصات الجامع وأضاف إليها تلك الزيادة الموفقة، قال في نفسه إن الناس سيمتدحونه اليوم على زياداته في الجامع بعد أن كانوا يمتدحونه على زياداته في البوق. وبالفعل، فقد لقي من الإطراء والمديح الكثير حتى أن تلك العبارة الساخرة تحولت إلى إطراء حقيقي. وما زال المسلمون حتى اليوم عندما يريدون امتداح شيء، يقولون «هذه زيادة الحَكم».

وأنت سيدي الكوندي، إذا كنت غاضباً لأنك تجد سخرية في امتداح ما أضفته إلى القيد والغماء وبقية التحسينات التي أدخلتها على فن القنص، فحاول أن تبتكر أشياء عظيمة، لا يقدر عليها سوى العظماء. حينئذٍ لن يجد الناس بدأً من امتداح ما تعلمه بكل صدق، على النحو نفسه الذي يمتدحون فيه ابتكاراتك اليوم بسخرية.

رأى الكوندي أنها نصيحة جيدة فعمل بها وسارت أموره على خير ما يرام.

وما أن رأى دون خوان في هذا مثلاً طيباً، حتى أمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إذا فعلت شيئاً

ولم يكن بالأمر الهام،

فاعمل ما استطعت

عملاً كبيراً لا يموت.

مثال 42

55 ما جرى لامرأة مدّعية الإيمان

ذات مرة تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو- لقد تحدثت مع البعض وتساءلنا ما أسوأ ما يفعله الشرير ليتسبب بأكبر قدر من الضرر للآخرين. فقال بعضهم إن أسوأ الأعمال هي تلك التي تزرع الفتنة والتمرد، وقال بعضهم هو التخاصم مع كل الناس، وقال بعضهم إنه القتل والسلب، وقال بعضهم هو ذلك الذي يسعى بالنميمة وسوء الحديث. وبما إنني أعلم برأيك السديد، فأرجو أن تقول لي رأيك في هذا الشأن.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لكي تتبين هذا الأمر بوضوح، فأود أن تعرف ما جرى للشيطان مع امرأة تدعي الإيمان.

فسأله الكوندي عن ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- عاش في إحدى القرى فتى طيب جداً، وكانت علاقته بزوجته على خير ما يرام، وكانا متفاهمين ويسود الوئام بينهما. وكان الشيطان غاضباً منهما لكراهيته الخير، لكنه عجز عن إثارة الخلاف بينهما على الرغم من محاولاته الكثيرة.

وبينما كان الشيطان عائداً من تلك القرية ذات يوم، حزيناً لفشله، التقى في طريقه امرأة مؤمنة. وبعد أن تعارفا سألته عن أسباب تعاسته. فقال لها الشيطان إنه قادم من موضع يعيش فيه زوجان، وهو منذ فترة طويلة يحاول أن يفرق بينهما دون نجاح يذكر، وإن رئيسه قد علم بفشله بعد مرور وقت طويل، وقد فقد منزلته عنده، لذلك يمضي في طريقه حزيناً.

قالت له المرأة إنها مندهشة من فشله على الرغم مما تعرفه عنه من علم، وأضافت أنه لو اتبع نصيحتها فسوف يحقق مراده بلا شك.

فقال لها الشيطان إنه على استعداد لفعل ما تريده منه لكي ينجح بإحداث الشقاق بين الزوجين. واتفقا على ما يجب فعله.

وتوجهت المرأة مدعية الإيمان إلى بيت الزوجين. وكانت قد بذلت جهداً يوماً بعد آخر كي تقنع الزوجة بأنها مدينة لها بالخدمة لأنها كانت قد تربت في بيت أمها، إلى أن اقتنعت الزوجة الطيبة وسمحت لها بدخول بيتها وسلمتها أمور البيت. ووثق بها الزوج أيضاً.

بعد وقت طويل وهي معهما في البيت، وقد فازت بثقتهم، قالت للزوجة وقد بدا عليها الحزن الشديد:

- بنيتي، يحز في نفسي أن أسمعك هذا، فقد تناهى إلى أن زوجك يعشق امرأة أخرى. لذا أرجو منك وأنصحك بأن تعامله بحنان أكبر حتى لا يقع في حبال امرأة أخرى غيرك، فتلك أكبر المصائب التي قد تقع لك.

ما أن سمعت الزوجة الطيبة هذا الكلام، حتى خفها الحزن، مع ذلك لم تصدقه كل التصديق. وحين رأت المرأة مدعية الإيمان حزنها، خرجت مسرعة لتعترض طريق عودة الزوج وقالت له إنه من المحزن أن تكون له زوجة طيبة مثل زوجته ويقع في حب امرأة أخرى، وأعلمته بمعرفة زوجته بذلك الأمر فحزنت كثيراً، وقالت له ما دام قد فعل ذلك، على الرغم من حرصها على سروره، فإنها ستبحث بدورها عن رجل آخر يقدرها ويحبها أكثر. وكانت أن ترجته المرأة النمامة ألا يخبر زوجته بما قالت له، فلو عرفت به ستموت في الحال.

عندما سمع الزوج كلامها حزن جداً وإن لم يصدقه تماماً. ثم إن تلك المرأة مدعية الإيمان أسرع إلى البيت قبل وصول الزوج، لتقول للزوجة متظاهرة بالأسى:

- بنيتي لا أعرف ما هذه المصيبة التي حلت بك، زوجك غاضب جداً، وسترين الآن أن ما أقوله صحيح، فسيدخل غاضباً وحزيناً على غير عادته.

وكان أن تركتها منشغلة بهما وذهبت إلى حيث الزوج وأعدت عليه الكلام نفسه الذي قالته للزوجة. وعندما وصل الزوج إلى البيت وجد زوجته مكفهرة الوجه ولم يسرها اللقاء وازداد قلقهما. عندما خرج الزوج، قالت المرأة مدعية الإيمان للزوجة الطيبة إنها لو شاءت لطلبت لها من يعمل سحراً لزوجها ليخلصه من أعراضه تلك. وافقت المرأة الطيبة بكل سرور على اقتراحها لأنها كانت راغبة في عودة الوئام لحياتهما الزوجية.

بعد أيام عدة عادت المرأة وأخبرتها بأنها قد عثرت على رجل حكيم أكد لها أنها لو أحضرت له شعيرات من لحية الزوج، تلك التي تنبت عند الحنجرة، فسيقوم بتحضير سحر يخلص زوجها من غضبه، ويعود للعيش أفضل مما كان قبل اليوم، وكل ما عليها هو أن تحتال عليه لكي ينام الزوج في حضنها وأعطتها سكيناً ليساعدها كي تتمكن من نزع تلك الشعيرات.

كانت المرأة الطيبة حزينة جداً وذلك لحبها لزوجها، ومهمومة للخلاف الذي نشب بينهما، وتتمنى لو تستعيد سعادتها السابقة، لذلك وافقت فوراً ولم تتردد بأخذ السكين الذي جلبته المرأة مدعية الإيمان.

عادت المرأة المدعية سريعاً إلى حيث الزوج وقالت له إنها قد سكتت عن كل شيء قبل ذلك لكنها لن تقبل أبداً أن يتم تدبير حيلة لقتله، لذلك فإنها لا تستطيع التغطية على خطط زوجته. وأخبرته بأنها تنوي قتله للهروب مع عشيقها. كما قالت له حتى يتأكد من كلامها فقد تفاهمت الزوجة مع العشيق بأنها ستذبح الزوج عندما يعود إلى البيت، وستقطع له رقبتة بالسكين ما أن يغفو في حضنها.

عندما سمع الزوج هذا الكلام اندهش كثيراً. وكان قد اغتم كثيراً من أكاذيبها السابقة، لكن قلقه كبر الآن وقرر الحذر من كل شيء حتى يتأكد بنفسه من أقوالها. وكان أن رجع إلى البيت.

ما أن رآته الزوجة حتى رحبت به واستقبلته أحسن من الأيام السابقة وسألته لماذا يجهد نفسه دائماً ولا يستريح قليلاً. ثم طلبت منه أن يستلقي في حجرها كي تفلي له رأسه.

عندما تأكد الزوج مما قالت له تلك المرأة المدعية ولكي يمتحن زوجته، فقد وافق على الاستلقاء في حجرها وتظاهر بالنوم حتى يرى ما ستفعله الزوجة. عندما ظنت الزوجة أنه قد نام فعلاً، أخرجت السكين لتقص بعض شعيرات لحيته كما طلبت منها زائفة الإيمان. ما أن رأى الزوج السكين قريبة من حنجرته وتأكد أنها تريد ذبحه، نزعها من يدها بسرعة وذبحها بها. أثار الصراخ أهل المرأة فهرعوا لنجدتها، ولما وجدوها مذبوحة وما كانوا قد علموا عنها شائنة، هاجموا الزوج وقتلوه.

على الصراخ نفسه، جاء أهل وأقارب الزوج، وعلى الشاكلة نفسها قتلوا قاتليه. وكان أن عظمت الفتنة في تلك البلدة حتى مات بشر كثيرون من سكانها.

وقد حدث كل ذلك بسبب أكاذيب تلك المرأة مدعية الإيمان. لكن بما أن الرب يمهل ولا يهمل ولا يستر السوء ولا يدع أهل الشر بلا عقاب، فقد أرادت مشيئته أن يفتضح أمر مدعية الإيمان، ليحكموا عليها بميئة شنيعة.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، إذا رغبت في معرفة من هو أكثر شراً من البشر في هذه الدنيا ومن يلحق الأذى بالناس، فلتكن على يقين بأنه ذلك الذي يتظاهر بالتقوى والولاء والإخلاص، بينما يضمّر في السر النوايا السيئة ويلفق الأكاذيب القادرة على تفريق الناس والفتنة بينهم. كما أنصحك بأن تحترس كثيراً ممن يببالغ بإظهار التقوى، إذ إن أغلبهم قائم على الخديعة. ولتدرك ذلك تذكر ما جاء في الإنجيل من نصيحة «A frecutibus corum cognoscetis eos» التي تعني «تعرفونهم من أعمالهم». 56 والحقيقة أنه لا أحد في الدنيا بقادر على إخفاء ما في نفسه، وحتى لو نجح في ذلك بعض الوقت لكنه لن يدوم طويلاً.

ورأى الكوندي أن ما قاله باترونيو صائب جداً، فعزم على الأخذ به، ودعا الرب أن يحفظه وصحبه من شر الأعمال.

ووجد دون خوان في هذا مثلاً طيباً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب، وكتب هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

فكر بالأعمال لا بالمظاهر

فيما لو رغبت النأي عن الشرور.

مثال 43

**ما جرى للخير مع الشر
وللعاقل مع المجنون**

تحدث الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو ذات مرة قائلاً:

- باترونيو، لي جاران، أعزُّ أحدهما كثيراً وينبغي لي أن أعزه لما بيننا من أسباب لذلك، لكنه في أحيان كثيرة يقوم بعمل أشياء تضرني ولا أعرف السبب. أما الآخر، فلا صداقة لي معه ولا مودة ولا أسباب لدينا لذلك وهو أيضاً يقوم بأشياء لا تعجبني. وبما أنني أعرف رجاحة عقلك، فأود أن تقول لي ما عليّ أن أفعله معهما.

- سيدي الكوندي لوكانور- أجاب باترونيو- ما تسألني عنه ليس أمراً واحداً فحسب، بل أمران مختلفان بينهما تمام الاختلاف. ولكي تقوم بما يوافق مشيئتك، أتمنى أن تعرف ما جرى للخير مع الشر وما جرى للعاقل مع المجنون.

فرجاه الكوندي أن يحكي له ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- بما أنهما قصتان لا يمكن الجمع بينهما، فسأحكي أولاً ما جرى للخير مع الشر، وبعدها ما جرى للرجل العاقل مع المجنون.

سيدي الكوندي، اتفق الخير والشر على العيش معاً. فقال الشر الذي لا يستقر على حال ولا يكف عن الخوض في كل مسألة شائكة من أجل الخديعة والأذى، قال للخير إن عليهما أن يشتريا قطيعاً من الماشية ليرتزقا منه. أعجبت الفكرة الخير فوافقه واتفقا على تربية الأغنام.

عندما ولدت الشياه قال الشر للخير إنه من الأفضل أن يختار كل واحد منهما حصته.⁵⁷ لم يشأ الخير أن يسبقه بالاختيار وطلب من الشر أن يختار هو أولاً. لم ينتظر الشر الماكر وقد فرح بذلك، أن يلح عليه بالسؤال، واقترح على الخير أن يأخذ الخراف ويأخذ هو الصوف والحليب. فوافق الخير على القسمة.

بعد ذلك اقترح الشر على الخير أن يقوموا بتربية الخنازير، فوافقه على اختياره. وعندما ولدت، قال الشر للخير إنه في المرة السابقة قد أخذ الخراف وأخذ هو الصوف والحليب، ومن العدل الآن أن يأخذ الخير حليب الخنازير وصوفها ويأخذ هو الخنازير. فتم الأمر كما قاله.

ثم اقترح الشر على الخير أن يزرعا خضراوات. فزرعا لفتاً. وعندما نما، قال الشر للخير إنه لا يعرف ما تحت التراب، لذلك اقترح كرمماً منه وتنازلاً أن يحصل الخير على ما هو ظاهر من اللفت، ويكتفي هو بما تحت التربة. فوافق الخير. وبعدها زرعا ملفوف الكرنب. وعندما نما قال

الشر إنه في المرة السابقة أخذ هو ما كان ظاهراً من اللفت، ومن العدل الآن أن يقوم بالعكس من ذلك مع الكرب، فيأخذ الخير ما تحت التربة. ففعل الخير ما قاله له.

بعد وقت ليس بالطويل، قال الشر للخير إن عليهما البحث عن امرأة لتخدمهما. فرأى الخير صواب ما قاله. وعندما عثرا على المرأة، اقترح الشر أن يكون للخير منها لما فوق الخاصرة وأن يكون له النصف المتبقي. وافق الخير على القسمة وكان جزؤه يعمل بما يلزم الاثنين، بينما كان جزء الشر متزوجاً بنصفه ويلزمه أن ينام معه.

عندما حبلت المرأة وولدت ولداً وأرادت أن ترضعه، منعها الخير قائلاً إن اللبن يقع في جهته وهو لا يسمح بذلك. وعندما جاء الشر مسروراً لرؤية زوجته، وجدها تبكي. وما أن سألها عن السبب حتى أخبرته بأن ابنها لا يستطيع الرضاعة. وأمام تعجبه، شرحت له الأم أن الخير لا يسمح لها بذلك لأن الثديين يقعان في جهته. فتوجه الشر ناحية الخير وطلب منه ضاحكاً كأنه يمزح أن يسمح لابنه بالرضاعة. فقال له الخير إن اللبن في جهته ولن يسمح له. تألم الشر وترجاه أن يسمح له بذلك. عندما رأى الخير مقدار تألمه قال له:

- صديقي، لا تظن أنني لم أنتبه للفارق بين تلك الأجزاء التي كنت تعطيني وتلك التي تبقّيها لنفسك. وأنا لم أطلب منك شيئاً من قسمتك إطلاقاً. بل دائماً ما اكتفيت بما عندي دون مساعدة منك. وإذا كان الرب قد ألجأك إليّ، فلا تعجب إذا منعتك عنك، بل تذكر ما فعلته معي وتألم منه مقابل ذلك.

حين سمع الشر تلك الحقيقة الدامغة، وأدرك أن ابنه سيموت لامحالة، زاد ألمه وترجى الخير أن يرحم الوليد لوجه الرب، وأن ينسى شروره، ووعدته بأن يفعل له كل ما يريده منه.

عندما سمع الخير ذلك الكلام، أدرك أن الرب قد فضّله كثيراً بأن وضع نجاته ابن الشر على ما يجود به من خير، تمنى لو ينفع ذلك بصلاحه. لذلك قال له إنه لو أراد أن يسمح للمرأة بإرضاع ابنه، فعليه أن يخرج إلى الشارع حاملاً وليده بين يديه ومعلنناً بصوت مرتفع كي يسمعه الملائكة: «أيها الصحاب، اعلموا أن الخير ينتصر على الشر بواسطة الخير». راق الاقتراح للشر مقتنعاً بأنه قد اشترى حياة وليده بثمن جيد. واعتقد الخير أنه إصلاح لا بأس به. وهكذا عرف الجميع أن الخير غالب دائماً.

أما ما جرى للرجل العاقل مع المجنون، فحدث بشكل مختلف:

فقد كان للرجل الطيب حمّام، وكان المجنون يدخل الحمّام ويقوم بضرب الزبائن بالجرادل والأحجار والعصي وكل ما تطاله يده حتى امتنع الناس عن دخول الحمّام. فخرس الرجل الطيب أرباحه.

فلما رأى ذلك جاء مبكراً ذات يوم ودخل الحمّام قبل أن يصل المجنون. تعرى من ملابسه وتناول جردل ماء ساخن وهراوة كبيرة. وحين وصل المجنون إلى الحمّام ليقوم بضرب المستحمين كالعادة، استقبله الرجل الطيب بحنق كبير وهو عار تماماً، ومن ثم أفرغ جردل الماء الساخن على رأسه وهوى عليه بالهراوة، على رأسه وفي كل شبر من جسده حتى ظن أن المجنون قد فطس، وكان أن ظن المجنون أن الرجل الطيب قد فقد عقله هو الآخر.

فخرج من الحمّام وهو يصرخ صراخاً قوياً، فصادف رجلاً سأله عن سبب صراخه وشكواه، فقال له المجنون:

- صديقي، احذر الدخول إلى الحمّام فهناك مجنون آخر.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، عليك أن تتصرف بمثل هذا مع جاريك. فعامل جارك الذي تجمعك وإياه صداقة قوامها البر والإحسان، حتى لو تسبب لك ذلك في بعض الأضرار، استضفه إذا زارك وساعده على حاجته وافهمه أنك تقوم بذلك للصداقة والمودة التي بينكما وليس امتناناً. أما الثاني الذي لا تجمعك به أي صداقة مثل الجار الأول، فلا تتحمل منه أي شيء، وبيّن له أنك ستجازف بكل شيء لتنتقم من أي ضرر يفكر في أن يلحقه بك. فصديق السوء لا يحافظ على صداقته إلا خوفاً أو رهبة أو لسبب آخر.

رأى الكوندي صواب هذه النصيحة واتبعتها فسارت أموره على خير حال.

كما رأى دون خوان فيهما مثالان جيدان، وأمر بتدوينهما في هذا الكتاب. وكتب فيهما هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

رجل السوء صبره قليل،

ما دام الخير غالب أبداً.

مثال 44

ما جرى للسيد بيدرو نونيث الوفي والسيد روي غوثالث ثيبايوس
وللسيد غوتيري رويث بلاغيو مع الكوندي رودريغو الصريح⁵⁸

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، في إحدى المعارك كدت أفقد فيها كل ما أملك. وعندما كنت بأمس الحاجة، بعض من أولئك الذين ربيتهم وأحسنت إليهم تخلوا عني وألحقوا بي أضراراً بالغة. وجراء ذلك لم أعد أتأمل خيراً وبدأت أفقد الثقة في الناس جميعاً. وبما أن الرب قد أنعم عليك برجاحة العقل، أتمنى عليك أن تتصحني بما يجب عليّ أن أفعله.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- لو كان أتباعك الذين سلكوا مسلكاً سيئاً معك مثل السيد بيدرو نونيث الوفي والسيد غومت ثيبايوس والسيد غوتيري رويث دي بلاغيو أو على الأقل على معرفة بما جرى لهؤلاء، لما أقدموا ما أقدموا عليه.

وسأل الكوندي عما جرى في هذا الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان الكوندي رودريغو الصريح متزوجاً من سيدة هي ابنة السيد خيل دي ثاغرا، وكانت امرأة صالحة، واتهما زوجها الكوندي زوراً وبهتاناً. فشكت حالها للرب ودعته صادقة أن ينزل معجزة من لدنه حتى يتبين من فيهما المخطئ زوجها أم هي.

وما أن انتهت من صلاتها حتى حصلت معجزة الرب وابتلى زوجها الكوندي بالجذام. فافترقت عنه الزوجة. وبعد وقت قصير بعث ملك نابارا رسله إلى السيدة ليطلبها للزواج، فصارت ملكة على نابارا.

ولما لم يجد الكوندي علاجاً لجذامه، قرر أن يحج إلى الأراضي المقدسة، ليموت براحة هناك. وعلى الرغم من أنه كان ثرياً وله العديد من الخدم والتابعين، إلا أنه لم يرافقه في سفره سوى أولئك الفرسان الثلاثة الذين ذكرت لك أسماءهم. ولبثوا هناك زمناً حتى نفدت أموالهم وأصابهم الفقر

ولم يجدوا ما يطعمون به سيدهم الكوندي. وعندما اشتد عليهم العوز قرر اثنان منهم أن يعملوا كل يوم، في حين يبقى الثالث مع الكوندي ليعتني به. وقد كان يكفيهم ما يتقاضونه من أجر لتحصيل قوت يومهم. وكل ليلة كانوا يغسلون الكوندي ويظهرون قروحه الناجمة عن الجذام.

وحدث ذات ليلة بينما كانوا يغسلون للكوندي قدميه، أن شعروا بحاجة للبصاق فبصقوا معاً. فظن الكوندي، وقد رأى ثلاثتهم يفعلون الشيء نفسه، إنما يبصقون تقززاً منه، فبكى حظه العاثر. ولكي يبرهنوا له أنهم لم ينفروا من مرضه، أخذوا بأيديهم تلك المياه الممتلئة بالصديد وقشور القروح وشربوا منها مقداراً كبيراً. وعاشوا مع الكوندي مادام حياً حتى قضى نحبه.

وطالما كانوا يعتقدون أنه من العار العودة إلى قشتالة دون سيدهم ميتاً أو حياً، فقد رفضوا التخلي عن جثمانه. وكان أن نصحهم البعض بحرقه وحمل العظام معهم، لكنهم ردوا عليهم بأنهم لن يسمحوا لأحد بأن يمس سيدهم حياً كان أم ميتاً. ولما رفضوا كل ذلك، قرروا دفنه حتى تفسخ جسده، فأخذوا عظامه وحملوها معهم في صندوق يحملونه بالتناوب على ظهورهم. وعادوا على ذلك النحو يطلبون الصدقة في الطريق وهم يحملون بقايا سيدهم مع شهادة ذكروا فيها كل تفاصيل الأحداث التي جرت لهم في الأراضي المقدسة.

وكان أن وصلوا إلى أراضي تولوز وهم يشعرون بالسعادة على الرغم من الضائقة. وعندما دخلوا إحدى المدن، وجدوا الناس يعدون العدة لحرق امرأة نبيلة اتهمها شقيق زوجها بالخيانة. وقد قيل لهم إنه إذا لم يتقدم أي فارس ليقاوم دفاعاً عن شرفها فلن يكون نصيبها سوى الحرق، وتلك كانت من عاداتهم، ولم تكن السيدة قد وجدت من يدافع عنها حتى تلك اللحظة.

عندما رأى السيد بيدرو نونيث الوفي والفارس النبيل أنهم سيحرقون تلك السيدة لعدم تقدم أي فارس لنجدها، قال لرفيقه إنه لو تيقن من براءتها لدافع عنها بنفسه. وذهب إلى حيث المرأة وسألها عن حقيقة الأمر. فأخبرته بأنها لم ترتكب ذلك الجرم الذي يتهمونها به، وإن اعترفت لهم بأنها قد اشتبهت فعله. وأدرك السيد نونيث أنها كانت على نية بارتكاب الإثم وذلك يعني أنه لا بد أن يصيبه ضرر في المبارزة، ولكن بما أنها لم تتبع النية بالعمل، فقد قرر أن يدافع عنها.

عندما سمع متهموها قراره حاولوا أن يثبوه عن فعلته بدعوى أنه لم يكن فارساً، لكنه أراهم الشهادة المكتوبة التي جاءوا بها، فاضطروا للموافقة عليه كمبارز. فزوده أهل المرأة بفرس وسلاح،

وقبل أن يدخل الميدان قال لهم إنه يدعو الرب أن يشرفه بإنقاذ المرأة، ولكن بما أنها اشتهدت ارتكاب المعصية، فهو واثق من أن ضرراً سيصيبه. وكان أن نصر الرب السيد بيدرو نونيث في قتال خصمه وأنقذ المرأة، لكنه فقد إحدى عينيه في المعركة، فتحققت بذلك توقعاته.

ودفعت السيدة وأهلها الكثير من الأموال للسيد بيدرو نونيث مما سهل عليه ورفاقه- سفرهم وعودتهم محملين بعظام سيدهم الكوندي. وعندما وصل الخبر إلى ملك قشتالة وكيف عاد أولئك الفرسان على أقدامهم رفقة عظام الكوندي، فرح كثيراً وحمد الرب أن في مملكته رجال بهذه المواصفات. وبعث يأمرهم القدوم أمامه مشياً على الأقدام وباللباس نفسه كما فعلوا في مسيرهم من الأراضي المقدسة. ولما حان يوم وصولهم إلى حدود مملكة قشتالة، خرج لاستقبالهم بنفسه ومشى على قدميه خمسة فراسخ بعيداً عن الحدود، وخلع عليهم من العطايا ما كفاهم في حياتهم وأبنائهم من بعدهم.

ورافق الملك وحاشيته والفرسان الثلاثة عظام الكوندي حتى منطقة أوسما ودفنوها هناك. وبعد الدفن مضى كل فارس إلى بيته.

عندما وصل روي غونثالث إلى بيته وجلس مع زوجته إلى المائدة، رفعت الزوجة يديها إلى الأعلى وهي تنادي الرب:

- تباركت إلهي أن أتحت لي أن أشهد مثل هذا اليوم، فأنت تعلم أنه ومنذ خروج السيد روي غونثالث من هنا لم أكل لحمًا ولا شربت النبيذ أبداً.

تأسف السيد روي غونثالث كثيراً وسألها عن سبب ذلك. فأجابته بأنه يعلم جيداً ما قاله لها يوم مغادرته مع الكوندي إنه لن يعود دونه ونصحها أن تحيا بشرف مع وعده بألا تعدم في بيتها الخبز والماء. ولأنه قال لها ذلك، لم تر أي داعٍ للخروج عما أمر به، فلم تأكل طوال غيابه غير الخبز والماء.

كذلك عاد السيد بيدرو نونيث إلى بيته، وما أن بقي وحيداً رفقة زوجته وأقربائها، راحوا يضحكون جميعاً من السعادة. لكن بيدرو نونيث ظن أنهم يضحكون سخريّة منه لفقده إحدى عينيه، فكان أن غطى رأسه بغطاء واضطجع حزيناً في فراشه. ولما رأته زوجته الطيبة على هذه الحال من الحزن، اغتمت وألحت عليه كثيراً حتى أخبرها بأنه حزين لأنه رآهم يضحكون من عوره.

عندما سمعت السيدة الطيبة كلام زوجها، فقأت إحدى عينيها بالإبرة وأخبرت السيد بيدرو نونيث أنها فعلت ذلك حتى لا يتصور، فيما لو ضحكت ذات مرة، بأنها تضحك منه لعوره.

وهكذا جازى الرب أولئك الفرسان على ما فعلوه من أعمال حسنة.

لذلك أنا على يقين من أن الذين تصرفوا معك بسوء لو كانوا مثل أولئك أو علموا ما ناله الفرسان من خير لإخلاصهم وولائهم لسيدهم، لسلكوا مسلكاً آخر. لكن لا ينبغي لك سيدي الكوندي أن تهجر فعل الخير لأن بعضاً منهم يسيء إليك، فهؤلاء يضررون أنفسهم أكثر مما يضررونك. وتذكر أنه إذا أساء بعض الناس، فالكثيرون يحسنون، وخدمة الطيبين نفعك أكثر مما أضرتك أفعال الأشرار. وقد لا يجازيك كل الناس الذين تكرمهم وتحميمهم، لكن قد يرد لك أحدهم الجميل فيكون خيرك قد أتى بثماره.

رأى الكوندي أنها نصيحة صائبة وحقيقية.

كما رأى دون خوان فيه مثلاً جيداً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

لا تدع فعل الخير

حتى لو جازاك بعضهم بالسوء.

مثال 45

**ما جرى لرجل
جعل من نفسه صديقاً وتابِعاً للشيطان**

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، يخبرني أحد الرجال بأن له طرقه لمعرفة ما سوف يحدث في المستقبل، عن طريق أعمال السحر وقراءة الطالع، وقد عرض عليّ خدماته إذا ما رغبت في الانتفاع بها. لكنني

أخشى أن أقع في الخطيئة. ولثقتي بك أرجو منك أن تخبرني رأيك فيما يجب أن أفعله.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- حتى تعرف ما يوافق خيارك، لا بد أن تعرف أولاً ما جرى لأحدهم مع الشيطان.

فسأله الكوندي حول ذلك الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- أصيب رجل ثري بالفقر والعوز حتى لم يجد ما يسد به رمقه. وليس هناك مصيبة في الدنيا أشد من الفقر بعد الغنى، لذلك فقد تغير مزاج ذلك الرجل وغلب عليه الحزن والقنوط لما صارت عليه أموره.

ذات يوم وبينما كان يسير في الجبل وحيداً ومهموماً حزيناً، فإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه مع الشيطان. وكان الشيطان على معرفة جيدة بما جرى للرجل، مع ذلك سأله عن سبب أحزانه. فرد الرجل بأنه لا جدوى من أن يحكي له ما دام لا يستطيع أحد مساعدته. فأجابه الشيطان بأنه لو خضع له وأطاعه سوف يمنحه العلاج اللازم لهومومه، ولكي يبرهن له على قدراته، قال له إنه يعرف ما يفكر فيه الآن وعلى معرفة بأسباب حزنه. وحكى له حكايته وأخبره سبب حزنه. وقال له أيضاً أنه لو أطاع أوامره فهو على استعداد لتخليصه من فقره ويرجعه أغنى من كل سلالته، لأنه هو الشيطان ولن يعجز عن تحقيق ذلك.

خاف الرجل عندما سمعه يقول إنه هو الشيطان، ولكن أجابه، وهو ما عليه من عوز وأسى، أنه لو أعاده إلى ثرائه، سوف يفعل كل ما يطلبه منه.

لاحظ يا سيدي كيف أن الشيطان يختار أفضل الأوقات ليخدعنا: عندما يقع البشر في الضيق الشديد أو الفشل، أو حين يكونون فريسة خوف أو رغبة ملحة، فالشيطان يحصل على كل ما يريد، وهكذا بحث عن وسيلة لخداع صاحبنا عندما رآه مهموماً حزيناً.

عندئذ عقد الاثنان عهداً بينهما، وقبل الرجل أن يكون تابعاً للشيطان. ولما تم بينهما ذلك، أمره الشيطان أن يمارس السرقة منذ تلك اللحظة، فلن يستعصي عليه باب ولا بيت إلا وفتحه، وإذا ما أصبح في خطر وتم زجه في السجن، فما عليه سوى أن يناديه قائلاً: «أنقذني يا سيد مارتين» وسوف يسارع فوراً لنجده. وافترقا على هذا الاتفاق.

ومع حلول الظلام قصد الرجل بيت أحد التجار، ومنً يبببب الشر بكره النور، لكنه ما أن وصل إلى البوابة حتى فتحها له الشيطان، ثم فتح له الخزائن، فتمكن من سرقة أموال طائلة.

في اليوم التالي قام بسرقة كبيرة، وفعل الشيء نفسه في اليوم الذي يليه، وهكذا بلا عدد، حتى اغتنى ونسي أيام الحاجة والفاقة التي مر بها. لكن التعيس لم يقنع بخروجه من الفاقة واستمر في سرقاته. سرق الكثير حتى انتهى به الأمر إلى الحبس. فنادى على السيد مارتين، وكان أن حضر السيد مارتين مسرعاً وخلصه من الحبس. ولما رأى الرجل أن السيد مارتين قد وفى بعهده، عاد للسرقة من جديد، فسطا على أموال هائلة وصار بفضلها من الأثرياء.

في إحدى السرقات سُجن مرة أخرى، فنادى على السيد مارتين ولم يأتِ بالسرعة التي توقعها. إذ تأخر حتى بدأ قضاة الناحية التي وقعت فيها السرقة في تحرياتهم. وعندما حضر السيد مارتين أخيراً، قال له الرجل:

- آه يا سيد مارتين، لقد جزعت جزعاً شديداً! ولكن لماذا تأخرت بالقدوم؟

أجابه السيد مارتين بأنه كان مشغولاً في أمر عاجل لذلك تأخر بالقدوم. وكان أن أخرجه من السجن حالاً. فعاد الرجل للسرقة. وبعد سرقات عدة ألقى القبض عليه من جديد، وحكم عليه القضاة بعد أن انتهوا من تحرياتهم. وبعد صدور الحكم، جاء السيد مارتين وأطلق سراحه.

ولما رأى أن السيد مارتين ينفذه من الحبس في كل مرة، فكان أن استمر في السرقة. واعتقل مرة أخرى، فناداه ولكنه لم يأتِ. فحكموا عليه بالموت. وما أن وصل السيد مارتين حتى تضرع للملك بشأن إطلاق سراحه، وتمكن من إنقاذه مجدداً.

عاد بعدها للسرقة وألقى القبض عليه. نادى على السيد مارتين، لكن هذا لم يحضر فحكموا عليه بالموت شنقاً. وهو أسفل المشنقة، وصل السيد مارتين، فقال له:

- آه يا سيد مارتين، ليس الأمر بمزحة! لو تعرف ما مررت به من رعب.

فقال له السيد مارتين إنه قد جلب معه قاصة فيها خمسمائة قطعة مرابطية، وأمره أن يعطيها للقاضي حتى يخلي سبيله. كان القاضي قد أمر بشنقه ولم يبق سوى إحضار الحبل. وبينما كانوا

يبحثون عن الحبل، جاء الرجل وسلم القاضي القاصة. فظن القاضي أنه قد أعطاه أموالاً كثيرة، فقال للناس المجتمعين هناك:

- يا أصحاب، لا تستغربوا من عدم وجود حبل المشنقة؟ فأنا أظن أن هذا الرجل بريء وأن الرب لا يريد له الموت، لذلك لم يسعفنا بالحبل. وأرى أن ننتظر حتى يوم غد لننظر في قضيته بإمعان، فإن وجدناه مذنباً، فلن نضيع الوقت لإقامة القصاص.

قال القاضي هذا الكلام لينقذ الرجل وقد ظن أن القاصة تحتوي على خمسمائة قطعة مرابطة، لذا تنحى جانباً ونظر فيها ولم يجد أثراً للنقود بل حبلاً. فأمر بشنقه حالاً.

عندما وضع الجلاد أنشودة الحبل في عنق تعيس الحال، وقعت عيناه على السيد مارتين فطلب منه أن ينقذه. لكن السيد مارتين أخبره بأنه يساعد أصدقاءه دائماً إلى أن يوصلهم إلى مثل ما هو عليه الآن. وعلى تلك الحال فقد الرجل حياته وروحه بسبب ثقته بالشيطان واعتماده عليه.

لتكن على يقين تام بأن كل من يصدق الشيطان ويثق به سينتهي به الأمر إلى سوء العاقبة. انظر كيف أن كل أولئك المؤمنين بالطالع وقارئ الحظ والعرّافين وراسمي الدوائر والسحرة ومن على شاكلتهم، سينتهون إلى نهاية سيئة. وإذا لم تصدقني، فلتتذكر ما آلت إليه نهاية ألبار نونيث أو غارثيلاسو⁵⁹ وهما اللذان صدقا الطالع والسحر تصديقاً أعمى.

وأنت سيدي الكوندي، إذا أردت أن تعيش هانئاً وتنقذ روحك، فضع كل ثقتك في الرب، ورجاءك فيه، وحاول ما بوسعك أن تحصل على ما يوافقك، والرب سيعينك حتماً. لكن لا تثق بالطالع والكهانة، فليس هناك من ضرر أكبر منها على البشر، وغضب الرب كبير عندما يتم تصديق مثل هذا الأمور.

رأى الكوندي صواب نصيحة باترونيو فاستحسنها وسارت أموره على خير ما يرام.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

من لا يضع ثقته ورجاءه في الرب

عاقبه بالسوء وشر ميتة سيموت .

مثال 46

ما جرى لفيلسوف دخل شارع النساء الماجنات مصادفة

تحدث الكوندي لوكانور مع باترونيو مستشاره ذات يوم قائلاً:

- باترونيو، تعلم جيداً أن على البشر أن يبذلوا قصارى جهدهم لنيل السمعة الطيبة والمحافظة عليها. وأنا على يقين تام بأن لا أحد ينصحني أفضل منك في هذا الأمر والأمور الأخرى. فأرجو منك أن تخبرني عن الطريقة المناسبة التي يمكنني أن أزيد بها من سمعتي وتجنب كل ما ينال منها.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- يروقتني ما قلت، وقبل أن أنصحك، أود أن تعرف ما جرى لفيلسوف كبير وطاعن في السن.

فسأله الكوندي عن ذلك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- عاش فيلسوف كبير في إحدى مناطق مملكة مراكش، وكان مصاباً بمرض يسبب له التفرغ البطني وما يرافق ذلك من آلام مبرحة. وقد أمره الأطباء بأن يعجل بالإفراغ كلما أحس بحاجة لذلك، إذ إن البراز حين يحترق، يببس ويصك ويعسر عليه الإفراغ مما يؤلمه أشد الألم ويضر بصحته. وعمل بنصيحة الأطباء فسارت أموره على خير.

ووافق ذات يوم أن كان يتمشى في شارع يسكنه العديد من تلامذته، فجاءت حاجة الإفراغ ولكيلا يخل بنصيحة الأطباء، دخل في أحد الأزقة. وشاءت المصادفات أن يكون شارحاً مترعاً بالنساء الماجنات اللاتي يتاجرن بأجسادهن، ملحقات العار والتدنيس بأعراضهن وأرواحهن. ولما كان الفيلسوف بغفلة عن الأمر. فقد تأخر لساعة طويلة قبل أن يخرج من أحد البيوت بسبب طبيعة

مرضه. ولما كانت الدار سيئة السمعة، فقد ظن الجميع أنه قد ذهب إلى تلك الدار لارتكاب فعل مشين لا يليق بسنه ولا بمرتبته. والجميع يعلم أن الرجل المحترم حين يرتكب فعلاً غير لائق حتى لو كان تافهاً، فإنه سيثير الألسن عليه أكثر مما يحدث مع الرجل المستهتر معتاد الأفعال القبيحة. لهذا فقد تكلم الناس كثيراً وانتقدوا الفيلسوف الشيخ لذهابه إلى مكان مسيء لروحه وجسده وسمعته.

عندما كان في بيته، جاءه تلاميذه حزاني وبقلوب متألمة وسألوه عن الفضيحة التي اقترفها فتسبب لنفسه ولهم بالخزي والعار، ولوث سمعته الناصعة حتى ذلك الحين.

عندما سمع الفيلسوف ذلك، استهجن كلامهم وسألهم عن أي خطأ يتحدثون. فردوا عليه بأنه لا جدوى من الإنكار، فالمدينة كلها تتحدث عن المثل السيئ الذي قدمه بدخوله زقاق المومسات. اغتاض الفيلسوف عن سماع ما قالوه، لكن ترجاهم ألا يحزنوا على هذه الحال ووعدهم بأنه سيقدم لهم الإجابة بعد ثمانية أيام. ثم إنه دخل مكتبه وكتب كتيباً صغير الحجم عظيم الفائدة. تناول فيه من بين ما تناول أمر الحظ السعيد والحظ العاثر، مخاطباً تلاميذه قائلاً:

«أبنائي، يحدث مع الحظ السعيد والحظ العاثر أن يطلبهما المرء فيلقاهما، وقد يلقاهما دون أن يطلبهما. فالحظ الذي يقع بعد أن يُطلب هو عندما يأتي المرء عملاً صالحاً فيجني ثماره الطيبة، أو حين يجيء العمل السيئ فيجني ثماره العلقم. وهذا هو الحظ الذي يقع بعد أن يُطلب، لأن المرء يستقدمه بعمله.

أما الحظ الذي يقع دون أن يُطلب، فهو عندما يجني المرء الثمر الطيب دون أن يسعى خلفه مثل ذلك الذي يعثر على كنز في الحقل، أو حين ينزل بالمرء الضرر أو المصيبة بلا استحقاق، أو كالذي يسير في درب فيقع على رأسه حجر رماه آخر على طائر، فهذا وقع له دون أن يسعى إليه، ولم يفعل ما يستحق عليه ذلك الحظ العاثر.

ولا بد من أمرين اثنين في الحظ السعيد والحظ السيئ اللذين يُطلبان ثم يحصلان: أولاً أن يساعد المرء نفسه بفعل الخير ليكسب السعادة وعمل الشر ليلقى العقاب. وثانياً أن يجازيه الرب على عمله، إن خيراً فخييراً يلقي وإن شراً فشرّاً يلقي. وعلى هذا النحو، لا بد من أمرين في الحظ السعيد والحظ السيئ اللذين يقعان دون أن يطلبان: أولاً أن نحرص على عدم ارتكاب ما يسيء أو يثير الريبة فنحصد به الشر والسمعة السيئة. - وثانياً أن ندعو الرب، القادر على أن يبعدنا عما يجيء

بالحظ العاثر والسمعة السيئة، ويحفظنا ويعيننا حتى نسلم من العثرات، كذلك التي أَلمت بي في ذلك اليوم. فقد دخلت ذلك الزقاق لأقضي حاجة ما كان بي طاقة على تأجيلها، وعلى الرغم من أنه أمر بريء في حد ذاته ولا يمكن أن يسبب لي الضرر، فإنه قد جر عليّ خزيًا وعاراً بلا أي ذنب مني، وكل ذلك لأن المصادفة قد شاءت أن تعيش المومسات في ذلك المكان».

وأنت سيدي الكوندي إذا رغبت أن تصون سمعتك وتحسن منها، فعليك بأمر ثلاثة: الأول منها، عمل الصالح الذي يرضي الرب وعباده، دون الإضرار بمنزلتك العالية ولا مكانتك بين الناس، وكن على يقين بأن السمعة الطيبة ستتلوث إذا لم تقم بفعل الخير واقترفت ما يثيئها. فكم من الناس قد بدأوا بالأعمال الصالحة ثم أضاعوا سمعتهم الطيبة يوم ضلوا سبيل الخير. والثاني منها هو أن ترجو مساعدة الرب لكي يهديك لعمل يُعلي من سمعتك ويجنبك ما يحط منها ويضيعها. أما الثالث منها فهو أن تتبعد عما يريب ويثير الشك ويضر بسمعتك قولاً وفعلًا، لا من قريب ولا من بعيد، فكثيراً ما تبدو الأعمال الصالحة غير ذلك لظرف ما، فتضر بالسمعة ألسنة وعقول البشر وكأنها من الأعمال السيئة. وتذكر أن السمعة تجلو أو تتضرر مما يقوله ويعتقده الناس أكثر مما تحفقه الوقائع نفسها. وعلى العكس منها، بالنسبة للرب والروح، فالشيء الوحيد الذي يضر أو ينفع هو عملنا الذي نقوم به ونبتنا فيه.

رأى الكوندي روعة هذه النصيحة ودعا الرب أن يعينه على الأعمال الصالحة لخلاص روحه وإعلاء سمعته وشرفه.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

اعمل الخير وتجنب ما يريب

حتى تسلم سمعتك وتستقيم.

ما جرى لأحد المسلمين مع أخت له كانت تدّعي الخوف

تكلم الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو ذات يوم قائلاً:

- باترونيو، تعلم أن لي أخاً من أُمي وأبي وهو أكبر مني، وأنا أطيع أوامره وكأنه أبي وأحترمه. وهو معروف بذكائه وتقواه. لكن الرب شاء أن أكون أكثر ثراءً ونفوذاً منه، وأنا على يقين بأنه يضمر لي مشاعر الحسد وإن كان يكتمها جيداً. والدليل على ذلك حين أحتاج إليه في أمر من الأمور أو حين أطلب منه المساعدة يرفض ذلك بذريعة أن في الأمر معصية للرب ويعاتبني كلما طلبت منه ذلك. في حين أنه كلما احتاج إليّ، يحتثني على المخاطرة بحياتي وثروتني وبالذات كلها لأهب لمساعدته كما يرغب. وبما أن الأمر يحدث معه على هذا المنوال، فأرجو منك أن تقوم بنصحي وتخبرني ما يجب أن أقوم به.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- يبدو لي أن أخاك يستحق أن يُقال فيه ما قاله أحد المسلمين لأخت له.

فسأله الكوندي ما حصل بهذا الأمر.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان لأحد المسلمين أخت شديدة الرهافة وكانت تُبدي خوفها وفزعها من كل ما تراه ويحدث لها. حتى إنها كانت تبدي الفزع من صوت الجرة المستخدمة بين المسلمين لشرب الماء إلى درجة أن يُغمي عليها. وكان أخوها شاباً طيباً، لكنه كان يعاني الفقر المدقع. والفقر يجبر المرء على فعل ما يكره. لذلك كان الشاب يحصل على قوت يومه بطريقة غير شريفة، إذ إنه يقوم في كل مرة عندما يُدفن أحد الناس، فكان يمضي إلى المقبرة ويجرد الجثة من الكفن وما عليها. وكانت شقيقته تعلم بأنه يعولها بتلك الطريقة.

حدث أن مات رجل ثري، فُف جسده بثوب ثمين ودُفن مع أشياء ثمينة أخرى. عندما علمت الأخت بذلك، قالت لأخيها أنها تريد مرافقته إلى المقبرة في تلك الليلة لتساعده على حمل ما يجدها مدفوناً مع ذلك الرجل.

مع حلول الليل ذهب الشاب وشقيقته إلى القبر وفتحاه، فاكتشفا أنهما لا يستطيعان تجريد الميت من ثيابه إلا بتقطيعها أو قطع رأس الميت.

لما رأت الشقيقة أنهما أمام خيارين فإما جز رقبة الميت أو تمزيق الثوب الثمين، عمدت إلى رأس الميت وفصلته عن جسده بلا شفقة ولا رحمة ونزعت عنه الثوب. وتعاونوا على حمل كل ممتلكات الميت وغادرا المقبرة.

وفي اليوم التالي، عندما جلسا إلى المائدة، وتحرك الماء في الجرة، كاد أن يغشى على الأخت من الخوف الذي يسببه لها ذلك الصوت. فنظر إليها أخوها مستغرباً وقد تذكر جرأتها وإقدامها بالأمس على جز رأس الميت. فقال لها بالعربية:

- آه يا أختي، تفرعين من بقبق ولا تفرعين من فتنق العنق.⁶⁰

وقد سار قوله مثلاً بين المسلمين.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور، عليك أن تعرف أن أخاك الأكبر حين يعتذر عن عمل ما ينفعلك زاعماً أنه إثم كبير حتى لو لم يكن كذلك، ثم يطلب منك أن تحقق مطالبه ولو كان فيها إثم وضرر عليك، فهو في هذا شأنه شأن الفتاة المسلمة التي كانت تفزع من صوت الماء، ولم تشفق قليلاً في قطع رأس الميت. عليه أنصحك أن ترد عليه رداً طيباً إذا ما طلب عونك، وأظهر له المودة وأعمل ما ينفعه ولا يضر بك، فإن خشيت من الضرر فاعتذر منه بلباقة وأدب، ولا تستجيب لرغباته أبداً.

رأى الكوندي روعة هذه النصيحة واتبعتها فسارت أموره على خير ما يرام.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

من يبخل عليك بمساعدتك في شيء تبغيه

فلا تجازف بأعمالك لشيء يطلبه.

مثال 48

ما جرى لرجل كان يختبر أصحابه

تحدث مرة أخرى الكوندي لوكانور مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، يدعي الكثير من أصدقائي أنهم لن يبخلوا عليّ بأموالهم ولا بأنفسهم وأنهم لن يعرضوا صداقتي لهم لأي خطر مهما حدث. لذا أرجو منك وأنت صاحب الفهم والإدراك، أن تشير عليّ بطريقة أعرف بها إن كانوا سيفعلون من أجلي ما يقولون حقاً.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إن أفضل شيء في الدنيا هو الصديق المخلص. ولكن تيقن أن أوقات الضيق تبين الصديق الحق ولا يجد المرء منهم حينئذ إلا القليل جداً. ومن الصعب أن يعرف الإنسان من هو صديقه الحقيقي إذا لم يمر بمصاعب حقيقية. ولكي تتعرف إلى أصدقائك فعلاً، فأسمح لي أن أخبرك بما جرى لرجل طيب مع ابن كان يفاخر بكثرة أصدقائه.

فسأله الكوندي عما جرى له.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان لرجل ابن، ودائماً ما كان ينصحه بأن يبذل قصارى جهده ليكثر من الأصدقاء الجيدين. وكان الابن يفعل بنصيحة أبيه، وصادق الكثير ممن رغب في صداقتهم وعاملهم بكل كرم حتى يظفر بمودتهم. وزعموا له أنهم سيضحون بأموالهم وأرواحهم من أجله حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

وذات يوم سأل الأب ابنه إن كان قد عمل بنصيحته وهل استطاع اكتساب الأصدقاء. وهنا أجابه الابن بأنه قد صادق العديد منهم، وأن من بينهم عشرة يثق فيهم كل الثقة وهو واثق جداً أنهم لن يتخلوا عنه وهم على استعداد لمواجهة المنية غير متهيئين المصاعب.

عندما سمع الأب ذلك منه، رد عليه بأنه مندهش أن يكون قد صادق كل هذا العدد من الأصدقاء وكلهم على هذه الدرجة من الوفاء، فهو وطوال حياته لم يكتسب سوى صديق ونصف صديق وهو الذي تقدم به العمر طويلاً.

وهنا ألح الابن وأكد أنه صادق في كل ما يقول. ولما رآه الأب على تلك الحال طلب منه أن يختبرهم بالطريقة التالية. إذ أمره أن يقتل خنزيراً وأن يضعه في كيس ويقصد أصدقاءه في بيوتهم واحداً بعد الآخر، ويخبرهم أنه يحمل في الكيس جثة رجل قتله بيديه، وإنه لو وصل الخبر إلى رجال العدالة فلن ينجو من الموت لا هو ولا الذي يساعده على إخفاء جريمته ولو افتدوا بالدنيا وما فيها. وأن يرجوهم كأصدقاء أن يخفوا الجثة وأن يحموه إذا اقتضى الأمر.

نفذ الفتى الخطة وراح يجرب أصحابه كما أشار عليه أبوه. ولما وصل إلى بيت كل واحد منهم وحكى له عن المصيبة التي حلت به، قالوا له جميعاً إنهم على استعداد لمساعدته في أمور أخرى، لكنهم لا يجرؤون على مساعدته في مصيبتهم هذه لأنهم سيعرضون أموالهم وأرواحهم للخطر، ورجاه كل واحد منهم ألا يخبر أحداً أنه لجأ إليه. كما قال له بعضهم إنهم لا يجرؤون على مساعدته على تلك الحال، ولكن وعدوه بأنهم سيطلبون العفو له إذا ما حكم عليه بالموت. ووعدوه آخرون بأنهم سيرافقونه حين يحملونه إلى المشنقة، وسيقفون إلى جانبه حتى النهاية، وأنهم سيشاركون في دفنه بما يليق به.

عندما اختبر الفتى كل أصدقائه ولم يجد بينهم صديقاً وفاقاً واحداً، عاد إلى أبيه وحكى له ما جرى. عندما سمع الأب كلامه، أجابه بأن من تقدم في عمره يعرف أكثر من ذلك الصغير السن وقليل الخبرة. وأضاف قائلاً إنه ليس لديه سوى صديق واحد ونصف صديق. وطلب منه أن يلجأ إليهما ليحربهما. فذهب الابن أولاً عند ذلك الذي وصفه أبوه بنصف الصديق. وكان أن وصل بيته بعد حلول الظلام وهو يحمل كيس الخنزير على ظهره، فطرق الباب وأخبره عن حاله وكيف أن أصدقاءه قد رفضوا تقديم العون له، ورجاه، بحق الصداقة التي تجمعهم بأبيه أن يعينه في أمره.

عندما سمع نصف صديق أبيه ما قاله، أجابه بأنه وإن لم يكن بينهما صداقة تستدعي المخاطرة، لكنه سيستتر على فعلته إخلاصاً لصداقته لأبيه. ما أن أتم كلامه حتى رفع كيس الخنزير على عاتقه، معتقداً أنها جثة بشرية، وأخذها حتى البستان ليدفنه بين نباتات الكرنب، ثم أعاد وضع الكرنب كما كان عليه وطلب من الفتى أن يمضي بأمان.

عندما رجع الابن إلى أبيه حكى له ما جرى. فطلب منه أبوه أن يرجع في اليوم التالي إلى نصف الصديق وما أن يجتمع به، عليه أن يفتعل الشجار معه حول أي شيء، وأن يكيل له في خضم

الشجار لطمة بكل ما أوتي من قوة. ففعل الشاب ما أمره به أبوه، وحين لطمه، نظر له نصف صديق أبيه وقال له:

- ما أفبح ما فعلت يا بني، ولكنني أؤكد لك إنني لن أكشف عن بستان الكرنب بسبب هذه الإهانة ولا أسوأ منها.

عاد الفتى ليقصّ على أبيه ما جرى له، فكان أن أرسله ليجرب صديقه الحقيقي.

وعندما وصل بيت صديق أبيه حكى له كل ما جرى له، فقال له الرجل الطيب، صديق أبيه، أنه سيحمله من الموت ومن أي ضرر ممكن.

وحدث بالمصادفة أن قُتل رجل في المدينة في تلك الأيام ولم يُعرف قاتله. وكان البعض قد ارتاب بالفتى لأنهم رأوه بكيسه يخرج ليلاً ولأيام عديدة.

وحتى لا أثقل عليك. تم الحكم على الفتى بالموت. وبذل صديق أبيه كل جهد لإنقاذه. ولما رأى أنه لن ينجح في ذلك، أخبر القضاة بأن ضميره يؤنبه ولم يعد يحتمل أكثر، وأن الفتى المحكوم بالجنائية ليس هو صاحب الفعلة، بل القاتل ابنه الوحيد. واحتال عليهم كي يستجوبوه بعد أن أقنعه هو بنفسه أن يقر بالذنب، وهذا ما أكده الابن بنفسه. ففضي الأمر وأعدموا ابنه، ونجا الفتى من الموت بفضل صديق أبيه.

أنظر سيدي الكوندي كيف يُختبر الأصدقاء. أعتقد أن هذا المثال ينفعا في اختيار الأصدقاء المخلصين الذين يجب تجربتهم حتى نعلم على أيهم نعلم فيما لو تورطنا في مخاطرة كبرى، وحتى نعلم ما ينتظرنا فيما لو حلت بنا مصيبة ما. الأصدقاء الحقيقيون موجودون، لكن معظم الآخرين ليسوا سوى أصدقاء في المسرات ولا يُعتمد عليهم إلا في أوقات اليسر فحسب.

يمكننا أن نؤول هذا المثال أيضاً تأويلاً روحياً على هذا النحو: كل الناس في هذا العالم يعتقدون أن لهم أصدقاء، لكن يجب اختبارهم في أوقات الموت. عندئذٍ يقول أصدقاء الدنيا إن لديهم من المشاكل ما يكفيهم، وسيقول الزهاد إنهم سيدعون الرب من أجل خلاص أرواحهم. وتقول الزوجات والأبناء إنهم سوف يرافقوهم حتى القبر وسوف يحسنون في دفنهم بالشكل اللائق. وهكذا يتبين لهم ما يمكن انتظاره من الأصدقاء. وحين لا يجدون من يعينهم ضد الموت، مثل ذلك الفتى

الذي خاب ظنه في جميع من اعتبرهم أصدقاء أوفياء، فلجأ إلى أبيه، لهذا يلجؤون إلى الرب، رب العالمين، فيأمرهم الرب بتجريب القديسين، الذين ليسوا بأنصاف أصدقاء. فيفعلون. وعون القديسين وبركتهم، لا سيما سيدتنا العذراء، كبيرة لأنهم لا يكفون عن الدعاء للمذنب. وتذكرنا مريم العذراء بالعناء الذي تحمته في تربية المسيح، وكذلك يذكرهم القديسون بالعذاب والاضطهاد الذي يلقونه في سبيل الرب، ويحاولون بكل السبل التستر على خطايا البشر. ومهما أصابهم من جهتنا عنت فإنهم لا يفضحون أمرنا، كنصف صديق الرجل ذاك الذي لم يفضح الابن على الرغم من الضربة التي كالهة له. وعندما يقتنع المخطئ بأنه لم يساعده أصدقاؤه واقرباؤه بالتخلص من الموت، فإنه لا بد وأن يلجأ إلى الرب. والرب يحنو علينا كأب حقيقي وكصديق ويكن لنا مودة كبيرة مثلما فعل ذلك الصديق الحقيقي، فأرسل المسيح ليموت طاهراً من كل الخطايا، وليغطي بدمه خطايا وذنوب البشر. وكان أن أطاعه المسيح، وعلى الرغم من أنه الرب والإنسان الحقيقي، شاء أن يلقي الموت ولقيه وخلص المذنبين بدمائه.

والآن سيدي الكوندي، عليك أن تفكر جيداً في من هم أصدقاؤك الأوفياء والحقيقيون، وما يجب عليك لتكسب المزيد منهم.

استحسن الكوندي هذه النصيحة الرائعة.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينها في هذا الكتاب. وكتب فيها هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

لا وجود لصديق أفضل من الرب
فقد شاء أن يشتري خلاصنا بدمائه.

مثال 49

ما جرى لرجل

تركوه عارياً في جزيرة بعد أن خلعه من الحكم⁶¹

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، ينصحنى كثير من الناس بأن أسعى في زيادة ثروتي ونفوذى، وهذا أمر طبيعى فى مثل حالتى ويسرنى جداً. ولعلمى بأنك تشير علىّ بالرأى الصائب دائماً، وأنتك سوف تستمر عليه فى المستقبل، فأرجو نصحك لما علىّ أن أقوم به.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- هذه نصيحة من الصعب القول فيها لسببين: الأول لكى أحسن النصح فعلىّ أن أطلب منك أن تفعل عكس ما تهوى؛ والثانى، لأنه يزعجنى أن أتكلم بعكس ما ينفعل فى الظاهر. وبما أن السببين قد اجتمعا فى هذا الشأن، فلا بد أنك تفهم الآن محنتى بعدم الميل لإبداء الرأى. لكن بما أن ولاء المستشارين هو قول ما يرونه الأفضل لسادتهم، دون مبالاة بفرحهم أو غضبهم، لذا لن أتخلى عن مصارحتهم بما أراه مناسباً لك مهما حدث من أمور. ولأبدأ بالقول إن ذلك الذى نصحك بزيادة ثروتك ومكانتك قد أصاب فى وجه واحد وحسب، لذا أرى أنها نصيحة لا تصلح لك ولا تنفعك. ولكى أوضح أكثر، أو أن تسمع منى ما جرى لرجل وضعه قومه سيداً على أرض شاسعة.

فسأله الكوندي ما جرى له.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- فى أحد الأراضى اعتاد أصحابها أن يجعلوا واحداً منهم سيداً فى كل سنة. وخلال تلك السنة كانوا يأترون بجميع أوامره. وعندما ينقضى العام ينتزعون منه كل شىء ويتركونه وحيداً عارياً فى جزيرة مهجورة.

وشاءت الأقدار أن يختاروا رجلاً أكثر ذكاءً ونباهة ممن سبقوه لكى يتسيد عليهم. وبما أنه كان على علم بما سيفعلون به بعد انقضاء السنة كما فعلوا مع الآخرين، فقد أمر سرّاً وفى وقت مبكر من العام، ببناء بيت متسع ومريح يحتوى على كل مستلزمات العيش الرغيد فى الجزيرة التى من المقرر أن يهجروه فيها. وقد تم بناؤه فى مكان بعيد عن الأنظار ولا يصل إليه أحد من أولئك الذين اختاروه سيداً عليهم.

وأخبر بالأمر بعض الأصحاب الذين كسب ولاءهم وطلب منهم أن يسعفوه بما يحتاج إليه البيت، بحيث لا ينقصه أى شىء حين يكون هناك.

عندما انقضى العام وعزلوه عن الحكم ليتركوه عارياً في تلك الجزيرة التي بنى فيها بيتاً،
وقد لجأ إليها وعاش هناك عيشة هنيئة.

وها أنت ترى سيدي الكوندي لوكانور، إذا ما شئت أن تستمع إلى نصيحتي، فعليك أن
تتذكر، بما أنه عليك أن تغادر الدنيا عارياً فلا يمكنك أن تأخذ منها سوى عملك الصالح. وعليك أن
تكثُر منه حتى تجد عند مغادرتك لها ووفودك على الأخرى مقاماً تعيش فيه عيشة هائلة. وأعلم أن
حياة الروح لا تُحسب بالسنين، لأنها خالدة، والروح لا تموت ولا تفسد. وأعلم أيضاً أن الرب
يحسب الأعمال الصالحة والطالحة تلك التي يعملها البشر في هذه الدنيا، ليجازيهم فيما بعد على ما
يستحق مقابلها. لذا أنصحك أن تعمل الصالح من الأعمال هنا كي تجد مقاماً طيباً عندما تمضي إلى
العالم الآخر، وهو العالم الذي ستعيش فيه إلى أبد الأبد. كما أنصحك بأن تستبدل أموال الدنيا
ومديح الناس بما هو خالد أبدي. ولا تسند الأعمال الصالحة بالتكبر والادعاء، فإنهما لا يوصلانك
إلى ما تبغي، وإنما علمها عند الناس فلا بأس عليك لأنك لم تقم بها رياء وبهتاناً. وعليك كذلك أن
تبدل ما في وسعك كي يقوم أصحابك من أجل روحك ما لم تستطع القيام به وأنت على قيد الحياة.
أرى أن اتبعت ما قلته لك، فلا سوء من زيادة ثرواتك ومكانتك.

وجد الكوندي فيها مثلاً جيداً ونصيحة معتبرة، ودعا الرب أن يعينه على القيام بما نصحه به
باترونيو.

كما رأى دون خوان فيها مثلاً جيداً، وأمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات
الشعرية التي تقول:

اعمل الطيب في هذه الدنيا الفانية

حتى تكسب الدار الباقية.

مثال 50

ما جرى لـ صلاح الدين
مع سيدة كانت زوجة لأحد أتباعه

تحدث الكوندي لوكانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قائلاً:

- باترونيو، أعلم أنك من الفهم والنباهة، بحيث إنك الوحيد من بين جميع من أعرف يجيبي دائماً عن كل سؤال أطرحه. واليوم أريد أن أسألك عن أفضل صفة عند البشر. وأسألك عن ذلك لأنني أعرف أن على المرء أن يتحلى بالأفضل وأن يقتدي به، من أن يجمع العديد من الفضائل، فمعرفة ما يجب فعله وما لا يجب فعله فقط لا يزيد من قدر البشر ولا من نفوذهم. والعمل الناجع يتطلب العديد من الصفات، لذا أتمنى عليك أن تنصحي على الأقل في واحدة منها كي أتذكرها وأعمل بها.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إطراؤك لي ومدحك لنباهتي إنما هو من كرم طبعك، وأخشى ألا تكون مصيباً في حكمك. لتكن واثقاً أن أكثر وأسهل ما يخطئ فيه البشر هو معرفة أحوال الناس ومدى نباهتهم ومقدار ذكائهم. فالأمران مختلفان: الأول هو معرفة كيف هو الإنسان؟ والثاني هو مقياس نباهته؟ ولكي تعلم كيف هو الإنسان فيجب عليك مراقبة ما يقوم به من أجل الرب ومن أجل دنياه. فكم من بشر يعملون في الظاهر، لكن لا خير في عملهم لأنهم حريصون على مباحج الدنيا والتفاني في خدمتها، وهم يؤدون ثمناً باهظاً على ذلك لأنهم يشتررون مجد يوم واحد بعذاب أبدي. وآخرون يعملون الخير لوجه الرب وينسون دنياهم، وعلى الرغم من أن هؤلاء أفضل من اختيار السابقين ويربحون أجرهم، لكن لا هؤلاء ولا أولئك يرجون الرب والدنيا معاً، وهو السبيل الواجب إتباعه.

ولكي تتبع هذا السبيل، لا بد لك أن تقوم بفعل الخير وكسب الفهم ورجاحة العقل، وهو أمر صعب المنال، إذ معناه وضع اليد في النار دون أن تحترق. لكن كل شيء ممكن الحدوث بفضل الرب وقدرته واجتهاد البشر. لذلك كان هناك دائماً ملوك صالحون ورجال قديسون مضوا في سبيل الرب دون أن يغفلوا عن حظوظهم في الدنيا.

ولكي تميز أصحاب الفهم والإدراك، عليك التمعن في جملة من الأمور، فالكثير من البشر يزوقون الكلام الجميل المعقول، لكنهم لا يتصرفون كما ينبغي، وثمة من يقود أموره وأملاكه بشكل جيد لكنه لا يعرف أو لا يريد أن يعرف أو لا يقدر على نطق ثلاث كلمات صحيحة. وثمة آخرون

يجيدون الكلام والفعل معاً، لكنهم يظهرن نيتهم السيئة، فأفعالهم قد تنفعهم لكنها تضر بالآخرين. وفي الإنجيل فإن هؤلاء مثلهم مثل مجنون يحمل سيفاً في يده أو مثل الأمير السفیه واسع النفوذ.

ولكي تعلم أنت وسائر البشر وتكون مصيباً في خياراتك، من هو الصالح عند الرب والصالح في الدنيا، ومن هو الذكي النبيه، ومن هو صاحب الكلام الحقيقي، ومن هو المنافق سيئ النوايا، يجدر بك ألا تحكم على أحد إلا بالنظر في أعماله لمدة طويلة لا لفترة وجيزة، والنظر في أملاكه هل زادت أم نقصت، وبهذا تستطيع أن تعرف منها كل ما قلته لك.

لقد ذكرت لك كل هذا لأنك مدحتني كثيراً وقلت الكثير بشأن ذكائي، وأنا على ثقة بأنك لو أمعنت النظر بروية ما أطريتني بالقدر نفسه. ولكي أجيبك عن سؤالك عن أفضل صفة في البشر، فأرجو أن تسمع مني ما جرى لصلاح الدين مع زوجة أحد أتباعه من الفرسان.

فسأله الكوندي عن ما حصل.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- كان صلاح الدين ملكاً على بابل. وكان من عادته أن يصطحب معه بشراً كثيرين. واتفق أن أقام ذات يوم في بيت أحد أتباعه من الفرسان. وقد بذل الفارس كل ما في وسعه لخدمة ضيفه، قائماً بنفسه على خدمته هو وزوجته وأولاده. وحل الشيطان الذي لا يكل عن فعل السوء، فأنسى صلاح الدين واجبه تجاه نفسه أولاً وتجاه مضيفه وأوقعه في حب زوجة الفارس حباً شديداً.

ولأن الحب كان طاغياً، فقد طلب النصيح من أحد مستشاريه السيئين وسأله عن حيلة يصل بها إلى ما يبتغيه من الزوجة. وأرجو من الرب أن يحفظكم من الأهواء الضالة، إذ لو كانت تلك مشيئته، فلن تعدم من ينصحك ويساعدك على تحقيقها.

وهذا ما حدث مع صلاح الدين، إذ سرعان ما عثر على من يرشده إلى حيلة يحصل بها على مبتغاه. إذ أشار ناصح السوء ذاك أن ينادي على الفارس ويقلده منصباً كبيراً، ويجعل تحت أمرته عدداً كبيراً من الرجال، ثم يرجئه لأيام ويرسله بعد ذلك إلى مكان بعيد. فيسهل عليه بعد ذلك تحقيق رغباته أثناء غياب الزوج.

استحسن صلاح الدين الخطة وعمل بها. وحين سافر الفارس لأداء مهمته وهو مسرور بحظه السعيد ومكانته لدى سيده السلطان، عاد صلاح الدين للنزول في بيته. وحين علمت الزوجة بمقدم صلاح الدين، خرجت لاستقباله رفقة أهلها ووضعت نفسها بخدمته. بعد الأكل، انسحب صلاح الدين إلى غرفته وأرسل يطلب حضور المرأة. أسرعَت المرأة بتلبية نداءه وقد كانت تظن أنه يريدُها لأمرٍ آخر. فاعترف لها صلاح الدين بحبه العميق لها. عندما سمعت المرأة كلامه تظاهرت بعدم الفهم، وأجابته بأنها تشكره وترجو من الله أن يحفظه، وأشهدت الله على مشاعرِها الطيبة نحوه، ودعت له بالعمر المديد، وأكدت له أنها تدعو له دائماً، وهو واجبها نحو سيدها لأنه أنعم عليها وعلى زوجها بالكثير.

لكن صلاح الدين أجابها بأنه إلى جانب هذا فهو يحبها كما لم يحب أي امرأة في العالم. فراحت المرأة تسترسل بالشكر وتغض الطرف عن فهم ما قاله. ولكن ماذا أقول لك بعد؟ أفهمها صلاح الدين أنه يحبها. وعندما سمعت المرأة ذلك، وقد كانت عفيفة شريفة، أجابته قائلة:

- سيدي، على الرغم من أنني امرأة صغيرة المحتد، لكنني أعلم أن الإنسان لا قدرة له على سلطان الحب، بل هو واقع تحت سلطانه. وأعرف أنك عندما تعترف لي بحبك فقد يكون حقيقياً أو هو شيء آخر، وعندما تعجب المرأة رجلاً من الرجال، خاصة أنه من الأسياد الكبار، يقول إنها ستقوم بكل ما يرغب فيه منها. لكنها تسقط من قلبه بعد أن يوقع بها ويلحقها العار، وأنا أخشى يا سيدي أن يحصل لي ذلك.

فما كان من صلاح الدين إلا أن أمطرها بالوعود. وبعد أن قال لها صلاح الدين كل ذلك، قالت له المرأة الشريفة إنه إذا وعدّها بتحقيق كل ما تطلبه منه قبل إرغامها والنيل منها، فإنها تضمن له أن تكون رهن إشارته بعد إنجاز وعده.

وافق صلاح الدين بشرط ألا يكون طلبها هو تجنب الحديث معها في ذلك الأمر. فردت عليه بأنها لن تطلب منه ذلك ولا أي شيء يصعب عليه عمله. عندئذٍ وعدّها صلاح الدين أن ينفذ ما تريد. فقبلت المرأة يديه وقدميه وقالت له إن كل ما تريده هو أن يقول لها ما هي أفضل صفة في البشر والتي تتضمن كل الخصال الأخرى.

عندما سمع صلاح الدين ما قالته له المرأة، بقي يفكر ملياً ولم يستطع الظفر بجواب. ولما كان قد وعدّها بعدم إرغامها على أي شيء حتى يلبي طلبها، رجاها أن تمهله بعض الوقت للتفكير في الجواب. وعدته المرأة بأنها ستكون رهن إشارته عندما يقدم لها الجواب الوافي. وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد.

رجع صلاح الدين إلى أصحابه وطرح السؤال على الحكماء دون أن يبدي السبب الحقيقي لسؤاله. فأجابهم بأن الروح الصالحة هي أفضل خصال البشر، لكنهم يرون أنها غير كافية في الحياة الدنيا. وقال له بعضهم الآخر إن من أفضل الصفات هو الولاء. فاعترض بعضهم على ذلك قائلين إن الولاء جيد في حد ذاته، لكنه قابل للاجتماع مع خصال أخرى مثل الجبن والبخل والعادات المذمومة، لذلك فهو غير كافٍ بذاته. وذكروا له العديد من الصفات الحميدة لكنهم لم يتوصلوا إلى إجابة شافية عما سأل صلاح الدين عنه.

وحين لم يعثر صلاح الدين على الإجابة في أراضيه، مضى مسافراً رفقة اثنين من المنشدين⁶² وراح يذرع أقطاب الأرض. وهكذا عبر البحر متخفياً واتجه حتى بلاط البابا، حيث يجتمع كل المسيحيين. وهناك طرح سؤاله عليهم دون أن يحظى بإجابة وافية. وبعدها رحل حتى بلاط ملك فرنسا وغيره من الملوك دون جدوى. وأخذ الأمر منه الوقت الطويل حتى ندم على خروجه من بلاده. والحق أن الأمر لو كان متعلقاً فقط بالظفر بتلك المرأة وحسب لترك الأمر بالمرّة، لكنه كان نبيل الشمائل عالي الهمة وكان يعتقد أنه لو ترك الأمر دون إجابة لتضرر بذلك كثيراً، لهذا السبب لم يتراجع عن مراده. فهيبة الرجل تنقص كثيراً لو تخلى عن المهمة التي بدأها خوفاً أو طلباً للراحة، إلا إذا كان الأمر متعلقاً بخطيئة أو فعلٍ سيئ. لذلك لم يقبل صلاح الدين التخلي في بحثه عن جوابٍ شافٍ كان السبب في تركه أرضه ودياره.

ذات يوم وهو في الطريق رفقة المنشدين، التقى بحامل درع عائد من الصيد بعد أن قتل ظيبياً. كان حامل الدرع حديث العهد بالزواج، وكان أبوه الشيخ من أفضل فرسان المنطقة سابقاً. وعلى الرغم من أنه فقد بصره لتقدم عمره ولم يكن بمقدوره مغادرة البيت، إلا أنه كان نبهياً ذكياً، بحيث كان يشرف بنفسه على كل أموره الشخصية. وكان أن سأل حامل الدرع الرجال الثلاثة من هم ومن أين جاؤوا؟ فأخبروه بأنهم من المنشدين.

عندما سمع ذلك فرح كثيراً وأخبرهم بأنه عائد للتو من يوم صيد رائع وسوف يكتمل سروره لو وافقوا على النزول في بيته تلك الليلة. أجابوه بأنهم متعجلون لأنهم خرجوا من بلدتهم منذ وقت طويل للاستقصاء في أمر ما، وقد قرروا العودة لأنهم لم يحصلوا على إجابة واعتذروا منه لعدم قدرتهم المكوث عنده هذه الليلة. عند ذلك ألح حامل الدرع بالأسئلة كثيراً حتى عرف عما يبحثون. فقال لهم إذا لم يجدوا الجواب عند أبيه فلن يعثروا على إجابة عند أي أحد آخر. وحكى لهم عن أبيه.

ما أن سمع صلاح الدين بذلك، وهو المنشد في نظر حامل الدرع، حتى فرح كثيراً وعزم على المبيت عنده. عندما وصلوا إلى البيت قال الرجل لأبيه إنه مسرور جداً لأن الحظ حالفه في الصيد، كما أن رفقة هؤلاء المنشدين قد زادت من سروره. وأخبره كذلك بمبتغاهم، ورجاه أن يجيبهم عن سؤالهم، لا سيما أنه قد أكد لهم ألا أحد في الكون بقادر على إجابتهم أفضل منه.

عندما سمع الفارس العجوز السؤال عرف أن صاحبه ليس واحداً من المنشدين ووعده بأن يجيبه بعد أن ينتهوا من طعامهم. وأخبر حامل الدرع صلاح الدين، وهو يظن أنه أحد المنشدين، وما قاله الأب فرح به كثيراً وتحرق لمعرفة الجواب وثقل الأمر عليه انتظاراً للانتهاء من الطعام.

عندما رفعوا السماط وقام المنشدون بأداء ما يعرفونه، قال لهم الفارس العجوز إن ابنه قد أخبره بأنهم ذرعوا الأرض كلها دون أن يحصلوا على إجابة شافية عن سؤالهم. ثم طلب منهم أن يخبروه عن سؤالهم ليجيبهم بما يعرف حسب فهمه وإدراكه. عندئذ قال له صلاح الدين، المتخفي برداء المنشد، إنه جاء ليسأل عن أفضل خصلة في البشر والتي هي عماد الصفات الأخرى كلها.

عندما سمع الفارس العجوز هذا الكلام عرف كل شيء. وكذلك تعرّف إلى صلاح الدين من صوته، لأنه سبق أن عاش في بلاطه زمناً طويلاً وتلقى منه كل خير. فأجابه قائلاً:

- صديقي، أول ما أود قوله إن منشدين مثلك لم يدخلوا بيتي قبل ذلك أبداً. ولتعلم أنني لكي أكون صادقاً أقول لك إنني قد تعرفت إليك، ولكن في هذا الشأن لن أقول شيئاً حتى أتكلم معك على حدة حتى لا يعرف بالأمر أحد غيرنا. أما عن سؤالك فأجيبك بأن أفضل خصلة عند البشر وهي أم ورأس كل الصفات، ألا وهي الحياء. وبالحياء يعاني البشر الموت، وهي أخطر الأشياء التي توجد، وحياء الرجل يجنبه ما يشينه حتى لو اشتدت رغبته وطغت. وبالحياء تبدأ وتنتهي كل الخصال.

عندما سمع صلاح الدين ما قاله الفارس أدرك صدقه. وفرح فرحاً عظيماً بحصوله أخيراً على الجواب النافع. وبسعادة غامرة ودع الفارس الشيخ وابنه حامل الدرع. ولكن قبل ذلك تكلم معه الفارس العجوز على حدة وأخبره أنه عرف أنه صلاح الدين وذكره بإحسانه له فيما مضى واعتنى به الشيخ وابنه كل الاعتناء حتى لا ينتشر الأمر وتكتشف حقيقته.

بعد كل ذلك توجه صلاح الدين إلى بلاده بأسرع ما يكون. وعندما وصل استقبله أهله ببالغ السرور واحتفلوا بعودته.

وبعد أن انتهى وقت الأفراح والمسرات، مضى صلاح الدين إلى بيت المرأة الشريفة صاحبة السؤال. ولما علمت بمقدمه خرجت إليه ورحبت به واعتنت به كما ينبغي.

ما أن انتهى من الأكل وانسحب إلى مخدعه، نادى على الزوجة الطيبة. وحين أصبحت أمامه أخبرها صلاح الدين بما لاقاه من عناء ومشقة حتى عثر على إجابة لسؤالها وإنه على استعداد لتقديمه لها وينتظر أن تفي بدورها بما وعدت به. فرجته المرأة أولاً أن يكون صادقاً ومخلصاً بوعده وأن يبدأ بالإجابة عن السؤال، فإذا كان هو نفسه متيقناً من أن إجابته صائبة، فستفي في الحال بوعدها له.

فأخبرها صلاح الدين أنه سعيد بما تقول، وهو يقول لها إن إجابته عن سؤالها الذي طرحته عليه عن أفضل الخصال البشرية، فهو يقول إن أفضل الأشياء التي على البشر التحلي بها وأنها أم ورأس كل الخصال ألا وهي الحياء. وعندما سمعت المرأة الشريفة إجابته فرحت كثيراً وقالت له:

- سيدي، يبدو واضحاً أنك تقول الحق، وقد وفيت بوعدك. والآن قل لي بالله عليك، هل تعرف أحداً في الدنيا كلها أفضل منك. قل الحق لأنك ملك وعلى الملوك قول الحق.

أجابها صلاح الدين إنه سيقول الحق وإنه لا يخفي عنها أنه يعتبر نفسه من أفضل الناس، لكنَّ حياءه يمنعه من قول ذلك بنفسه.

عندما سمعت المرأة الشريفة كلامه انكبت على قدميه وقالت له وهي تبكي بحرقة:

- سيدي، لقد قلت حقيقتين عظيمتين: الأولى إنك أفضل رجل في الدنيا، والثانية أن الحياء من أفضل خصال البشر، فإذا كنت تعرف هذا وأنت أفضل إنسان في الدنيا، فالرجاء أن تتحلى

بأفضل الخصال وتستحي مما تطلبه مني.

عندما سمع صلاح الدين رأيها الصائب ورأى كيف أن تلك المرأة المخلصة والنبهية قد جنبته ارتكاب ذنب عظيم، حمد الله وشكره على فضله. وانقلبت رغبته الأثمة إلى معزة حقيقية شريفة كما ينبغي أن تكون بين كل سيد وتابعيه. وإشارة لإخلاصها، أرسل في طلب زوجها وكرّمه هو وزوجته وكل من جاء منهما بعد ذلك وعاشوا مكرّمين بين ذويهم.

وكل هذا حصل بسبب شرف تلك المرأة الطيبة ولأنها استطاعت أن تشير إلى أن أفضل الخصال في البشر هي الحياء، وهي أم ورأس كل الخصال الأخرى.

وأنت سيدي الكوندي لوكانور تسألني ما هي أهم الخصال التي يجب أن يتحلّى بها البشر، فأقول لك إنه الحياء، لأنه بفضلها يكون الإنسان شجاعاً وكريماً ومهذباً وباراً. والحياء يحصن الإنسان من الرغبات الأثمة. الحياء خير وفقده شر ما بعده شر. وكل بشر ضال بفعل المخجل من الأمور ولا يستحي ما دام لا يراه أحد. وأعلم أن كل شيء يفتضح ويُعرف عاجلاً أو آجلاً مهما تسترت عليه. فحتى لو لم يستح المرء حين يجيء بأمر مخجل، عليه أن يتذكر الخجل الذي سيجلبه عليه حين يفتضح أمره. وإذا لم يستح من هذا، فعليه أن يخجل من نفسه، لأنه يعلم أن الأمر مستنكر بحد ذاته. وإذا لم يفكر في أي شيء من كل هذا، عليه أن يفكر في أنه إنسان تعيس (لأنه يعلم أنه لو رآه صبي يفعل فعلته فسوف يتوقف عن ذلك حياء) وعدم التخلي عن فعل السوء يعني أن المرء لا يستحي من الرب الذي يرى ويعلم بكل شيء وسيعاقبه العقاب المجزي.

ها أنا قد أجبتك سيدي الكوندي عن سؤالك. وبهذا أكون قد أجبتك عن خمسين سؤالاً. 63 لقد استمعت إليّ وقتاً طويلاً وأنا على ثقة بانزعاج أصحابك، لا سيما أولئك الذين لا رغبة لديهم في سماع ولا تعلم ما ينفع. إن مثلهم كمثل دابة تحمل ذهباً، فهم يشعرون بالثقل ولكنهم لا ينتفعون بقيمته. وهم يضجرون مما يسمعون ولا ينتفعون حق الانتفاع منه. لذلك أقول لك إنني لا أريد أن أجيبك المزيد فيما لو لديك من أسئلة أخرى بسبب ما ذكرت لك الآن من جهة، ومن جهة أخرى بسبب الإنهاك الذي سببته لي الإجابات الكثيرة عن تلك الأسئلة. لهذا أفضل أن أضع النهاية لهذا الكتاب.

استحسن الكوندي روعة هذا المثال، وقال إنه سيحقق رغبة باترونيو بألا يسأله المزيد من الأسئلة، وسيبذل جهده كي يحقق مشيئته.

ولما رأى دون خوان في هذا مثلاً جيداً، أمر بتدوينه في هذا الكتاب. وكتب فيه هذه الأبيات الشعرية التي تقول:

*الحياء يطرد كل الشرور
ويجعل من البشر مصدر خير.*

مثال 51

ما جرى لملك مسيحي عظيم ومتكبر جداً⁶⁴

تحدث الكوندي لوكانور مرة أخرى مع مستشاره باترونيو، قائلاً:

- باترونيو، العديد من البشر يذكرون لي أن من بين الأشياء التي تمكن الإنسان من الفوز برضاء الرب هي أن يكون متواضعاً. آخرون يذكرون لي أن المتواضعين يُستهان بهم من قبل الأغلبية ويُشار إليهم بكونهم ضعاف الهمة والقلب، وأن من المفيد للسيد العظيم وما يجب أن ينتفع به، هو أن يكون متجبراً. ولأنني أعلم بأنه لا أحد مثلك يدرك ما يجب أن يكون عليه السيد العظيم، أرجوك أن تنصحي أي الغرضين أنفع وما يجب عليّ أن أقوم به.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لكي يدرك سيادتكم ما هو أفضل وما يقع لكم بموقع حسن، يسرني أن أكلمك بما جرى لملك مسيحي كان له من العظمة والتكبر الشيء الكثير.

رجاه الكوندي أن يخبره كيف كان ذلك.

- سيدي الكوندي- قال باترونيو- في أرض لا أتذكر اسماً لها، كان هناك ملك شاب، ثري وعظيم، ومتجبّر بشكل لا يوصف. إلى درجة أن تجبره أوصله لحال وهو يستمع مرة أنشودة

القديسة سانتا ماريما التي تقول:

«Magnificat anima mea dominum»

فسمع فيها شطراً يقول: «Deposuit potentes de sede et exaltauit humiles»⁶⁵ الذي يريد القول: «لقد طرح ربنا وأنزل المتجبرين المتكبرين من عليائهم ومجد المتواضعين». وعندما سمع هذا، أثقل عليه كثيراً وأمر أن يمحي هذا السطر من الكتب في كل المملكة، وأن يكتبوا عوضاً عنه «Et exaltavit potents in sede et humiles posuit in terra». التي تعني: «لقد مجد الرب عروش المتجبرين العظماء وحطم المتواضعين».

هذا الفعل أثقل كثيراً على الرب، لأنه جاء على العكس مما قالتها القديسة سانتا ماريما في هذه الأثسودة نفسها، وذلك بعد أن رأت أنها أم ابن الرب التي حملت به ووضعته وهي بتول دون خطيئة، وقد رأت أنها سيده السماوات والأرض، قالت عن نفسها مُعلية من شأن التواضع على كل الفضائل

«Quia respexit humilitatem ancillae suae, ecce enim ex hoc»

«benedictam me dicent omnes generationes

الذي يعني: «لأن الله ربي قد رأى التواضع في شخصي، وأنني من عباده، لهذا يدعوني جميع البشر بالطوباوية: . وهذا ما حصل، لا قبلها ولا بعدها، امرأة أخرى سميت بالطوباوية، لطبيتها وللإشارة لتواضعها الكبير، استحققت أن تكون أم الرب ومملكة السماوات والأرض، وعلاوة على ذلك أن تصبح سيده قائمة على جوقة الملائكة».

مع ذلك، فقد حصل للملك المتجبر شيء مختلف عن هذا. ففي أحد الأيام وقد رغب في الذهاب إلى الحمام، وقد كان فخوراً رفقة حاشيته، دخل الحمام وكان عليه أن يخلع ملابسه وأن يترك كل ثيابه خارج الحمام. وبينما كان يستحم، أرسل الرب سيدنا أحد الملائكة إلى الحمام، متخذاً هيئة الملك بإرادة وعزيمة الرب، فكان أن خرج من الحمام وقد ارتدى ملابس الملك ومضى الجميع معه حتى القصر. وترك عند بوابة الحمام ملابس مهلهلة ورثة من تلك التي يرتديها الفقراء الذين يطلبون الصدقة عند البوابات.

وبقي الملك، في الحمام دون أن يعلم بأي شيء من هذا، وعندما أدرك أن الوقت أزف للخروج من الحمام، نادى على الحاشية والتابعين الذين قدموا معه، ولكنه بعد أن نادى عليهم كثيراً لم يتلق أي إجابة منهم، فقد رحلوا ظناً منهم أنهم قد مضوا برفقة الملك.

بعد حين وقد أدرك أن لا أحد يجيبه، تملكه الغضب وشعر بالإهانة وبدأ يقسم بأنه سيقتلهم كلهم شر قتلة، فكان أن خرج عارياً ظناً منه بأنه سيلتقى رجاله في الخارج ويقدمون له ما عليه أن يرتديه. ما أن وصل إلى حيث اعتقد أنه سيجد البعض من تابعيه، ولما لم ير أحداً منهم، راح ينظر من طرف لآخر ولكنه لم يعثر على أحد يمكن أن يوجه إليه الكلمة.

في تلك الحال من القلق ودون أن يعرف ما عليه أن يفعله، وجد تلك الثياب المهلهلة الرثة الملقاة في إحدى الزوايا وفكر أن يرتديها ليغطي بها عورته حتى داره، وهناك سوف ينتقم بقسوة من كل أولئك الذين استهزأوا به على هذه الصورة. ارتدى الثياب ومضى مباشرة حتى القصر، وعندما وصل هناك، رأى أحد الحراس عند البوابة، وكان يعرفه حق المعرفة لأنه أحد حراسه وواحد من أولئك الذين رافقوه إلى الحمام، فكان أن ناداه بصوت خفيض أن يفتح له البوابة وأن يدخله الدار خفية حتى لا يدرك أحد المهانة التي تعرض لها.

الحارس وقد أشهر سيفاً قاطعاً عند الرقبة ويحمل نبوتاً في يده، سأله من يكون حتى يتجرأ البوح بهذه الكلمات. فقال له الملك:

- آه يا خائن! أليس كافياً الخزي الذي صنعتة بي وقد تركني الآخرون وحيداً في الحمام، وكان أن عدت مهاناً بهذه الصورة؟ ألسنت فلاناً ولا تتعرف إليّ وأنا الملك سيدك الذي تركته في الحمام؟ أفتح لي البوابة قبل أن يأتي أحد ويتعرف إليّ، وإلا فقسماً أن أجعلك تموت ميتة لا أفسى ولا أبشع منها.

فأجاب الحارس:

- يا للرجل المجنون المسكين! ما الذي تقوله؟ أمض لشأنك ولا تقل خزعبلات كهذه، وإلا فسوف أعاقبك أنا على جنونك، لأن الملك عاد منذ لحظات من الحمام ورجع الجميع معه. لقد أكل وأستلقى نائماً، فالحذر من أن تثير اللغو حتى لا يستيقظ.

عندما سمع الملك كل هذا، فكر أنه يقول له هذا ليخزيه أكثر، فكان أن استشاط غضباً وحرناً ورمى بنفسه عليه حتى يطاله من شعره. الحارس وقد رأى هذا ولم يرد أن يؤذيه باستخدام النبوت، فكان أن ضربه بقوة بالمقبض وراحت الدماء تنهال من كل الأمكنة. بعد أن شعر الملك بجراحه ورأى أن الحارس يحمل سيفاً قاطعاً ونبوتاً محكماً، وأنه لا يحمل معه ما يستطيع به من مجابته، ولا ما يمكنه من الدفاع عن نفسه، فكر أن الحارس قد أصابه الجنون وأن أي شيء يقوله سيودي به إلى التهلكة، فكان أن فكر بالمضي إلى دار رئيس خدمه والاختباء حتى يشفى من جراحه، وبعد ذلك سينتقم من كل أولئك الخونة الذين أذاقوه المهانة.

عندما وصل إلى دار رئيس خدمه، فإذا كان ما جرى له مع الحارس من السوء بمكان، فما حصل له في بيت الخادم أسوأ بكثير.

من هناك مضى حتى دار الملكة زوجته، متخفياً بأكبر قدر من الاحتياط، وقد ظن أنه من المؤكد أن كل السوء الذي مر به لأن أولئك البشر لم يتعرفوا إليه، وقد فكر لو أن كل العالم لن يتعرفوا إليه، فالملكة زوجته، لن تقع في هذا إطلاقاً. بعد أن وقف أمامها وقد أخبرها بسوء ما مرّ به وأنه هو الملك، فما كان من الملكة وقد شكت في أن يكون الملك، وقد كانت تعتقد أنه في البيت، لو سمحت بكل هذا الهذر سوف يحاسبها عليه ويأمر بأن تُضرب بالعصي، لذا طلبت أن يُطرد من البيت ذلك المجنون الذي يقوم بكل هذا الجنون.

الملك، سيئ الطالع، بعد أن رأى سوء حظه، لم يعرف ماذا يفعل فكان أن مضى حتى المشفى مضعضعاً وجريحاً، وبقي هناك لأيام عديدة. وعندما كان يصيبه الجوع كان يمضي من باب لآخر وهو يخبر الناس بمذلتة وأنه يمضي بائساً على الرغم من كونه ملكاً على تلك الأرض. العديد من البشر كانوا يقولون له ذلك ومرات عديدة وفي أماكن عدة حتى ظن بأنه مجنون حقاً، وأن جنونه يحمله على التفكير بأنه ملك تلك الأرض. وعلى هذا المنوال أمضى وقتاً طويلاً وقد فكر كل من يعرفه بأنه كان مجنوناً وأن جنونه قد حصل للكثيرين الذين يعتقدون أنهم شيء آخر وأنهم في حال آخر.

وبينما كان ذلك الملك في سوء حال، فرحمة الرب ومغفرته التي يريد بها مسامحة المذنبين والعثور لهم على طريقة لإنقاذهم مهما كان الذنب كبيراً، فكان أن جرى أن الملك سيئ الطالع

وبسبب تكبره قد وقع في هلاك ومذلة كبيرين، قد بدأ التفكير بأن الشر الذي يحيط به كان بسبب خطيئته وبسبب تجبره الكبير، ليشير إلى أن كل ذلك قد وقع لأنه كان قد أمر بحذف ذلك الشطر من أنشودة القديسة سانتا ماريا وأنه كان يتصرف بطيش وجنون كبيرين. وبعد أن فهم هذا بدأ يشعر بألم كبير وتوبة عظيمة تسكنان قلبه، لا أحد يستطيع قولها بالكلمات. فقد كان ألماً وأسفاً أعظم من فقدته لمملكته، هي تلك المعاصي التي أقرتها بحق ربنا. ورأى بؤس حاله، لهذا لم يجد شيئاً آخر غير البكاء والتضرع وطلب الرحمة من الرب سيدنا كي يغفر له ذنوبه وأن يمنح روحه التوبة. لقد كان ألمه كبيراً بسبب ذنوبه، إلى درجة أنه لم يتذكر ولم يضع في ذهنه طلب رحمة الرب سيدنا أن يعيد له مملكته وشرفه، لأنه لم يكن يعتبر أي شيء من هذا ولم يتمسك بشيء أكثر من طلب المغفرة عن ذنوبه وإنقاذ روحه.

لتكن واثقاً، سيدي الكوندي، أن الكثير من من يقومون بالحج والصوم والزكاة والصلاة والكثير من الأشياء الأخرى فقط لأجل أن يعطيهم الرب، وأن يحفظهم أو أن يعافهم في صحة أجسادهم، في عفتهم أو في أملاكهم المؤقتة، وأنا لا أقول أنهم لا يقومون بالشيء الصائب، بل أقول إنهم لو يقومون بعمل كل هذه الأشياء لطلب المغفرة عن جل ذنوبهم أو لطلب نعيم الرب، وهو ما يكسبونه بالأعمال الصالحة والنوايا الطيبة بلا نفاق ولا ادعاء، فسوف يكون ذلك أفضل لهم ويكسبون بلا شك المغفرة عن ذنوبهم ورحمة الرب، لأن ما يطلبه الرب من المذنب هو أن يمضي بقلب جريح ذليل وبنية صائبة حسنة.

لهذا وبعد أن تاب الملك عن ذنوبه برحمة من الرب، وكان أن رأى الرب توبته النصوح، فقد سامحه على الفور. ولأن مشيئة الرب من العظمة ألا تقاس بحد، لم يغفر فحسب كل ذنوب الملك، بل أعاد إليه مملكته وكرامته أكثر مما كان عليه، وقد عملها على هذه الشاكلة:

الملاك الذي كان على هيئته وفي مكانه كملك، نادى على حارسه وقال له:

- أخبروني أن هناك رجلاً مجنوناً يدعي أنه ملك هذه الأرض ويقوم بفعل الخزعبلات، ليعينه الرب، أي صنف من الرجال هو وأي أشياء يقول؟

وحصل مصادفة أن الحارس كان هو نفسه في ذلك اليوم الذي خرج فيه الملك عارياً من الحمام. والملاك، والحارس يعتقد بكونه الملك، سأل عن كل ما جرى مع ذلك المجنون، وهذا راح

يحكي له كيف أن الناس تسخر منه وتتسلى به وهم يستمعون لما يقوله من أفعال مجنونة. بعد أن أخبر الحارس الملك بكل هذا، أمره أن يمضي لمناداته وأن يأتي به إليه. بعد حين جاء الملك الذي كان في رداء المجنون ووقف أمام الملاك الذي كان في رداء الملك، فكان أن انفرد به وقال له:

- إيه أيها الصديق، يقولون لي إنك تدعي أنك ملك هذه الأرض وأنت قد فقدتها، ولا أعرف إن كان لسوء طالع أم لسبب آخر. لذا أرجوك لإيمانك بالرب، أن تقول لي كل ما تفكر فيه وألا تخفي عني شيئاً، وأعدك أن كل شيء مما ستقوله لن يضرك بشيء إطلاقاً.

عندما سمع الملك الحزين الذي يمضي بهيئة المجنون البائس كل ما جاء على لسان من يعتقد أنه مليكه، لم يعرف كيف يجيب؛ لأنه من ناحية كان يشعر بالخوف فيما لو يسأله ليتملكه، ولو أخبره بأنه الملك فسوف يقتله ويتحول إلى بائس أكثر مما هو عليه، لهذا راح يجهد بالبكاء طويلاً، وقال ذلك كرجل حزين جداً:

- سيدي، أنا لا أعرف كيف أجيب عما تسألني عنه، لأنني أعتقد أن الموت أفضل لي من الحياة (ويعلم الرب أنه لا رغبة لي في جاه أو شرف في هذا العالم) لهذا لا أريد أن أخفي عنكم شيئاً مما ينوء به قلبي. أقول لكم سيدي، أنني لا أراني مجنوناً مثلما يقول الجميع ويفعلون من الأفعال التي تجعلني أعيشها بهذه الصورة منذ وقت طويل في هذه الأرض. وعلى الرغم من أن البعض يمكن أن يخطئ فلا يمكن أن يكون ذلك، ولو كنت مجنوناً كما يظن كل البشر، الطيبون منهم والسيئون، الكبار والصغار، ذوو الفهم ومن يفتقدون له، فيما لو أن الجميع يراني مجنوناً، وأنا أرى ذلك وأفهمه بهذه الصورة، فمن المؤكد أن نيتي ومعتقدي يخبراني إنني كنت ملك هذه الديار وقد فقدت مملكتي بحكمة الرب وعدالته بسبب ذنوبي، والأكثر من ذلك، بسبب تكبري وتجبري.

عندما حكي، بحزن كبير وغزارة في الدموع كل ما جرى له، سواء عن ذلك الشطر الذي أمر بتغييره أو عن ذنوبه الأخرى. حينذاك وقد فهم الملاك، الذي وضعه الرب بهيئة الملك، منه أنه يتألم بسبب أخطائه أكثر من فقدته لمملكته وشرفه، فكان أن قال له بأمر من الرب:

- أيها الصديق، أقول لك إن ما تقوله صائب تماماً، وإنك كنت ملك هذه الديار وإن الرب سيدنا قد سلبها منك للأسباب التي ذكرتها، وقد أرسلني أنا ملاكه لكي أحل محلك متخذاً هيئتك. ولأن تقوى الرب لا يعادلها شيء وأنه لا يرغب من المذنب غير الاعتراف بذنوبه صادقاً،⁶⁶ وهذه

المعجزة تُظهر التوبة الصائبة في شئين: الأول أن يتوب حتى لا يعاود الذنب والآخر أن تكون توبة بلا ادعاء. ولأن سيدنا الرب قد أدرك توبتكم وقد غفر لكم وقد أمرني أن أرجعك لهيئتكم السابقة وأن أرجعك لمملكتك. لذا أرجوك وأنصحك بأن تتعد عن كبائر الذنوب وهو ذنب التكبر، ولأنك تعلم بأن البشر بطبيعتهم يقعون في شرك الذنوب، وإذا كان الرب يمقت منها تلك التي هي حقيقة تمضي بالضد من الرب وعظمته وتلك التي تساهم بفقدان الروح. لتكن متأكداً أنه لم توجد في أرض إطلاقاً ولا مقاطعة أو دولة أو بشر، حيث يحكم هذا الذنب، ما لم يتم القضاء عليه وتحطيمه.

عندما سمع الملك الذي كان يمضي بهيئة المجنون كل ما جاء في كلام الملاك، سقط أمامه وراح يبكي بقوة وصدق بكل ما قاله وعظمه في إشارة للرب، والذي كان مرسلأ منه، وطلب أنه من الثواب ألا يغادر حتى يجتمع كل الناس وأن ينشر بينهم معجزة ما صنعه ربنا. وهذا ما عمل به الملاك. وبعد أن اجتمع الجميع، خطب الملك وقص كل ما جرى له. والملاك بقدرة الرب، ظهر للجميع علناً وحكي لهم الشيء نفسه.

حينذاك قام الملك بعدة تعميمات فيما يخص الرب سيدنا، ومن بين هذه الأشياء، أنه أمر في الاتفاق حول هذا أن يكتب في كل مملكته بحروف من ذهب ذلك الشرط الذي أمر بتغييره. وسمعت أنه حتى اليوم ما يزال يُحفظ في تلك المملكة.

عندما أنتهى كل ذلك، مضى الملاك عند الرب سيدنا الذي أرسله، وعاش الملك مع ناسه بفرح وسعادة. ومنذ ذلك الوقت عمل الملك أشياء طيبة في خدمة الرب ونافعة لشعبه، وعمل أشياء عديدة أخرى نال بموجبها الشهرة في هذا العالم واستحق مجد الفردوس، الذي يريد الرب أن يكافئنا به.

كما ترى، سيدي الكوندي لوكانور، إذا ما شئت مغفرة الرب والسمعة الطيبة في العالم، فلتقم بالأعمال الصالحة والأفعال الطيبة، بلا ادعاء ولا نفاق، وأن من بين كل أشياء العالم، لتحذر التكبر ولتكن متواضعاً بلا مرء ولا زيف، ولكن ليكن التواضع دائماً ما يحفظ لنا وضعنا، أن نكون متواضعين بلا ذل. التكبر المتعجرف لن يجد فيك أبداً تواضعاً يخل من شرفك، ولا بالاستحقاق، بل إن كل من يسعون لإذلالك يجدون فيك التواضع دائماً في الحياة وفي الأعمال الحسنة.

عظم الكوندي هذه النصيحة جداً وتضرع للرب أن يرشده حتى يستطيع إتمام كل هذا وحفظه.

ولأن دون خوان قد أعجبه جداً هذا المثال، فقد دونه في هذا الكتاب وخط هذين البيتين وفيهما يقول:

يمجد الرب كثيراً أعمال المتواضعين العاديين،

ويحطم بقسوة أشد المتكبرين.

الجزء الثاني من كتاب الكوندي

لوكانور وباترونيو⁶⁷

البرهان على ما عمله دون خوان تقريباً

لدون خايمة، سيد خريكا⁶⁸

أنا دون خوان، ابن الرجل النبيل الإنفانتي دون مانويل، الضابط الأقدم في مشاة مملكة مورسيه Murcia، وبعد أن أتممت كتابي هذا الكوندي لوكانور وباترونيو الذي يتحدث عن الأمثال، على الطريقة التي استمعت إليها، وحسب ما جاء في الكتاب وفي المقدمة، فقد جعلته على طريقة فهمت أنها الأسهل على الإدراك. وهذا الذي قمت به ذلك لأنني لست أديباً ولم أشأ أن أترك فرصة التمتع به من قبل أولئك الذين لا يوسمون بالأدباء، وهم مثلي لا يمتنون بصلة للأدب، مما حدا بي أن أدرج الحجج والأمثال الواضحة السهلة التي يضمها هذا الكتاب.

ولأن دون خايمة، سيد خريكا Jérica، وهو واحد من أكثر رجال العالم محبة عندي بحيث لا يعادله أحد آخر، فقد قال لي إنه يرغب في أن تتحدث كتبي بغموض، ورجاني فيما لو كتبت كتاباً ألا يكون واضحاً تماماً، وأجزم أنه قد قال لي ذلك لبراعته ولفهمه الكبير ولمعرفته التي تتأى بالحديث عن الأشياء السطحية والواضحة. ما عملته حتى هذه الساعة، وقد عملته للأسباب التي ذكرتها أعلاه، والآن لي رغبة أن أكمل هذا، وشيء آخر متى ما ساعدتني الإرادة على ذلك، سأحدث في هذا الكتاب عن الأشياء التي أفهمها والتي من الممكن أن يستغلها البشر لإنقاذ أرواحهم وأجسادهم والحفاظ على شرفهم وأحوالهم. وعلى الرغم من أن هذه الأشياء ليست نافعة بمكوناتها، كما لو تحدثت عن علوم اللاهوت أو الميتافيزيقيا أو الفلسفة الطبيعية، بل وحتى الأخلاق، أو أي

علوم بارعة أخرى، أفكر في أن ما ينفعني وما أجده مفيداً حسب وضعيتي، هو الحديث عن مادة الفن الآخر أو العلم. وكما أن هذه الأشياء التي أفكر في الحديث عنها هي بالنسبة لي مفيدة، سأقول وعلى بركة الرب، ما كنت قد قلته في كلمات ذات منفعة مع دون خايمه، وأن من سيفهمها فخير على خير والذين لن يفهموها عليهم ألا يعلقوا الخطأ في رقبتي لأنني لم أشأ أن أقول فيها ما قلته في كتب أخرى، بل أن يضعوا وزره على دون خايمه الذي طلب مني ذلك، أو لأنهم لا يستطيعون أو لا يرغبون في الفهم.

وهكذا تنتهي المقدمة التي يفهم منها سبب تأليف هذا الكتاب ولماذا تم التفكير في وضعه بهذه الطريقة، فمن الآن وقدماً ستبدأ مادة الكتاب. الرب برحمته وتقواه أن يكون بخدمته وأن ينتفع به من سيقراه ويستمتع إليه، وأن يعزف عن قول أي شيء مما يجاور الممنوعات. أفكر جيداً في أن من يقرأ هذا الكتاب وكتباً أخرى كتبها سابقاً، وأشياء قليلة أخرى مما يمكن أن تحدث في حياة وأعمال البشر، ألا يجد شيئاً منها في هذه الكتب، ذلك إنني لم أشأ أن أدرج في هذا الكتاب من أشياء كنت قد وضعتها في كتب أخرى، بل مع الأخرى أكون قد ألفت كتاباً يجعل منه عملاً تاماً.

صيغة الكتاب هو أن يتحدث باترونيو مع الكوندي لوكانور كما سترون فيما بعد.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لقد حدثتك حتى الآن بوضوح تام قدر ما أستطيع، ولأنني أعرف أنك ترغب في أن أحدثك في هذه المادة بشكل واضح، بطريقة لا تشبه ما جاء في الكتاب الآخر الذي صدر قبل هذا. فالكتاب الآخر قد انتهى، وهذا الكتاب بيتدى بهذه الطريقة:69

- الأشياء التي تضم مثيلاتها الكثير لا يمكن أن تصبح قاعدة عامة.70

- الأكثر انضباطاً من البشر هو الأكثر معرفة بالحقيقة ويحافظ عليها.

- العقل الأسوأ هو الذي يترك ويفقد ما يطوله، ولا ثمن للذي في طبيعته قلة المطاولة.

- آه يا إلهي، السيد الخالق التام! كيف أندesh وقد وضعت مثيلك في الرجل الأحمق، ما أن يتحدث حتى يخطئ، وعندما يصمت يدل على خطأه، عندما يكون ثرياً يشعر بالفخر، وعندما يصبح فقيراً لا يُقدّر أحداً، العمل الذي لا يعمل هو عمل نافع، وإذا كان خاملاً يفقد كل ما في حوزته، متكبر على من هو أقدر منه، ومهزوم أمام الذي يستطيع أكثر. من السهولة الضغط ومن

السوء التوسل. يدعو باسترخاء ويدعو بشكل سيئ ومتأخر، يطالب بأي شيء وبتعنت. يعطي متأخراً باشمئزاز وبلا رغبة. لا يخجل من أخطائه ويمقت من ينصحه... تملقه مزعج، غضبه باللوم. مشكوك به وفاضح للسر، يهيج بلا سبب، يجتهد حيث لا وجوب للاجتهاد. عندما يفكر يثير التأسف بدلاً من المتعة، ضعيف في الطيبات وصارم في المساوىء، لا يُنصح بالقول بما يعارض إرادته، يوم سيئ من وُلد ليستمتع لنصحه. إذا ما رافقوه لا يُشكر، بل يجعلهم يتأسفون. لا يعي في قول ولا فعل، ولا يخطئ فيما لا ينفعه، ما يقوله لا يفهم منه شيء ولا يفهم ما يقولونه له. دائماً ما يسير مخالفاً رفقته. لا يغير في ملذاته ولا يراقب مدده. لا يريد الصفح ويرغب في أن يصفحوا عنه. هازل وهو المهزلة. راغب الخديعة فيما لو عرف عملها. من كل ما يتمتع به يقول إنه الأفضل وهو غير ذلك. يرغب الراحة وليعتقد الآخرون عنه. ماذا أقول بعد؟ في الأفعال والأقوال، يخطئ فيها كلها. في البقية، من هيئته يبدو كأحمق، والعديد منهم حمقى وإن لم يبدوا، بل من يبدو فيهم لن يترك أن يكون أحمق.

- كل الأشياء لها نهاية، تستمر قليلاً وتظل بفضل العمل الكثير، ولا تُهجر إلا بألم كبير، ولا يبقى أي شيء آخر إلى الأبد، بل يظل وحسب ذلك الذي يكون حياً بالرب.

- ليس عاقلاً من يسعى وحسب لجمع المال. بل من يعرف كيفية استخدامه والتشرف به كما يجب.

- ليس بعقل جيد ذلك الذي يفتخر بإعطاء النصائح الجيدة، بل هو عقل أولئك الذين يقول لهم ويفعلون بها.

- في الأشياء قليلة الأهمية، من النافع الكلمات الرائعة. في الأشياء الأكثر أهمية، من النافع الأفعال الرائعة الحميدة.

- من الأفضل أن يمضي الرجل عارياً على أن يتستر بالأعمال السيئة.

- من له ابن بطباع سيئة، مخجلة ولا يقابل ذلك بالعقاب المناسب، فمن الأفضل له أن يكون بلا ابن.

- أن تسير وحدك أفضل من الرفقة السيئة.

- من الأحسن أن تعيش عازباً على أن تتزوج بامرأة عنيدة.
- لا يبقى المال المجموع بالسوء، وإن بقي فلن يدوم.
- ليس اعتقاداً في شأن بعيد ذلك الذي يضع فيه الحل الأسوأ.
- أشياء عديدة من الممكن أن تكون قريبة وأخرى بعيدة، إذاً من الأفضل أن يتمسك الإنسان بالشيء المؤكد.
- بنشوة وخمول يخطئ البشر في أشياء كثيرة، العقل الكبير من يعرف المحافظة على الاثنين.
- الحكيم من يعرف المعاناة ويحافظ على وضعه في الزمن المضطرب.
- بهمة وخطر سيعيش من يخشى مستشاريه ويعتقد أنهم يرغبون في منفعتهم أكثر من منفعتهم.
- من يزرع في الوقت غير المناسب، لن يندهش عندما لا تكون الغلة وفيرة.
- كل الأشياء الجيدة تبدو جيدة وكل الأشياء السيئة تبدو سيئة، وأخرى تبدو جيدة وهي سيئة، وتبدو سيئة وهي جيدة.
- أفضل الآمال هي تلك التي تمضي فيها في الطريق الصائب حتى لو لم تعثر على ما تريد، عن أن تمضي في الطريق المائل وتحصل على ما تريد.
- من الأفضل للرجل أن يبتعد عن السيد الظالم عن أن يكون من حاشيته.
- من يُخدع في الحب الحقيقي، فإنه يحب. ومن يتملق فإنه يكره.
- من يضع الإرادة فوق المنطق، إنما يعرض الروح والجسد لخطر عظيم.
- أن تستخدم أكثر من اللازم لذائد الجسد، فذلك تحطيم للروح وإضعاف للجسد وتحجيم للعقل والتصرف الحسن.

- كل الأشياء تكمن في ضبط النفس، والعادة في الثقل.
- مَنْ لا أصدقاء له إلا من بين ما يمنحهم، لن يظلوا إلى جانبه طويلاً.
- شيء كرهه مَنْ يرغب في الصحبة السيئة.
- مَنْ يريد التسبُّدَ على ذويه بالإكراه وليس بالأعمال الحسنة، قلوبهم ستختار من يتسبَّدُ عليها.
- على الرغم من حدوثه، فمن الصعب أن تكون مختلفاً عن الرعية.
- البشر صنو مَنْ يرافقه.
- العقل أفضل من المغامرة والجاه والنسب.
- يعتقدون أن العقل والجهد شيان مختلفان، وهما الشيء نفسه.
- من الأفضل أن تخسر في عمك المستقيم عن أن تريح في الأعمال المائلة، الاستقامة تساند المستقيم.
- ليس على البشر الوثوق بالمغامرة، فالأزمة تنتقل والمغامرات تتوقف.
- لا في الغنى ولا الفقر، لا في الحظ الحسن ولا السيئ، ما يجبر البشر على النأي عن محبة الرب.
- ضرر كبير يحيق بالإنسان من الذي يضايقه عن ذلك الذي يسعى للمساعدة.
- ليس حكيماً من يتخلص من عدوه ويسعى لتأخيره.
- مَنْ لا يتوجه بالإشارة لنفسه لن يستطيع توجيهها للآخرين.
- السيد المُداهن ممقوت، العنيف مكروه، والعافل حافظ عليه بالعدل.
- مَنْ يسعى للمنفعة القليلة عبر شيء كبير، فهو فاسد العقل.

- طوبى للذي يعلم بعذاب الأشباح ولا يشكو من ضررها.
- الذي يستطيع قول أو فعل ما يريح، فهو مداهن، وإلا فالأفضل الحفاظ على القول أو الفعل من ضرره.
- محببُ التواضع باعتدال.
- كلما كان الصعود كبيراً، فالهبوط أسوأ.
- صلاحُ السيد يظهر فيما يعملُه وما يسنه من قوانين.
- أن يترك السيد للشعب ما يتوجب له عليهم، سيأخذ منهم ما ليس عليهم.
- مَنْ لا يسعى في الأفعال الحسنة ما يلزمها، لن تساعد عندما يرغب بما يلزمه.
- من الأفضل أن تعاني الجوع على أن تلتهم لقمأ فاسدة.
- من الوضع لا يستفيد البشر إلا ظلماً، ومن الشرفاء الطيبين، المحبة والأعمال الحسنة.
- هناك حقيقة طيبة وأخرى سيئة.
- ضرر كبير أغلب الأحيان تلك التي تحدثها الكلمة السيئة عن العمل السيئ.
- ليس عذراً أن يكون تعيساً مَنْ أحكم التعاسة على آخر.
- مَنْ يُحبُّ أكثر مما يتوجب عليه الحب، فسيكون ممقوتاً.
- الجهل الأكبر هو مَنْ لا يعرف ذاته، فكيف إذاً سيتعرف إلى الآخر؟
- الحكيم من يعرف الفوز في الخسارة، ويعرف الخسارة في الربح.
- الذي يعلم، يعرف أنه لا يعلم، والذي لا يعلم، يعتقد أنه يعلم.
- سُلْمُ المكافأة في التفكير والسلالم هي الأعمال.
- مَنْ لا يتمتع في النهايات، سيبتدئ وهو يخطئ.

- مَنْ يَشَأْ الْإِنْتِهَاءَ مِمَّا يَرْغَبُ، سِيرَ غَبُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَهِيَ.
- عِنْدَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَرْغِبُهُ الْبَشَرُ، سَتَرْغَبُ بِمَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ.
- الْعَاقِلُ يُجْهِدُ الْمَجْنُونُ وَلَا يُجْهِدُ الْمَجْنُونُ الْعَاقِلَ.
- الْمَلِكُ يَحْكُمُ، أَمَّا الْمَلِكُ الَّذِي لَا يَحْكُمُ فَلَيْسَ بِمَلِكٍ، وَإِنَّمَا مَمْلُوكٌ.
- الْكَثِيرُ مَنْ يَذْكُرُ الرَّبَّ وَيَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَالْقَلِيلُ مَنْ يَسْعَى فِي دَرُوبِ الرَّبِّ.
- شَيْءٌ مَهْلِكٌ تَعْلِيمُ الْأَخْرَسِ وَقِيَادَةُ الْأَعْمَى وَدَفْعُ الْمَشْلُولِ إِلَى الْقَفْزِ، بَلِ الْأَكْثَرُ هُوَ قَوْلُ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ بَيْنَمَا تَفْعَلُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ.
- مَنْ تَعُودَ عَلَى صَنْعِ الشَّرَاكِ كِي يُوَقَّعَ بِالْبَشَرِ، سَيَحْضُرُهَا لِلْآخِرِ وَيَقَعُ فِيهَا هُوَ نَفْسُهُ.
- نَصِيحَةٌ مَمْقُوتَةٌ تَلِكُ الَّتِي لَا تَعِيشُ الْحَيَاةَ الْجَدِيدَةَ بِهَا.
- كَمْ هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَنَادُونَ بِالْحَقِيقَةِ وَلَا يَمْضُونَ فِي طَرِيقِهَا.
- طُوبَى لِلْعَقْلِ الْمَدْهَشِ الَّذِي جَعَلَ غَرِيمَهُ يَقَعُ فِي الْحَفْرَةِ الَّتِي أَعْدَاهَا لَهُ كِي يَقَعُ فِيهَا.
- مَنْ يَرِيدُ لِبَيْتِهِ أَنْ يَصْمَدَ، فَلْيَحَافِظْ عَلَى الْأَسَاسِ وَالْأَعْمَدَةِ وَالسَّقْفِ.
- قَوْلُ الْحَقِّ وَالْوَفَاءِ وَالْأَلَا يَتَحَدَّثُ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّ، يَرْفَعُ الرَّجُلَ إِلَى مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ.
- أَفْضَلُ الْأَعْضَاءِ فِي الْإِنْسَانِ هُوَ الْقَلْبُ، وَهُوَ الْأَسْوَأُ كَذَلِكَ.
- مَنْ لَا يُعْلَمُ وَيَنْصَحُ أَبْنَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ زَمَنُ التَّعْنَتِ، دَائِمًا مَا سَيُؤَاجِهُ بِذُنُوبِهِمْ.
- أَفْضَلُ شَيْءٍ يَخْتَارُهُ الْبَشَرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ هُوَ السَّلَامُ بِلَا عَوْزٍ وَلَا خَجَلٍ.
- عَنِ الْكَلَامِ يَصْدُرُ خَيْرٌ كَثِيرٌ. عَنِ الْكَلَامِ يَصْدُرُ شَرٌّ كَثِيرٌ.
- عَنِ الصَّمْتِ يَصْدُرُ خَيْرٌ كَثِيرٌ. عَنِ الصَّمْتِ يَصْدُرُ شَرٌّ كَثِيرٌ.
- بِالْعَقْلِ وَكِبْحِ النَّفْسِ وَالْمَنْطِقِ تَفْسِرُ وَتَحْكُمُ عَلَى الْأَشْيَاءِ.

- كم هو عاقل هو ذلك الذي عليه أن يقطع طريقاً طويلاً ويمر بمرافئ صعبة لكي يريح الثقل الذي حمله ويزيد من الحاصل.

- عندما يكون الملك بعقل راجح ونصيحة طيبة وحكيم بلا خبث، فهو جيد للشعب، وعلى العكس.

- من يطرد المشرك عن معرفة الرب بسبب طمعه، فمن العدل ألا يرضى عنه الرب.

- من يمنحه الرب النصر على عدوه، فليحافظ على ذلك الذي نصره.

- إذا كان العمل لا يصنع فعلاً كبيراً، فالعمل الجيد ليس بفعل كبير. العمل عمل عندما يفعل العمل فعله. وعمل كبير وجيد هو ذلك الفعل الكبير والجيد الذي يأتي من اللا فعل.

- ظروف طبيعية ومعارك ميدانية تنسف وتقتحم الممالك الكبرى.

- قيادة السفينة، نهاية الصراع، وشفاء المريض، وزرع البذرة وجمع زوجين لا تتم إلا بنصيحة إنسان وإرادة ونعمة الرب الخاصة.

- لن يكون إنسان مجبولاً بالإخلاص التام ما لم يثق به أعداؤه بأجسادهم وأعمالهم. فلتنظر لماذا يؤخذ على الإنسان عندما لا يعتاد أصحابه الوثوق به.

- من ينتخب داراً في أرض حيث لا حضور لسيد عادل، مخلص ومكافئ، طبيب حكيم ووفرة من المياه، سيعرض نفسه ومن معه لعواقب لا تحمد.

- كل إنسان طيب، ولكن ليس لكل الأشياء.

- الرب يحفظ البشر من فعل السوء لأنه بإخفائه سيكون عليه عمل آخر أو أشياء سيئة كثيرة.

- من يدفع على القسم آخر يريد الكذب، فعليه جزء من الذنب.

- من يقوم بفعل الخير للطيبين وللأشرار، سيُقابل بطيبة من الطيبين والاحترام من السيئين.

- الإذعان للملك وإطاعة الأمراء، احترام كبار السن وفعل الطيبات للصغار ونصح الأوفياء، سيكون الإنسان عندها آمناً ولن يندم.

- مَنْ يهزأ من الضرر أو سوء ما يجيء من عمل رباني، لن يكن واثقاً بأنه لن يحدث له.
- ليس على البشر تأجيل الخير، حتى لا يضر في الإرادة.
- من السوء أن يصوم الفم فقط، بينما يذنب كل الجسد.
- قبل أن يختار الأصحاب، على الرجل أن يثق بهم ويغامر معهم كثيراً.
- مَنْ يمدحك في قول الحقيقة، لن تكون واثقاً من أنه سينتقدك أكثر عندما تحضر الحقيقة.

الجزء الثالث من كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو

ما قدمه باترونيو من تبريرات للكوندي لوكانور

سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- بعد أن انتهى الكتاب الآخر وهو ما فهمت منك أنك تريده على هذه الشاكلة، فقد بدأت الحديث في هذا الكتاب بصورة أشد اختصاراً وأكثر غموضاً عما كنت عليه في الكتاب الآخر. على الرغم مما قلته لكم في هذا الكتاب هناك كلمات أقل مما في الآخر، تعلم أنه ليس تقليلاً من الاستخدام أو الفهم عما عليه في الآخر، فقبل ذلك كان كبيراً لمن يرغب بدراسته وإدراكه، ذلك أن الكتاب الآخر يضم خمسين مثلاً وفي هذا تصل المائة. ففي هذا وفي الآخر هناك أمثال متعددة، أفكر أنها كافية، وأرى أنكم ستكونون منصفين لو تركتموني أستريح من الآن ولاحقاً.

- باترونيو- قال الكوندي لوكانور- تعرف حق المعرفة أن الإنسان بطبيعة الحال لا يستطيع الاستغناء عن ثلاثة أشياء ودائماً ما يرغب بالمزيد منها: واحدة هي المعرفة والأخرى هي الشرف والتقدير والثالثة هي الاستزادة في الحياة. وكما أن المعرفة شيء رائع، أفكر في أنك لا تريد أن تدينني لأنني أرغب في المزيد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولعلمي أن لا أحد يضاهيك معرفة، فلتعلم، أنني ما دمت حياً، لن أقنط من الإلحاح عليك أن تزيدني مما تعرف وما يمنحني فرصة التعلم.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- أرى الأسباب والنوايا الطيبة التي تدفعك لذلك، أقول لكم الحق إنني أطمح بالعمل أكثر وسأمنحكم الفهم حول أشياء لم أقل فيها قولي حتى الآن. لأنني أقول الحق لمرات عديدة وذلك لكسب مشار له، وليس مثلما يبدو أن ما أريده قول ما أن يسمعه الأخرق حتى يعيده عشرات المرات من أجل فهمه ولا أريد به أن يملأ الكتاب لأنني لا أعرف بماذا يمكن ملئه. ومن هنا وقدماً ما أريد قوله وبيئدي على هذه الشاكلة: - إن الثمين غالٍ، وثنمه غالٍ، ويُحفظ غالياً، وينتهي غالياً. أما الرخيص فهو رخيص، ثمن بخس، يُكسب رخيصاً وينتهي رخيصاً. الثمين رخيص، والرخيص ثمين.

- شيء رائع أن تجد من يثق في نفسه ويعمل الحسنات عن أن يخطئ، ويمضي بلا قلب كبير ذلك الذي يحمل على كاهله ثقل الدين.

- لا يجب على المرء أن يعتقد أنه لا يجرؤ على شيء بمساعدة الآخر عن ذلك الذي يجرؤ مع الآخر بمساعدته.

- بعقل يتم المحافظة على العقل. العقل يمنح عقلاً للذي لا عقل له. دون عقل لا يتم المحافظة على العقل.

- هكذا هي شارة الرب وأفعاله وقليلون من يدركون ذلك حتى لو ذكروه كثيراً.

- العاقل ليس ذلك الذي لا يستطيع أن يكسب صديقاً، بل هو ذلك الذي لا يجعل منه عدواً.

- من يعتقد أنه يتعلم من البشر كل علم فهو خاطئ، يتعلم من يستغل ذلك وينجح فيه.

- النصيحة لو كانت كبيرة، فهذا جيد. اعمل على النصح الجيد وامنح النصيحة الجيدة، ولب نصيحة من ينصح سوءاً لفعل النصح الطيب. سوء النصيحة لنصح جيد يؤدي إلى سوء نصيحة. النصيحة الكبرى تلزم نصحاً أكبر. الفعل الخير للذي يريد ويعتقد بالنصيحة الجيدة.

- الألم الأكبر يجعلك تنسى ذلك الذي لم يكن كبيراً.

- من عليه أن يتحدث في أشياء عديد مرة واحدة، هو مثل ذلك الذي يريد فك كرة صوف بخيوط متشعبة.

- كل الأشياء تُولد صغيرة وتنمو، الحزن يُولد كبيراً وكل يوم يتضاءل.
- بكل شرف يستحق الشرف كل من يقوم بأفعال مُشرفة. الشرف يُولد الشرف، فلتحافظ عليه.

- الحكيم من الأفعى يصنع الترياق،⁷¹ ومضطرب العقل يصنع من الدجاجة سُماً.
- من يفقد سلطته لن يكون واثقاً أن يعود إليها متى ما رغب في ذلك.
- ليس نبيهاً من يُصغر من شرفه ليزيد من تلك التي لا صلة لها بها.
- من يعمل معروفاً لأنه تقبل معروفاً، لن يعمل معروفاً لأن المعروف طريق الكمال، ويجب عليه أن يعمل على المعروف. كل ذلك جيد لأنه عمل معروفاً. ولعمل المعروف عليه بالكمال.
- استخدام الأطعمة الفاسدة والعادات السيئة يحمل الجسد والأملاك والشهرة إلى درب الخطر.

- من يتألم كثيراً من الشيء المفقود الذي لا يستطيع استرجاعه ويغشى عليه من سوء الحظ ولعدم مقدرته على الهرب، فهو لا يتمتع بعقل سليم.

- ثقيلة جداً تركة الفقير، خاصة لو احتاج فيها الطلب من البخيل.
- الرُّشد رشد الرشد. وبسبب الرشد فالبشر غاية الرشد. رشد الرشد، الرشد يخلق من البشر بشراً، ففي الرشد يكون الإنسان. عندما يكون الإنسان رشيداً فهو أكثر إنسانية، وعندما يفتقده، لا يكون، لأن الإنسان بلا رشد ليس إنساناً، بل هو من تلك الأشياء التي لا مكان للرشد فيها.

- الذي يعاني كما يلزم، سوف يسترجع بعد حين الدعة والمتعة.
- من المنطق أن يعيش بسوء من هم بقلوب مزدوجة ومستعدون لتحقيق الرغبات السيئة.
- الذين لا يؤمنون حقيقة بالرب، بسبب من أنهم لا يشعرون بدفاعه عنهم.

- الرجل رجل، وعندما يكون أكثر إنسانية يكون رجلاً أفضل. لو كان الرجل العظيم إنساناً جيداً، فهم رجل جيد وعظيم. وعندما يكون الرجل أقل إنسانية، فهو رجل سيئ. ليس الرجل عظيماً

بل إنساناً جيداً. ولو لم يكن الرجل العظيم إنساناً جيداً، فلا هو بالعظيم ولا بالجيد. من الأفضل له ألا يكون رجلاً أبداً.

- السخاء في الفقر، والتعشف في الوفرة، والعفة في الشباب، والتواضع في الشرف الكبير تجعل من الإنسان شهيداً دون إراقة قطرة دم واحدة.

- من يطالب بالأشياء الكبرى لنفسه ويستحوذ على الأكثر قوة، لن يحصل على وارد جيد.

- من المنطق أن يستقبل الرجل من أبنائه ما استقبله أبوه منه.

- الكثير من أجل الأكثر، فالكثير يعلم أن في الكثرة تصنع الأكثر بكثرة. والقلة تنسحب من أجل الكثير. لا فقد في الشحة. القلة تقوم بالكثرة. املأ القلب بالكثرة دائماً.

- لو كان الرجل الكبير متواضعاً حقاً، فسيحظى بنعيم الرب.

- ما شاء الرب أن يخفيه، ليس على البشر أن يسعى لرؤيته بعينه.

- بمباركة الأب تظل بيوت الأبناء قائمة، وبلعنات الأم تنهار من جذر أساساتها.

- فيما لو كانت السلطة سلطة كبيرة، فالسلطة الكبيرة تجلب المعرفة الكبرى. مع المعرفة الكبرى إرادة أكبر، والتفكير بأن الرب كله سلطة وفي نعيمه تكمن السلطة، لا بد أن نعتقد بعظمة سلطانه.

- من يرغب في شرفه وشرف دولته، عليه أن يتأكد من ثقة الطيبين فيه وخشية السيئين منه.

- الشك والتساؤل يوصلان الإنسان إلى الحقيقة.

- ليس على الإنسان أن يبغض كل البشر من أجل عيب فيهم، فلا بد أن يكون من بينهم من يخلو من العيوب.

- الخطأ خطأ، ومن الخطأ يولد الخطأ. من الخطأ الصغير يولد الخطأ الأكبر، ومن خطأ يجيء خطأ آخر، وإذا ما جاء من خطأ فدائماً ما يدور حول الخطأ. لا شيء من الخطأ يمكن أن يجيء بلا خطأ أبداً.

- الذي يعاني لفرح من يُعلي الحق والحقيقة ويجاهر بهما، فهو ذو عقل واهن.
- الفرسان والأعمال من السهل تسميتها وفقدانها، من الصعب جمعها والأكثر صعوبة الحفاظ عليها.
- ذو العقل الراجح له في أعدائه وقوتهم مقدار ما لهم من منزلة، وللمساعدين وقدرتهم مقداراً أقل.
- القوة ليست قوة على قوة. القوة تضحل بالقوة، وأحياناً من الأفضل أن تكون بلا قوة. ولا لن بجانب الحق لو قلنا: القوة أحياناً تعير القوة، وحيثما تستطيع تجنبها، من الأفضل ألا تستخدم القوة.
- العاقل من يسترشد بما جرى للذين سبقوه.
- ما أن تكبر الحالة، يكبر التفكير. وما أن تتضاءل الحالة حتى يكبر الهم.
- بالألم لا تعالج الأوجاع الكبيرة، بل بأدوية ناجعة.
- الحبُّ يُزيد إلى الحب. لو كان الحب جيداً فهو الحب؛ وحب أكثر من الحب، فهو ليس بحب. حبُّ لخب أكبر يؤدي إلى الكره.
- هناك عناية تتوسع وعناية تتصاغر.
- ما دام بالإمكان العمل، فالأفضل استخدام المهارة وتجنب القوة.
- الأوفياء يقولون بما هو عليه، والمحتالون ما يرغبون.
- الحياة الطيبة، حياة. الحياة الطيبة تمنح الحياة. من لا حياة له لا يمنح الحياة. من هو الحياة يمنح حياة. ليست بحياة، الحياة السيئة. حياة بلا حياة ليست بحياة. من لا يستطيع أن يحظى بحياة، ليلتمس حياةً متكاملة.⁷²

الجزء الرابع من كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو

73 ما قدمه باترونيو من استدالات للكوندي لوكانور

سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لقد أدركت أن هذا قد جاء بناءً على إرادتكم وبإصرار منكم، وفهمت إنما يدفعكم إلى ذلك النية الطيبة، مما جعلني أجتهد لأقول لكم أشياء لم أكن قد ذكرتها في نماذج الجزء الأول من هذا الكتاب التي تراوحت في حدود الخمسين نموذجاً بسيطاً ومباشراً، وفي الجزء الثاني هناك أكثر من مائة مثال قد جاء أغلبها غامض والكثير منها واضح المغزى، وفي هذا الجزء الثالث ذكرت خمسين نموذجاً ومائة مثال⁷⁴. وها أنت ترى أنه في هذه النماذج والأمثال قد ذكرت في الكتاب ما يقارب المائتين منها. ففي النماذج الخمسين الأولى، لتقرأ كنماذج، ستجد في أكثر من موضع الأمثال الجيدة النافعة مثلها كأمثال الكتاب الأخرى⁷⁵ وأخبرك صادقاً بأن أي رجل سيحفظ ويستغل هذه الأمثال والحكم، ستكفيه لإنقاذ روحه وحفظ ممتلكاته وشهرته وشرفه ووجاهته. ومفكراً بما وضعته في هذا الكتاب جديرة بهذه الأشياء، وعليه أرى أنكم ستكونون منصفين لو تركتموني أستريح.

- باترونيو- قال الكوندي- لقد أخبرتك إنني أؤمن المعرفة جيداً وأسعى للحصول منها على قدر ما أستطيع، إلى درجة أنني لن أتنازل بحال من الأحوال عن ما بحوزتي من قدرة على المعرفة بقدر ما أستطيع. ومثلما أعرف أنني لن أجد لك مثيلاً في المعرفة، أخبرك بأنني طوال حياتي لن أترك السؤال والإصرار على معرفة ما أستطيع منك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- هكذا سيكون لو شئت ذلك، وسأخبرك ما أظن أنني لم أقله لك قبل الآن، بل أرى أن ما قلته لك سابقاً قد حل في فهم سهل، لذا من الآن ولاحقاً سأخبرك بأشياء أكثر غموضاً مما قلت وأخرى مبسطة جداً، وإذا ما ألححت أكثر، سأحدثك بطريقة ستجد فيها متعة الفهم من أجل فهمها.

- باترونيو- قال الكوندي- أعلم أنك تقول لي هذا بصرامة وبغضب بسبب إلحاحي عليك، لكن لفهمي القاصر، رغبت في أن تحدثني أكثر وضوحاً بدلاً من الغموض، ذلك إنني أعتقد أنه مناسب لي ذلك الذي تقول، والذي شئت قبل الآن أن تحدثني عنه وهو من الغموض الذي تشاء أن تبرهن به لي على معارفك.

- سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- إذا كان هذا الذي ترغيبون فيه، فمن الآن ولاحقاً فكر في ما سأقوله لكم: - في الأزمنة الماضية، أشياء كثيرة تبدو كبيرة وفي الحاضر ليست كبيرة، لا شيء منها يظل للبشر. (سي. أم) 76

- كل البشر يندعون بأبنائهم، بشهامتهم وصلاحتهم وحسنهم.

- شيء عظيم ضالة العقل عندما يعتقد في ضخامة أخطاء الآخرين وضالة أخطائه. (سي. أم) - من الثقة الكبرى ينبع الاحتقار.

- على السيد أن يكون أول الخارجين في المهمات المخيفة العاجلة، إلا أن تخلو الساحة من الخطر. (أس. سي) 77

- ليس على المرء أن يثرثر أمام الآخر حتى يعلم الفارق بين علمه وفهم الآخر.

- الشر الذي يراه المرء في الآخر، عليه أن ينتبه إليه حتى لا يقع فيه. (سي. أم).

- ليس على المرء أن يكون حكيماً ولا أن يغطي على فهمه أكثر من اللازم.

- لن يشعر بالصحة ولا نعيمها من لا يشعر بما يناقضها. (سي. أم).

- لا عقل للسيد الذي يرغب في خدمة أو يشعر بالامتنان من أمرئ السوء والكذاب.

- الحكماء ينتهون من الأشياء بدمائة وثناء لا بالتعنت والتكبر. (أس. سي).
- العاقل من يتحفظ على مخالفة من هو أعلى شأناً منه، خاصة أولئك الذين أعلى منه بكثير.
- الرجل الحكيم من يبتعد عن البشر السيئ، لأنهم سيعززون السوء إليه. 78
- من يشأ التباري مع من يستطيع، سيعرض نفسه للخطر. ومن يرغب في ذلك مع مثل له، سيدخل في مغامرة. ومن يرغب في ذلك مع من هو أقل شأناً منه، سيقع في شرك الاحتقار، فمن الأفضل أن تحيا بسلام لمصلحتك وشرفك.
- من ينقاد لعقله فلا ثناء عليه، ومن يكشف عن سره لذلك الذي لا يثق به، فهو ذو عقل خرف. 79
- من المفيد لكثير من البشر أن يحرسوا على العيش في سلام وبلا نزاع.
- من الحسن أن يكون السيد ذو قلب شديد، وإن لم يكن بقلب شديد، فعلى الأقل أن يكون بجسد قوي. (سي. أم) - أكثر المستشارين كمالاً وثناءً، هو ذلك الحافظ للسر والخالي من الأطماع وصاحب الفهم الحي.
- الأملاك المستغلة أوقاتها للتفكير ستستمر بفرح ومتعة. (سي. أم)
- بحماسة قوية وعمل أقل، بمعاشرة نساء أكثر والنيبذ والمتع السيئة، أن تكون ظالماً وقاسياً، لأن لك أعداء كثر وقليل من الأصدقاء، ستفقد سيادتك أو الحياة.
- الصفح سريعاً مدعاة ليخطئ البشر. (سي. أم)
- الحزن لا يمنح الطعام طعماً، أما المتعة فتجعل طيبة كل تلك الأشياء التي ليست بطيبة.
- العقل الناضج هو ذلك الذي يعرف كيف يداري على الوقت اللازم للثأر. (أس. سي).
- كيف يكون جنون ضعيف العقل، ولكي يبرهن على ذلك، يحاول أن يبدي نباهته، وذلك العاقل الذي يبرهن على جنونه مرات عديدة. (سي. أم).
- بإرادة قوية سيكون النزاع مع عدوه لوقت طويل، ويكون أشد قوة عندما يصارع نفسه.

- يتم التشهير للحاجة أو بفعل الإرادة أحياناً كثيرة عن تلك التي يُقال سوءاً عن أحدهم بسبب التعود على قول الحقيقة أو لأنهم يعرفون أمور بعضهم بعضاً.⁸⁰

- ذو عقل راجح من لا يسعى للانتهاء من عمل لم يحضّر له بعد كل ما يحتاج له.⁸¹

- ليس على أحدهم أن يكلف إمرءاً بأعمال عديدة مادام لم يشرف على حكومة بعد.

- بالطريقة ذاتها التي عمل فيها المرء لوقت طويل، عليه أن يعلم من الآن ولاحقاً ما عليه أن يقوم به. (سي. أم).

الجزء الخامس من كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو

سيدي الكوندي لوكانور- قال باترونيو- لقد ذكرت لك سابقاً العديد من الأقوال والأمثال، بعض منها واضح والآخر غامض، وقد أدرجت في هذا الكتاب الذي أعتقد أنه يرضيكم لإصراركم عليه فقد وضعت فيه ثلاثين مثلاً أخرى فيها من الغموض ما يدهش فيما لو تمكنتم من فهمها، ذلك إنني لا أنا ولا أي أحد ممن عرضتها عليه قد أدرك فحواها. لكنني كلي ثقة في أن تلك الأمثال التي تبدو غامضة ولا سبيل للإمساك بها، وبعد أن تتفهمها، ستجد أنها ليست بلا جدارة من تلك الأخرى فائقة السهولة. العديد من الأشياء المكتوبة في هذا الكتاب فيها من الدقة والغموض والابتسار تلبية لرغبة دون مانويل بإتمام إرادة دون خايمه، لن أسرد فيها لكم من الأقوال والأمثال، بل سأحدث عن شيء آخر أكثر جدوى.

- تعلم سيدي الكوندي، أن العديد من الشؤون الروحية هي أفضل وأكثر نبلاً من الجسدية، خاصة أن الروحية أبقى والجسدية ماضية إلى الزوال. فالشيء الأفضل والأنبل هو الروح لا الجسد، لأن الجسد منحرف والروح أكثر دواماً. ولطالما أن الروح أفضل وأكثر نبلاً من الجسد، فالشيء الأفضل يجب تقديره ويحافظ عليه أكثر، وعلى هذا المنوال، لا يمكن لأحد أن يعترض على أن الروح يجب تقديرها والحفاظ عليها أكثر من الجسد.

- للمحافظة على الروح تلزم أشياء عديدة، ولنفهم القول بالمحافظة على الأرواح، هو ليس أكثر من تحفيز تلك الأعمال التي يمكنها صون الأرواح. فالقول في صون الأرواح، ليس معناه حبسها في القلعة أو حفظها في السفينة، بل معناه أن البشر بأعمالهم الشريرة قد يودون بالأرواح إلى

الجحيم. ولحمايتها من أن تمضي إلى الجحيم، فمن الأفضل إبعادها عن الأعمال السيئة التي طريقها الجحيم، وحمايتها من الأعمال السيئة، يصونها من الجحيم.

- لكن عليكم أن تعلموا أنه للفوز بالجنة، على البشر أن يحفظوا أنفسهم من عمل السوء، ومن الضروري عمل الأفعال الحسنة، والأعمال الحسنة هذه في صون الروح والتثبيت بالفردوس، من الضروري أن تكمن فيها أربعة أشياء: الأول منها هو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص، والثاني يتضمن زمن فهمه وخلق ما له من قوانين وبنود وألا يشك في أي شيء منها؛ والثالث فعل الأعمال الحسنة وبرغبة صادقة لكسب الجنة، والرابع أن تحمي نفسك من فعل العمل السيئ لكي تحافظ على الروح من المضي إلى النار.

- الأول منها وهو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص: عن هذا أقول لكم الحق، إن قانون الخلاص هو الإيمان الكاثوليكي المقدس حسب ما تعتقد فيه الكنيسة المقدسة الأم في روما. وتأكد أنه الشيء نفسه الذي تقوم فيه العجوز بالحياسة أمام باب البيت على ضوء الشمس، وهو الشيء ذاته حقيقة الذي تعتقد فيه بأن الرب هو الأب، والابن والروح القدس، وهم ثلاثة أشخاص ورب واحد. وتعتقد أن السيد المسيح هو الرب الحقيقي والإنسان الحق، وأنه كان ابناً للرب وقد تم زرعه من قبل الروح القدس في بطن الشفيعة العذراء السيدة مريم، والذي وُلد منها الرب والإنسان الحق، وقد حملت به وهي عذراء، وبقيت عذراء أثناء الحمل وبعد الوضع. كما أن السيد المسيح قد رُبي وعُلِمَ مثله مثل أي صبي، وبعد أن خرج في دعوته، ألقى القبض عليه وعُذِبَ وبعد ذلك رُفِعَ على الصليب ليموت من أجل خلاص المذنبين، وبعدها نزل حتى الجحيم ليخلص منها أبواه اللذان كانا يعرفان بقدومه وكانا ينتظران مجيئه. وبعدها بُعِثَ في يومه الثالث وظهر لمرات عديدة، ليصعد إلى السماوات جسداً وروحاً وأرسل لحواريه الروح القدس ليصادق لهم وليعلمهم الكتابة واللغات. وأرسل بهم إلى العالم ليروجوا لكتابه المقدس. ويُعتقد أنه هو من أمر بأسرار الكنيسة المقدسة، وهي اليوم حقيقة عما عليه وكما أمر بها، وكما ستجيئ لمحاسبتنا وستمنح كل منا ما استحقه، وسننبعث من جديد وسنحظى روحاً وجسداً بالمجد أو بالبؤس فيما بعد، كل حسب ما عملت يداه. هذا ما تعتقده أي عجوز حقاً وما يجب أن يعتقد به كل مسيحي.

- سيدي الكوندي لوكانور، تعرف تماماً أن كل هذه الأشياء حقيقة، وهي كما يعتقد فيها كل مسيحي، وبما أن الكثير منهم لا بالعلماء ولا بالكتبة، إلا أنهم يعتقدون ببساطة بما تعتقد الكنيسة الأم

المقدسة، وبهذا الإيمان وبهذا الاعتقاد يكمن خلاصهم. ولو شاءوا أن يعرفوا كيف هو هذا وكيف يمكن أن يكون وما عليه أن يكون، وهو ما يمكن أن تعثروا عليه واضحاً في القول وفي تفكير البشر كما عليه في القول والفهم في كتاب دون خوان مانويل المعنون بـ«كتاب الأحوال»، الذي يحاول فيه أن يبرهن بالمنطق أن لا أحد في العالم أجمع، سواء كان مسيحياً أو كافراً، أو هرطقياً أو يهودياً أو مسلماً، لا يقول بالحق من أن هذا العالم هو من خلق الرب، وأنه من المناسب بالضرورة، أن يكون الرب هو الخالق ومُحيي كل شيء، وأن كل الأشياء من خلقه. يضاف لذلك، أنه يعالج كيف كان ذلك، ولماذا وما الأسباب التي جعلته ووجب عليه أن يكون السيد المسيح هو الرب الحق والإنسان الحق؛ وكيف أن أسرار الكنيسة المقدسة لها تلك الفضيلة التي تقول عنها الكنيسة المقدسة وتعتقد بها. كذلك يعالج كيفية التأكد بالمنطق أن الإنسان مجبول من روح وجسد، وأن الأرواح قبل بعثها ستمنح المجد أو الألم لأفعالها السيئة أو الحسنة، كل حسب ما كسبت، وبعد البعث سيرتبط الجسد والروح من جديد، وهما مجتمعان بفعلهما الخير أو الشر، معاً سيحظيان بالفوز أو الندم.

- سيدي الكوندي لوكانور في هذا الذي أخبرتكم به والذي تجدونه في ذلك الكتاب، أكون قد قلت لكم الكثير عن الشيين الأولين النافعين لخلص الروح، وهما: الأول منهما هو إيمان الإنسان وأن يعتقد بقانون الخلاص، والثاني أن يعتقد بكل قوانينه وبنوده وألا يشك بأي واحد منها. وكما نعرف أن الشيين الأولين هما: كيف يستطيع الإنسان بأعماله الصالحة أن ينقذ الروح ويحفظها من عمل السوء ليتجنب الجحيم، على الرغم من أنه في ذلك الكتاب نفسه قد عالجه بإسهاب تام. ولكن بما أنه من الأهمية والضرورة معرفته، التي بالمصادفة أن يقوم بعض الناس بقراءة هذا الكتاب ولا يقرأون الآخر، أريد الحديث هنا عن هذه المسألة، لكنني واثق من أنني لن أستطيع أن أقول بصورة كاملة كل ما هو جدير بذلك. فأقول عنه، وحسب خبرتي البسيطة، إن الرب يساعدي على القول وكلية بطاعته، وأن أسرد ما يمكنني من خدمته وأن يكون بمنفعة من يقرأه وسيقرأه.

- لكن قبل أن أتحدث عن هاتين المادتين- مثلما يمكن أو يجب أن يكون عليه البشر ليتجنبوا عمل السوء ولكيلا يقعوا في عقاب الجحيم أو أن يعملوا الحسنات لكسب مجد الجنة- سأقول قليلاً كيف هو ذلك وكيف يمكن أن تكون الأسرار المقدسة حقيقة بهذا الشكل وكيف تفهم ذلك الكنيسة المقدسة في روما. سأقول عن ذلك هنا لأنه لا يتم الحديث بوضوح عنها في كتاب دون خوان المذكور سابقاً.

- سأحدث أولاً عن الأسرار المقدسة لجسد الرب، وهي أسرار القربان المقدسة عند منصة المذبح. وأبدأ بهذا لأنه الأصعب في الاعتقاد من جميع الأسرار المقدسة، مجتازاً بها على الوجه الأفضل والحجة البينة، وهو ما يصادق عليه الجميع. ويعون الرب وبعد أن أنجح في هذا، سيصبح إثبات الأشياء الأخرى على الوجه الحسن بالنسبة للبشر حتى لو يكونوا من المسيحيين، ولي فيه من الحجج والفهم المقنع. وهو ما سيجعلني أبحث له عن حجج ليس على المسيحيين أن يتمسكوا بها لأنهم مجبرون على الاعتقاد بها، وذلك لأنها الحقيقة ولأن هذا ما تعتقد به الكنيسة المقدسة. وعلى الرغم من أن هذا كافٍ كإثبات لهم، فلا خلل في الأمر أن يكونوا على معرفة بالبراهين التي جاءت سابقاً في ذلك الكتاب. وهو يبرهن بالحجج أن علينا المعرفة والتصديق بالضرورة القاطعة أن الرب هو الخالق وصانع كل الأشياء، وأنه موجود في كل شيء ولا عمل يكون بدونه.

- كذلك تمت البرهنة على أن الرب قد خلق البشر على هذه الصورة ليس بحسب الطبيعة وحسب، بل إن الرب قد خلقهم بإرادته الخاصة. وأيضاً قد خلقهم متشكّلين من الروح والجسد، وهما العنصران مضافاً إليهما الروحي. متشكّلان من شيء دائم وآخر عرضة للتغير، وهما الروح والجسد اللذان عبرهما تحصل على المجد أو العقاب، فمن المناسب أن يكون الرب رباً وبشراً، وهذا كله يبرهن عليه بشكل تام في ذلك الكتاب الذي تحدثت عنه.

- لقد تمت البرهنة على أن السيد المسيح هو الرب الحقيقي، وهو رب كل القدرة التامة. ولا أحد يمكنه النكران أن السر المقدس الذي أمر به ليس من باب الفضيلة التي أمر بوضعها. لكن لو أن أحدهم قد عزى ذلك للإيمان وأنه ليس براغب في الاقتراب من باب الإيمان هذا إن لم تتم البرهنة بالحجة، فأقول أنا، إضافة لحجج القديسين وفقهاء الكنيسة المقدسة، أذكر هذه الحجة:

- حقيقي أن سيدنا المسيح، الرب الحق والبشر الحق، متعلقاً في يوم الخميس حول المائدة رفقة حواريه، وهو على علم بأن اليوم التالي سيكون موعد صلب جسده، وعلى علم بأن البشر لن يستطيعوا الخلاص من سلطة الشيطان- في سلطته سقط الكثير بفعل ذنوب الإنسان الأول، ولا أحد بمنأى عنها إلا بقدرة السر المقدس المعمول من قبله- فقد شاء، بعظمة صلاحه، أن يعاني بدلاً عنهم في درب الآلام، وهو بهذا السر المقدس المجبول من جسده يكون قد أطلق كل القديسين المحبوسين في اليمبوس،⁸² فلا قدرة لهم على المضي إلى الفردوس دون القربان المصنوع من جسد المسيح. ويفكر القديسون وفقهاء الكنيسة، وهم على حق، بأن الخير الأعظم ومجد الفردوس لا يتوصل به

البشر ولا قدرة لهم عليها دون درب آلام المسيح وما استحقته القديسة مريم وبقية القديسين. - عبر
درب الآلام المقدس والمُجد تم إنقاذ وخلص كل أولئك الذين كانوا حتى تلك اللحظة في اليمبوس،
وسينقذ كل أولئك الذين ماتوا وانتهوا رأساً في الإيمان الكاثوليكي المقدس. والسيد المسيح، كبشر،
كان لا بد أن يموت ولا يبقى في العالم، وهو الجسد الحق من أجل كل أولئك الذين وجب خلاصهم،
أراد أن يترك لنا جسده الحق التام وكما شاء لكي ينقذ كل الطيبين والمخلصين من المسيحيين. ولهذا
السبب، تناول الخبز وباركه وقسمه ووزّعه على حواريه قائلاً: «خذوا وكلوا، فهذا هو جسدي»،
وبعدها تناول الكأس وشكر الرب وقال: «اشربوا كلكم من هذا، فهذا هو دمي». وهناك أمر بقربان
جسده المقدس. يجب أن تعلموا أن السبب فيما يقولون إنه تناول الخبز وباركه وقسمه، هو هذا: في
كل مرة كان السيد المسيح يبارك فيه الخبز، ففي الحال سينقسم هو بنفسه كما لو ينقسم بسكين حادة.
لهذا يقال في الإنجيل إن الحواريين قد تعرفوا إليه بعد بعثته من تقسيم الخبز. ففي تقسيم الخبز
بطريقة أخرى مثلما يقسمه الآخرون، فليس على الكنيسة المقدسة أن تشير إلى تقسيم الخبز، لكنها
تقوم بذلك لأن السيد المسيح كان يقسم الخبز دائماً مبيناً ما يعمل بشكل رائع.

- وقد ترك هذا السر المقدس كذلك لكي يبقى بذكراه. وبهذا يتم إثبات أن السيد المسيح هو
الرب الحقيقي وهو كإله استطاع أن يعمل كل هذا، ومؤكد أنه قد عمل وأمر بهذا القربان، ولا أحد
يستطيع إنكار سبب أمره في طريقة عمله إلا ذلك الذي لا يمتلك فضيلة المسيح، الرب الحق،
الموضوعة فيه.

- التعميد، إضافة لذلك، فكل إنسان مدرك، عليه أن يعلم أن هذا السر المقدس واجب وحاجة
كبيرة. وكما تعرفون، فعلى الرغم من أن الزواج فعل قد أمر به الرب، وهو من الأفعال المقدسة،
إلا أن الإنجاب لا يمكن أن يكون دون متعة، وإن كان بترتيب وضرورة، لهذا كل من ولد ويولد
سيكون من اجتماع رجل وامرأة ولا يقصى أحد من كونه قد ولد من خطيئة هذه المتعة. وعن هذه
الخطيئة وصفته الكتب بـ «الخطيئة الأصلية»، أي حسب لغتنا «خطيئة الولادة». وكما أن كل إنسان
بهذه الخطيئة لا يدخل الجنة، لهذا، فنعمة الرب أن جعل لنا وسيلة لغسل هذه الخطيئة، ولتنظيفها،
أمر ربنا، في الشريعة الأولى: الطهور. وعلى الرغم من إكمالها للمقدس متى ما استمرت تلك
الممارسة، ولكي تعرفوا أن ذلك كان منظماً، وكلها كان ممثلاً عن الشريعة المقدسة التي وصلت لنا
اليوم. وعليكم أن تعلموا بالإشارة إلى فعل التعميد المقدس، أنه سابقاً كانوا يطهرون الرجال، والذي

بطريقة وأخرى كان ممثلاً لما كان يجب أن يكون. ولكن لتعلموا أن السر المقدس الحقيقي على ما عليه، فالطهور لم يكن يجرى سوى على الذكور، ولم تكن هناك طريقة للإنقاذ من الخطيئة الأصلية إلا بالطهور، وعليه فالإناث لا يمكنهن أن يقمن بهذا الفعل المقدس، أي لا يستطعن أن يبرأن من الخطيئة الأصلية. عليه ستدركون أن الطهور كممثل للنظافة وقد أمر به الإيمان الكاثوليكي المقدس الذي أمر به الرب سيدنا المسيح. وعندما أمر هو بهذا السر المقدس، شاء أن يأمر به بعد أن يكون قد أجرى على نفسه قربان الطهور، وذلك لأنه كما قال قد جاء لإكمال الشريعة ولم يأت لنقضها أو التقليل من شأنها. وقد أكمل الشريعة الأولى وهي الطهور، فقد أمر بالثانية وهي أن يتعمد من قبل شخص آخر، وكان أن تقبلها من سان خوان الباوتيسستا (يوحنا المعمدان). لهذا تعلمون أن السر المقدس الذي أمر به هو التعميد الفصل الحق لغسل الخطيئة الأصلية، ففكروا به جيداً وستدركون السبب الذي أمر به.

- كما هو موضح أعلاه، فقد قيل إن الإنجاب لا يعفي بدوره من متعة، وضد هذه المتعة، التي ينتج عنها شيء ليس بالنظيف، قد وضع واحداً من العناصر الأكثر نصاعة والمشار له كوسيلة للغسل، إذ إن أكثر الأشياء قذارة إنما تُنظف بالماء، وكذلك يقال عندما يعمد الطفل: «أعمدك باسم الرب والابن والروح القدس»، ويغطس في الماء. ولترى فيما بعد إن كان هذا السر المقدس قد تم عمله بعقلانية، ففي القول «أنا أعمدك باسم الرب والابن والروح القدس»، فهناك يقال ويسمى الثالوث المقدس ويظهر قدرة الأب ومعرفة الابن ورحمة الروح القدس. ويُقال إن بهذه الأشياء الثلاثة، وهي الرب وفي الرب، سيغتسل ذلك المخلوق من الخطيئة الأصلية التي ولد معها؛ والكلمة تحيل إلى الماء، وهي المادة التي تتحول إلى سر مقدس، وهذا الأمر عن السر المقدس الذي أمر به السيد المسيح صحيح وعادل، بحيث يستقبله بالتساوي النساء مثلهن كالرجال. لهذا فالسر المقدس ضروري جداً والأمر به من قبل السيد المسيح منطقي، وقد أمر به بهذه الصورة كربٍ حقيقي، ولا يمكن القول بسبب معاكس لما يكون عليه السر المقدس، إن لم يكن تماماً كما جاءت به أمنا الكنيسة المقدسة في روما.

أما بالنسبة للأسرار المقدسة الخمسة الأخرى وهي التوبة وتثبيت العقيدة والزواج والأمر الكهنوتي والمسحة الأخيرة، وفيها سأقول لكم المزيد من الأسباب وفي كل واحد منها، لتدركوا

كفايتها، لكنني سأتركها بينكم في شيئين فقط حتى لا أطيل كثيراً في هذا الكتاب، وأخرى لأنني إن من يستمع لما أقول، سيعلم أن الحجة نفسها للأول جدرة بتثبيت الآخر.

أقول إن الحجة قد انتهت بهذه الشاكلة وكما عليها أن تنتهي، فسأعود للحديث عن الويلتين اللتين بهما يستطيع الإنسان أن يحافظ على نفسه من عمل السوء والمضي إلى آلام الجحيم، وكيف يستطيع عمل الخير للفوز بالفردوس.

سيدي الكوندي لوكانور، كما قيل سابقاً، فإن أصعب شيء أن تكتب كل تلك الأشياء التي على الإنسان أن يعمل بها حتى لا يضطر للذهاب إلى الجحيم وبها يفوز بالجنة، لكن يمكن القول باختصار إن عليه التثبت بالأعمال الحسنة والابتعاد عن عمل الشر. وهذا حقيقي، أو ما يجب أن يكون، كما يقول البعض «حقيقة أكبر وعقل أقل»، لهذا فمن الأفضل التشجع على القول حول الأشياء التي أعتقد أنها لا تنتمي لي تبعاً لمعرفتي المتواضعة. لذا أعلن أنه من الأفضل أن أذكر كيف يمكن عمل هذين الشيين؛ ولأجلها أقول التالي: الأعمال التي على البشر أن يقوموا بها كسباً لمجد الفردوس، أولاً؛ من المناسب أن تقوم بها وأنت في وضع الخلاص. وعليك أن تعرف أن حالة الخلاص تلك لا تنفع كل الأعمال التي تقوم بها إن لم تكن في توبة خالصة، وعليه لن تكسب الجنة بذلك. وهذا من العدل والمنطق، لأن الجنة معناها رؤية الخالق وهي المجد الأكبر من كل شيء في الوجود. وليس من العدل أو المعقول أن يكسبها الإنسان وهو في حالة خطيئة مميتة. بل يحصل عليها من أعماله الحسنة التي تحمله فوراً إلى التوبة الحقيقية، وهذا من الأفعال الطيبة. إضافة لذلك، ستساعده الأعمال الحسنة في هذا العالم على أن يحظى بصحة جيدة وشرف وغنى وكل طيبات العالم الأخرى. في مثل هذا الوضع الحسن، أعمال الإنسان التي توصله إلى نعيم الجنة هي تلك المتعلقة بالزكاة والصوم والصلاة والحج، وكل الأعمال الرحيمة. لكن كل هذه الأعمال الطيبة التي على الإنسان أن يقوم بها كسباً للجنة، من الأفضل أن يعملها بأشكال ثلاثة: أولاً، أن يقوم الإنسان بالعمل النافع، ثانياً أن يقوم به بشكل جيد، وثالثاً أن يقوم به بإرادته. وها أنت ترى سيدي الكوندي، على الرغم من أنني قد قلتها بطريقة جيدة كي تفهم، ولكي تكون أكثر سهولة، أقولها لك بوضوح أكثر.

- أن يقوم الإنسان بالعمل الصالح فكل هذا من أجل الرب. فمن المناسب أن يقوم به بشكل جيد وبرغبة صادقة، وليس غروراً أو نفاقاً ولا أي نية أخرى، بل لخدمة الرب وحده. وليعمل به

كذلك وفقاً لإرادته، لهذا عندما يقوم بعمل ما، فليُنظر وفقاً للإرادة إن كان ذلك العمل عملاً طيباً أم سيئاً، وعندما يختار ذلك لأنه يرى فيه عملاً طيباً وأن يتنحى عن الأخرى لأنه يدرك أنه عمل سيئ. وما أن يقول الإنسان بهذا العمل الطيب وعلى هذه الشاكلة، إنما قد كسب مجد الجنة. ولكنه لو شاء عمل الحسنات لغرور في نفسه أو نفاق أو الفوز بشهرة العالم، وحتى لو كانت أعمالاً حسنة، فهو لا يعملها بطيبة ولا بإرادة منه، لأن إدراكه قد اختار ذلك الطريق البعيد عن الصراط المستقيم والنية الصالحة. وبهذا سيحصل له ما حصل لكاركاسونا مندوب الحاكم، بعد موته قد فعل أعمالاً طيبة، ولما لم يَقم بها بطيب نية، فلم تنفعه بالذهاب إلى الجنة ومضى إلى الجحيم. وإذا ما رغبت بمعرفة ما جرى لمندوب الحاكم، فما عليك إلا أن تطلع عليه في الفصل 40 من هذا الكتاب.

كذلك لكي يحافظ الإنسان على نفسه من الأعمال التي تؤدي به إلى الجحيم، فمن المناسب الحفاظ هنا على ثلاثة أشياء: أولها ألا يقوم الإنسان بعمل سيئ، وثانيها ألا يعمل به بسوء وثالثها ألا يقوم به بإرادته. فالإنسان لا يستطيع أن يقوم به بسوء تماماً إلا وهو يعمل على هذه الصورة: أن يكون عملاً شريراً، أن يقوم به بسوء وأن يعمل به مع إدراكه بسوء ما يعمل. وكما ذكرت لك مثال مندوب الحاكم في كاركاسونا بعمله الطيب، ولكنه لم يفعله بشكل جيد لهذا لم يفز بأي جائزة، فهذا أنا أذكر لك مثلاً آخر عن فارس كان من سوء الحظ أن قتل سيده وأبيه، وإن كان قد فعل السوء، فهو لم يَقم به عن إرادة، فهو في الحقيقة لم يَقم بعمل سيئ ولم ينل العقاب على فعله. وبما أن هذا المثال لا يرد في الكتاب، فهذا أنا أقصه عليك ها هنا، بينما لا أقص مثال نائب الملك لأنه مذكور في الكتاب كما قلت أعلاه.

- حدث أن أحد الفرسان كان له ابنٌ من أفضل حملة الدروع.⁸³ وبما أن السيد كان يقوم على رعاية أبيه الذي يعيش معه في بيته، فلم يهتم بطريقة ما يحافظ بها على وجود ابنه معه، مما دعاه للبحث عن سيد آخر يخدمه. - وللمزايا التي يتحلى بها الشاب وتفانيه في خدمة سيده، في وقت قصير رسّمه فارساً وصار إلى حال أفضل. وكما أن أحوال وأفعال العالم لا تدوم طويلاً، حصل أن اختلف السيدان اللذان يعمل لديهما الابن من جهة والأب من جهة أخرى على درجة تحتم فيها أن يتباريا.

الأب والابن، كل واحد مع سيده، وكما أن المغامرات تحدث في النزاعات، فكان أن حدث ما يلي: أن الفارس، أب الآخر، وقع في نزاع مع ذلك السيد الذي كان على نزاع مع سيده، وهو نفسه

الذي يعمل معه ابنه. وقد فهم الابن أن ذلك السيد لو وقع أسيراً أو سقط ميتاً فسيكون هذا مدعاة فخر وشرف لسيدته، فراح في نزاع مع سيد ابنه إلى أن وقع الاثنان على الأرض وكان الأب قد صعد على صدر السيد إما ليأسره أو ليقنتله. أما الابن وقد كان في خدمة سيده قدر ما يستطيع، فقد رأى أن سيده قد خر صريعاً على الأرض، وعرف أن ذلك الذي يتحكم به هو والده.

هذا الوضع قد تركه في هم كبير بلا شك، لكنه وقد كان متألماً لما حصل لسيدته، راح يصرخ بأصوات عالية على أبيه منادياً عليه باسمه، منبهاً عليه أن يترك سيده، فحتى لو كان ابنه، إلا أنه كان من تابعي السيد الآخر، وقد كان متأكداً إن لم يسعفه بسرعة سيكون مصيره الموت.

أما الأب، والسبب ما لم يسمع ما كان يُقال أو لم يعر اهتماماً لذلك، لم يتركه بالمرّة. عندما رأى الابن سيده في خطر وأن والده لا يرغب في تركه، وقد تذكر ولاءه لسيدته وما عليه أن يقوم به، فنسي أو طرح خلف ظهره واجبه الطبيعي نحو أبيه، وعلم أنه لو هبط بسرعة عن فرسه، بسرعة الجياد الحاضرة آنذاك، فإنه سيصل بسرعة لإنقاذ سيده قبل أن يذوق طعم الموت. فكان أن وصل على جواده مطلقاً أصوات التنديد بأبيه أن يترك سيده في حاله ومنادياً له باسمه. وما أن رأى أن والده لم يكن بتارك سيده بأي حال من الأحوال، فقد شعر بالغضب والألم وهو يرى حال سيده، فقام بضربة واحدة أن يجرح والده في ظهره، وكانت ضربة قوية اخترقت الدرع والجسد في آن واحد، بل وأكثر، فكانت الضربة من القوة أن اخترقت جسد سيده كذلك، فمات الاثنان في الحال.

وكذلك قام فارس آخر من أتباع ذلك السيد الميت، وقبل أن يعرف بموت سيده، كان قد قتل سيد الطرف الآخر، وهكذا انتهى ذلك النزاع وكل طرف في سوء حال ومصيبة.

بعد أن توقف النزاع، وقد علم الفارس بما جنته يداه وما حصل له بقتل سيده وأبيه في ضربة واحدة، فقد توجه مباشرة حتى قصور الملوك وبيوت السادة في تلك المقاطعات، وقدم نفسه مكبل اليدين والحبل يطوق رقبتة. هناك أخبر الملوك والسادة بفعلته، وإن كان يستحق الموت خيانة لقتله سيده ووالده دفعة واحدة، ورجاهم أن يحكموا عليه بما يستحق جراه فعلته. ولكن لا أحد منهم رأى أنه قام بإرادته بفعل الخيانة، وهذا ما سيشفع له كما وجد السادة ما كان عليه أن يقوم به.

وما أن علم الملوك والسادة بما حصل له فعلاً، فقد فكر الجميع في أنه لا يستحق العقاب على فعلته، فما حصل له بسبب سوء الحظ لا غير. وأثنوا كثيراً على ولاءه، إلى درجة أنه طعن والده في

محاولة لإنقاذ سيده. وكل هذا لأنه قد جاء بفعل سيئ دون إرادة منه بفعل السوء حقاً.

- على هذا سيدي الكوندي لوكانور، عليك أن تعلم عبر هذه الأمثال أن السبب في مضي البشر إلى الجنة يكمن في فعل البرّ، عملاً حسناً وبالإرادة. أما تلك التي تؤدي به إلى النار، فهي ولا بد أن تكون أعمالاً شريرة فعلاً وإرادة. كله مجبول بالنية، وهو ما قاله الشاعر «quicquid agant homines, intentio judicat omnes» والذي يريد به القول «أي شيء يفعلُه البشر، فالحكم عليه بالنية».

والآن سيدي الكوندي لوكانور، وقد حدثتك بما أعلم حول الوسائل التي على البشر اتباعها للفوز بالفردوس والحفاظ عليه من المضي للجحيم. ولكي تعلم أي خديعة تطل الإنسان وهو يضع كل ثقته في هذا العالم، أن يكون مع فخره أو غروره، وفي الآمال المعقودة بشرفه وبنسبه وثروته وفي شبابه وفي كل ما يحمله العالم من سعادة قدر ما يستطيع. سأحدثكم عن شيئين، حسب فهمي، على البشر أن يقوموا بهما.

- الأول، أي شيء هو الإنسان، وفي هذا أعتقد أن من يفكر به لن يثمن البشر كثيراً. وأخرى، أي شيء هو العالم، وكيف يعيش البشر فيه، وأي هبة يمنحها لهم بما يفعلون. ومن يفكر بهذا، بفهم عميق، سيدرك أنه ليس عليه أن يقوم بفعل شيء نتيجته فقد الشيء الآخر، بل أن يسعى ليستمر بلا نهاية.

الشيء الأول، ما هو الإنسان. حقاً أفكر من الصعب قول كل شيء، لكن بإرادة الرب، سأقول لكم أشياء كافية لتدركوا ما أريد قوله.

كما تعتقدون، سيدي الكوندي، إن من بين جميع الحيوانات التي خلقها الرب في هذا العالم، ولا حتى في المنحى الجسدي، لم يخلق مثل البشر في كماله وفي نقصه. الكمال الذي منحه الرب للبشر يكمن في الفهم والحق والحرية الشخصية، وشاء أن تكون مكتملة في الروح والجسد، وعن هذه الحال، لن أحدثكم أكثر، لأن دون خوان قد استعرضه في مواضع مكتملة في كتب أخرى، بل سأحدثكم عن الأخطاء والرذيلة الكامنة في البشر، في الأشياء قريبة الشبه بما تفعله الحيوانات الأخرى، بل عن أشياء لا تفعلها الحيوانات الأخرى.

دون شك أن الرذيلة الأولى في البشر تولد من المادة، جزء منها من الأب والجزء الآخر من الأم. وبما أن هذا الكتاب مدون بالرومانثية⁸⁴ مما يستطيع قراءته أناس أكثر من رجال ونساء، وسيشعرون بالخجل من ذكر ذلك، وإن كانوا سيسامحون حرج من أمر بكتابته حقاً. لهذا لن أمضي كثيراً في توضيح الأمر، لكن من يقرأه حتى لو كان قاصراً في الفهم، سيفهم كل هذا الذي يجيء ذكره.

بعد أن يتشكل الوليد في بطن الأم، سيكون غذاؤه من تلك الأشياء الغزيرة التي تفرزها البطن بطبيعة الحال ولا تبقى في جسد المرأة سوى في فترة حملها. من هذا شاء الرب أن تحوي أجساد النساء تلك السوائل الكثيفة القادرة على إطعام المخلوق. كذلك الحيز المحاصر به يحتوي على الأبخرة السيئة الرديئة القاتلة، إن لم يكن بفضل تلك الغللة التي خلقها الرب وزرعها ما بين جسد المخلوق وهذه الأبخرة، فلا يمكن أن يعيش المخلوق إطلاقاً.

إضافة لذلك فمن الضروري أن يعيش المخلوق في بطن أمه من الآلام والجهد الكثير. كما أنه وبمرور سبعة أشهر على وجوده يصبح مخلوقاً كاملاً ولا داعي فيما بعد لتغذيته من تلك السوائل الكثيفة، وبنقص فيها سيحتج ويقوم بتقطيع تلك الأغشية الحاضنة له، ولا يظل بعد ذلك في بطن أمه. وتلك حالة من يولد بسبعة أشهر، ويمكنهم أن يعيشوا كما لو كانوا قد أكملوا أشهرهم التسعة. وعندما لا يستطيع تقطيع أغشيته المحاصرة، سيظل متألماً من الجهد الذي بذله وسيبقى طوال شهره الثامن ضعيفاً ومُجهداً. فإذا ما ولد في ذلك الشهر الثامن، لا يستطيع الحياة أبداً. ولكنه لو بقي حتى شهره التاسع، يكون قد استراح واستعاد نشاطه، ومتى ما نزل من بطن أمه يكون حياً ولا يجابه الموت للأسباب التي ذكرتها. ولكنه ما أن يستغل أكثر أيام الشهر التاسع فسيكون بصحة وعافية طوال حياته. وهناك من يقول عن أولئك الذين يكسبون أياماً إضافية من شهرهم التاسع، سيكونون أصحاء وأقوياء وإن كانوا يشكلون خطراً على أمهاتهم. وها أنتم تدركون أن أي وسيلة من هذه التي ذكرت، فلا بد أن يعاني العديد الصعاب والمزيد من الغضب والأخطاء الجمة.

كما أن الحديث عن الآلام والأخطار التي يمر بها المخلوق في ولادته، لا أجد داعياً للحديث عنها، فلا أعتقد أن هناك من لا يعرف عن هذا شيئاً. والمخلوق عندما يولد لا فهم ولا إدراك عنده كي يعرف عمل الأشياء بنفسه، لكن ربنا شاء أن يقوم المولود بثلاثة أشياء: واحدة هي البكاء، والثانية هي الرجفة والثالثة الإبقاء على اليدين مضمومتين. وفي البكاء يفهم أنه قد جاء إلى الدنيا

وعليه أن يعيشها بألم وكرب وما ينتظره منها أشد ألماً وكرباً. أما في الرجفة فيفهم أنه يجيء للدنيا مرتعباً، وفيها سيعيش عرضة للفرع والشك، وما ينتظره سيكون أشد فزعاً. أما في ضم اليدين فيفهم أنه يجيء إلى الدنيا أكثر طمعاً مما يستطيع ولن يستطيع أن يملك فيهما الوفرة التامة.

بعد أن يُولد الإنسان، تكون لدية من القوة لتحمل المزيد من المآسي والأهوال، فتلك الخرق التي يذثرونه بها درئاً من البرد والحر أو الريح، كمقارنة بجلد الجسد، فلا خرقة ولا أي شيء آخر يصل إليه حتى لو كان رقيقاً، ما لم يبدُ خشناً وكأنه كله أشواك. يضاف إلى ذلك، وبما أنهم لا فهم لديهم، ولا أعضاؤهم مكتملة، ولا تركيبية لهم يستطيعون فيها إنجاز أعمالهم كما يجب، فهم لا يستطيعون الكلام ولا أن ينبهوا إلى ما يشعرون به. الذين يرعونهم ويحافظون عليهم يظنون أنهم سيكونون شيء ما، والحقيقة أنهم سيكونون شيء آخر، مما يضاعف غضبهم وشكواهم. كما أنهم ما أن يبدأوا بالكلام حتى يمروا بحياة صعبة، إذ إنهم لا يستطيعون قول أي شيء ولا يسمحون لهم بفعل أي شيء حسب رغبتهم، وهكذا يمضون في حسرة وضد من إرادتهم.

ومنذ أن يبدأوا الفهم، ذلك إن إدراكهم لم يكتمل بعد، يطمعون في الأشياء ويرغبون دائماً فيما هو مضرٌ لهم. وما لديهم لا يسمح لهم به ويجبرون على عمل عكس ما يرغبون لذلك يكون غضبهم أكبر فلا شيء أكثر إجحافاً عندهم من نقض الإرادة: لهذا يمضون معظم وقتهم في غضب وتململ.

وما أن يصبحوا ناضجين ويكتمل لديهم الفهم، يقضون وقتهم في غضب وشك أكبر، إما بسبب الأمراض أو البؤس أو الآلام والأضرار التي تلحق بهم. وليضع كل واحد منكم يده على قلبه، فسيجد أنه لم يمر يوم دون أن يكون ممتلئاً بالغضب والألم أكثر منه بالمتع.

وبعد أن يدخلوا في الشيخوخة، وهذا للقول لا غير، فأجسامهم نفسها مثل كل الأشياء التي يرونها، سيعاملونها بغضب، وكل تلك الأشياء بدورها تغضب منهم. وكلما اشتدت الشيخوخة، زاد الغضب واشتد، وفي النهاية كل شيء آيل للموت الذي لا يمكن الإفلات منه، مما يجعل المرء يبتدئ من نفسه ومن كل تلك الأشياء التي يرغب في عملها وسيصاب بالغم والدمار. وفي هذا لا يمكن أن تبرئ أحداً، كما لا يمكن أن تجد وقتاً مناسباً للموت. ويموت الصبي أو الشاب أو الشيخ، فالكل سواسية إزاء قسوة الموت وصلافته. فلو مات فقيراً ومعدماً، برفقة أو بأعداء فهم ممقوتون، أما لو

مات ثرياً وشريفاً، سيحزن رفاقه وسيشعر أعداؤه بالفرح، وهو من السوء مثل أسى الأصدقاء. والثري يحصل له ما يقول به الشاعر «Dives divitias».. إلخ. ويعني: «الثري يصنع ثروته بالعمل الشاق ويجمعها بخوف كبير ويهجرها بأسى كبير».

وعلى هذا تفهم أنه بكل الأسباب، وأن كل إنسان مهما كان وعيه وتفكيره في كل شروطه، عليه أن يدرك أنه مهما كان بذلك الثقل فلن ينتفع بشيء.

إضافة لكل ما قلته سابقاً، فالإنسان كائن ضعيف قياساً ببقية الحيوانات، إذ لا شيء لديه بينما بقية الحيوانات تتلغع الجلود والشعر والأصداف والريش الذي يحميها من البرد والزمهرير والأعداء، لكن الإنسان في هذا لا يملك شيئاً من كل هذا، ولا يستطيع العيش دون أن يكون مدثراً ويرتدي الملابس الخارجية.

والحيوانات تتغذى بطريقة ليس من المفروض أن يُحضرها لها أحد، بينما البشر لا يستطيعون التغذية دون مساعدة من آخرين ولا علم لهم بكيفية العيش فيما لو لم يبق الآخرون ذلك. بل وأن ما يعملونه في الحياة، لا يعرفون كيفية المحافظة عليه تماماً كما تفعل الحيوانات بالاستمتاع والمحافظة على صحة أجسادها.

وعلى هذا سيدي الكوندي لوكانور، ها أنت ترى بوضوح أن الإنسان محمل بالأخطاء، فلتفكروا هل من السوء إذاً أن يتصرف بغير وعزة نفس غير مبررة.

أما الأخرى التي نتحدث عن العالم، فتتكرر في ثلاثة أجزاء: الأول منها ما هو العالم، والثاني كيف يعيش البشر فيه، وثالث الأشياء أي جائزة يفوز بها أولئك الذين يعملون له.

من المؤكد سيدي الكوندي، من يرغب في الحديث عن هذه الطرق الثلاث بشكل وافٍ، عليه أن يتمكن من المادة جيداً حتى يدونها في الكتاب. لكنني أخشى لكثرة ما تحدثت به، أن تكون أنت وكل من قرأ هذا الكتاب تعتبروني ثرثاراً وتغضبون لهذا، لذلك لن أحدثكم كثيراً بقدر ما أستطيع في هذه المسألة، وهو ما ستجدونه في نهاية الكتاب. لهذا أرجو منك ألا تلح عليّ أكثر، لأنني لن أجيبكم عنها، ولن أقدم لكم من الأسباب أكثر مما ذكرت سابقاً. أما الآن وهو ما أريد أن أحدثكم عنه فعن أول تلك الأشياء الثلاثة: ما هو العالم؛ وهو بالتأكيد سيكون شيئاً عظيماً القول فيه، وسأقوله باقتضاب لتفهمه عني بشكل أفضل.

هذا الاسم «العالم» اتخذ اسمه من «الحركة» ومن «الانتقال»، ذلك أن العالم في حركة دائمة وتنتقل دائم ولا يقف على حال، لا هو ولا الأشياء التي تكون فوقه في سكون، ولهذا سُمي بهذا الاسم. كل الأشياء هي من خلق العالم، والعالم مخلوق الرب، وقد صاغه الرب في حالة حسنة وسيدوم بهذه الحال مادام الرب يرغب بذلك. والرب وحده يعلم متى ينتهي وماذا سيحصل فيما بعد انتهائه.

والحالة الثانية هي كيف يعيش البشر فيه؛ وهذا أيضاً وبلا شك من الصعب القول فيه بتمامه. فالبشر كلهم يعيشون في هذا العالم على أحوال ثلاث: الأول أن بعضهم يضع فيه كل إرادته وفهمه بأشياء العالم مثل الثراء والشرف والمتعة، ويسعون لإكمال إرادتهم بأي طريقة يستطيعون، لا البحث في شيء آخر بل في هذا نفسه، فلا معرفة لديهم ولم يعلمهم أحد ما تكون عليه أحوال من يعيشون في العالم الآخر. والحالة الثانية أن آخرين يعيشون طامعين بفعل الأعمال التي تحملهم لمجد الفردوس، لكنهم لا يستطيعون النأي عن كل ما هو مناسب للحفاظ على أعمالهم وأحوالهم، ولهذا يعملون وأكثر وفق هذا التصور ويحافظون على أرواحهم قدر المستطاع. أما الحالة الثالثة فأخرون يعيشون في هذا العالم كأنهم أغراب عنه، وقد أدركوا أن السبب الأساسي في كل هذا أن البشر قد خُلقوا لإنقاذ الروح، لهذا يولدون في العالم لأجل هذا الشيء، فلا يقومون بعمل شيء آخر غير تلك الأشياء التي يرونها تساهم في إنقاذ الروح.

الحالة الأولى، في أولئك الذين يضعون كل إرادتهم وإدراكهم في أشياء العالم، فمن المؤكد أنهم مخدوعون ويجهدون أنفسهم بلا داعي، بجهد كبير ورأس قليل الفطنة، فلا يوجد بشر في هذا العالم تماماً قادرين على القول فيه، ذلك أنكم تعرفون أنه لا أحد في هذا العالم يدفع عشر ماركات أو حتى مائة من أجل هذا الشيء، فالجميع لا يفكرون في أن ما جال في تفكيرهم إنما هو حكم باطل. فمن يمنح الروح، وهي من أطيب خلق الرب، للشيطان وهو عدو الرب، سيربح المتعة أو الشرف الزائل الذي لن يدوم غير يومين- أو على الأكثر ليوم واحد بمقارنة مع قسوة الجحيم- بل إن ذلك الذي في هذا العالم من تلك المتع وذلك الشرف أو تلك الشهوة الأيالة للضياع، فلن تدوم إلا قليلاً، فلا شهوة مهما كانت عظيمة فإنها في عرف الماضي، فلا تغضب من ذلك، إذ لا متعة مهما عظمت أن تدوم للأبد أو تطول فأجلاً أم عاجلاً تنتهي بأسف كبير. كما أنه لا شرف يظل عالياً، وهو لا يكلف البشر شيئاً لو فكروا بالمدن والأعمال والغضب وما ينتج عنها من عناء كبير للحفاظ عليها

وزيادتها. فليُنظر كل واحد وليتذكر ما حدث في كل واحدة من هذه الحالات: ومن شاء أن يقول الحق، سيجده كله فيما قلت.

هناك أيضاً من يعيش في العالم طامعاً بالعمل لإنقاذ الروح، لكنه لا يهجر رغبته في الحفاظ على شرفه وأحواله، وهذه على حالها يمكن أن تخطئ أو أن تصيب في القليل. فلو حفظوا كل هذه الأشياء التي يرغبون في الحفاظ عليها، فمن الأفضل أن يسعوا لإنقاذ الأرواح، لأنهم فيه يصيبون ويعملون العمل الحسن. صحيح أن الكثير من الملوك والرجال العظام وأناس بأحوال أخرى قد حافظوا على شرفهم وأبقوا على أحوالهم، والعمل فيه كله، عرفوا كيفية الحفاظ على أرواحهم وكانوا من القديسين. ومثل هؤلاء لم يخدعوا العالم، ولم يُمنحوا الجائزة التي اعتاد العالم أن يمنحها للذين وضعوا كل آمالهم فيه وليس في شيء آخر، وهؤلاء يكسبون كلتا الحياتين، الحياة النشطة وحياة التأمل.

أما الذين يعيشون كالغرباء في هذا العالم ولا يضعون إرادتهم إلا في تلك الأشياء المنقذة للأرواح، فهؤلاء قطعاً يختارون الطريق الصائب. لذا أقول وأتجرأ على القول إنهم قد اختاروا الطريق الصواب حقاً، لأنه من هذه الحياة وكما قال الإنجيل،⁸⁵ قد اختارت مريم الحصة الأفضل والتي لن تُنزع منها أبداً. وإذا ما أستطاع البشر كلهم المحافظة على هذا الطريق، فسيكونون دون شك الأكثر أمناً ونفعاً لأولئك الذين يحافظون عليه. ولأن ذلك سيكون معناه دمار العالم، فلم يشأ سيدنا أن يكون كل العالم من البشر العاطل عن العمل، لهذا لا يمكن اتهام العديد من البشر الذين لا يجدون أنفسهم في أي واحدة من هذه الحالات الثلاث.

بل إن الرب بنعمته شاء لنا أن نعيش في الحال الثانية أو الثالثة، وأن نحفظ من يعيش في الأولى، فالمؤكد أنه لا أحد يرغب في العيش على هذه الوتيرة، لا يلقي نهاية سيئة. وأخبركم، من الملوك حتى الرجال الأقل شأنًا، لم أعثر على رجل يرغب في العيش على تلك الحال ولم ينته نهاية سيئة في جسده، مع الشك بأن روجه تمضي في طريقها إلى المكان السيئ. فالشيطان دائماً ما يعمل قدر ما يستطيع من أجل أن يترك البشر طريق الرب لقاء أشياء العالم الأخرى، مع استعداد أن يمنحهم هداياه، كما يحكى في هذا الكتاب في الفصل 45 منه، عندما منح الشيطان هديته لدون مارتين وكان صاحباً له.

والآن سيدي الكوندي، إضافة للأمثال والحكم التي في هذا الكتاب، فقد أخبرتك بما يكفي حسب ما أعتقد لتستطيع الحفاظ على روحك، بل وللحفاظ على الجسد والشرف والأعمال والحال، فالمجد للرب، إذ حسب فهمي القاصر، أعتقد أنني قد أتممت وأنهيت كل ما أريد قوله لك.

لهذا أضع نقطة الختام لهذا الكتاب.

أنهاه دون خوان مانويل في سالميرون،⁸⁶ ليوم الاثنين لـ 12 يوماً من شهر يوليو (تموز)،
من العام 1373.⁸⁷

(انتهى الكتاب)

المراجع المختارة

طبغات الكوندي لوكانور الرئيسة

- *الكوندي لوكانور... بإدارة غونثالو دي آر غوت إي مولينا- Gonzalo de argote y Molina* للشهير جداً السيد دون بيدرو مانويل..، إشبيلية... هرناندو ديث، عام 1575. هناك طبعة فاكسميل بمقدمة لـ أ. ميّارس، برشلونة، بوفيل، 1978.

- *كتاب باترونيو او الكوندي لوكانور.. تحقيق: م. ميلا إي فونتانليس M. Mila y Fontanals*، برشلونة، خوان اوليبارس، 1853.

- *كتاب باترونيو، تحقيق ب. غايانغوس P. Gayanagos* في؛ كتاب النثر قبل القرن الخامس عشر، مكتبة الكتاب الألسان، ج41، مدريد، ريبادينرا، 1860.

- *كتاب باترونيو أو بالاسم الآخر الكوندي لوكانور.. بيغو، مكتبة أوخينيو راف،* 1898، جزآن، ط2، في بيغو، 1902.

- *كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو* Text und anmerkungen aus dem nachlasse von Herman Knust. Herausgegeben von Adolf Birch-Hirschfeld, Leipzig, dr. Seele&co, 1900

- *الكوندي لوكانور، تقديم وهوامش ف. سانشيس كانتون F. Sanches Cantón*، مدريد، مكتبة كاييخا، 1920.

- الكوندي لوكانور... تحقيق وملاحظات أولية وتحليل ببلوغرافي بقلم إدواردو خوليا
Eduardo Juliá، مدريد، مكتبة سوارث العامة، 1933.

- دون خوان مانويل وقصص العصر الوسيط، اختيار وملاحظات ماريا غويري
دي منندث بيدال Maria Goyri، مكتبة الطالب الأدبية، المجلد 27، 1936.

- كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. مقدمة وطبعة وملاحظات بيدرو
أنريكت أورينيا Pedro Enriquez Ureña، بوينس آيرس، لوسادا، 1939، طبعت أخرى
1942، 1947، 1965.

- الكوندي لوكانور، طبعة ودراسة وملاحظات أنخيل غونثالث بالنثيا Angel
Gonzalez Palencia، سرقسطة، إيبرو، المكتبة الكلاسيكية إيبرو، رقم 6، 1940. إعادة طبع في
1942، 1945، 1956، 1960 و 1965.

- الكوندي لوكانور. طبعة كاملة بتحقيق أنريكة مورينو بايث Enrique Moreno
Baez، بالنثيه، كاستاليا، 1953، إعادة طبع في 1962، 1965، 1967، 1969، 1970 (ط7)،
المتضمن الأجزاء 2 و3 و4 و5.

- كتاب امثال الكوندي لوكانور وباترونيو. مقدمة وقاموس المعاني لـ خوان م. لوبي
بلانش Lope Blanch، المكسيك، الجامعة الوطنية المستقلة، مجموعة الكلاسيكيات، 14، سلسلة
الأدب، 1960.

- الكوندي لوكانور أو كتاب أمثال الكوندي لوكانور وباترونيو. طبعة ومقدمة
وملاحظات خوسي مانويل بليكو Blecua، مدريد، كاستاليا، كلاسيكيات كاستاليا 9، 1969.

- كتاب الكوندي لوكانور وباترونيو، طبعة خرمان أوردونا German Orduna،
بوينس آيرس، هويلمول، 1972.

- كتاب أمثال الكوندي لوكانور و باترونيو. طبعة ألفونسو إي. سوتيلو Alfonso
I. Sotelo، مدريد، كاتدرا، 1976. إعادة طبع في 1980 و 1990.

- كتاب الكوندي لوكانور. طبعة ودراسة وملاحظات رينالدو آيربي شاوس
Reinaldo Ayerbe-ChauxK، مدريد، الحمراء، 1983.

- الكوندي لوكانور، في أعمال دون خوان مانويل الكاملة، المجلد 2. طبعة ومقدمة
وملاحظات خ. م. بليكووا Blecua، مدريد، غريدوس، 1983.

- الكوندي لوكانور. طبعة وملاحظات ك. ألبار و ب. بالانكو C. Alvar y P.
Palanco، برشلونة، بلانيتا، 1984.

- كتاب الكوندي لوكانور. طبعة معاصرة، دراسة وملاحظات ر. آيربي شاوس و أ.
ديرموند R. Ayerbe-Chaux y A. Deyermond، مدريد، الحمراء، 1985. إعادة طبع في
1988 و 1989.

- الكوندي لوكانور. طبعة ماريا خيسوس لاكارا María Jesús Lacarra، مدريد،
إسباسا كالبلي، أسترال، 1990.

سجل الأحداث التاريخية (كرونولوجيا)

1282 على مشارف صقلية: العرش الأراغوني يزيج بيت أنجو Anjou.

تمرد الأمير الإنفانتي سانشو ضد والده ألفونسو العاشر.

ولادة دون خوان مانويل في إسكالونا (طليطلة) في الخامس من شهر مايو (أيار).

رامون لول Ramon LLull: كتاب بلانكيرنا Blanquerna.

ألفونسو العاشر يكمل عمله أناشيد القديسة مريم 1284 Cantigas de Santa María
موت ألفونسو العاشر.

سانشو الرابع، ملكاً على قشتالة.

موت الإنفانتي دون مانويل، الأب.

يرث مقاطعة مورسيه 1285 Murcia ألفونسو الثالث، ملك كاتلونيا وأراغون و بالنتيه.

فليبه الرابع الجميل، ملكاً على فرنسا

ترجمة كتاب الكنز لـ برونيتو لاتيني (1285- 1295) Brunetto Latini-

1287 اجتياح مانوركا: يتم ضمها لعرش أراغون

رامون لول: كتاب الروائع.

1288 ب. ديسكلوت Desclot ينتهي من كتابه التاريخ Crónica رامون لول يعرض إنجازاته العلمية في السوربون.

ماركو بولو في الهند.

1290 اجتماع سانشو الرابع مع فليبه الجميل في بايونا Bayona: الملك الفرنسي يعد بعدم مساعدة ألفونسو دي لا ثيردا بنواياه على عرش قشتالة.

طرد اليهود من إنكلترا.

موت أم دون خوان مانويل، دونيا بياتريث دي سوبويا.

تأسيس جامعة لشبونة.

ولادة سيم توب دي كاريون.

موت بياتريث دي دانتي.

كتاب أزهار الفلسفة.

المنمنات الزجاجية Frescos de Cimabue في كنيسة سان فرانتيسكو دي أسيس.

1291 خايمه الثاني (1291-1327). بيتدى التوسع المتوسطي لـ أراغون.

ضياح آخر الدول اللاتينية في المشرق.

كونفدرالية سويسرا.

1292 غزو طريفه Terifa.

وفاة ر. بيكون- R. Bacon دون أن يكمل كتابه Compendium studii theologae.

جاكوب دي لا فوراجين La Voragine -: كتاب الأسطورة الذهبية.

1293 أناشيد و وثائق الملك دون سانشو.

ولادة رايسبروك Ruysbroeck.

مؤسسة الدراسات العامة في الكالا دي هناريس Alcalá de Henares.

1294 بونيفاشيو Bonifacio- السابع (1294- 1303) المدافع عن ربوبية السلطة

البابوية.

أول موقعة حربية ضد العرب: رجال دون مانويل يهزمون الحسن ابن أبو بكر ابن زيان.

يستقبل سانشو الرابع في بينيافيل: سيجتمع به فيما بعد في مدريد، قبل موته.

موت برونيو لاتينو.

1295 وفاة سانشو الرابع؛ يخلفه على العرش ابنه فرناندو الرابع.

سلام أناغني Anagni بين لأراغون، أنجو والبابا.

ملتقاً بالخلافات على العرش. يفقد مدينة ألسي، ويكسب من ماريا دي مولينا مقاطعة

الأركون.

يعود ماركو بولو إلى مدينة البندقية.

الغزو الأكبر في أعالي البحار.

تاريخ قشتالة، تاريخ كامبيادور، تاريخ ملوك قشتالة، تاريخ أحد عشر ملكاً (1295-

1312).

1296 رامون لول: شجرة العام.

لوحات جيوتو Giotto- في آسيس.

1297 المغول يغزون الهند.

1298 كاتدرائية برشلونة.

ماركو بولو، في الحبس، يسرد على روستيشيللو Rustichello حكاية رحلاته.
رامون لول: شجرة فلسفة الحب.

1299 قشتالة في حرب مع آراغون والبرتغال.

يتزوج دونيا إزابيل، أميرة مايوركا.

1300 دونز سكوتو يلقي محاضراته في أوكسفورد.

ولادة خوان روبث.

كابالكانتي Cavalcanti: قصائد Rimas.

تاريخ مفترض لكتاب الفارس ظفار (1300- 1305) Caballero Zifar.

1301 إعلان وصول فرناندو الرابع لسن الرشد.

موت زوجته دونيا غيزابيل.

1303 يصل روجر دي فلور على القسطنطينية

الوعد بالزواج من إنفانتا كونستانثا، ابنة خايمه الثاني ملك آراغون، ذات الأربعة أعوام.

يعترف بالآراغوني كملك على مورسيه وسيدها الطبيعي، مع الوعد بمساعدته ما عدا في

حالة الحرب مع قشتالة.

1304 وفاق بين القشتاليين والآراغونيين.

يتنازل ألفونسو دي لا ثيردا عن حقوقه المزعومة.

تنتقل مدينة إلسى تحت السيطرة الآراغونية. يغير ألكون بـ قرطاجنة.

ولادة بترارك (1304- 1374).

1306 طرد اليهود من فرنسا.

موت دونيا فيولانتى مانويل، شقيقة الكاتب وزوجة ألفونسو ملك البرتغال. توقيع عقد الزواج بـ دونيا كونستانثا، مع الوعد بعدم إتمام الزفاف حتى تصل إلى عمر 12 سنة. يكتب أرنالدو فيلانوفـا Vilanova- كتابه موجز عن الحياة الروحية و تفسير عن الوضوح.

1307 يبدأ دانتي بتأليف الكوميديا الإلهية.

تأسيس جامعة كويمبرا Coimbra.

1308 الحلف القشتالي- الأراغوني لمعاودة استرداد غرناطة.

ثورات مدنية في باريس.

إجراءات ومحاكمة فرسان الهيكل (1308-1314).

وفاة دنس سكوتو Scoto.

1309 فرناندو الرابع يحتل جبل طارق.

روبرتو دي أنجو- Anjou ملكاً على نابولي (1309-1343).

الإقامة البابوية تنتقل إلى أفنيون، حيث يتتالي على العرش اثنا عشر بابوياً (1309-1377).

يحضر لقاء أريثا Ariza حيث يقرر كل من ملك قشتالة وملك أراغون الهجوم على غرناطة.

قصر دوكال في مدينة البندقية (1309-1424).

1310 يترك دون خوان مانويل والإنفانتي دون خوان الحملة.

يُدرس أوكام Ockam- في أوكسفورد.

1311 مجلس فيينا يعمل على قمع فرسان الهيكل.

يتزوج بـ دونيا كونستانتا.

1312 وفاة فرناندو الرابع.

ألفونسو القاصر، ملكاً على قشتالة وليون (1312-1350).

حركة النبلاء الفوضوية.

مجلس وصاية متألف من ماريا دي مولينا والأميران إنفانتي دون خوان ودون بيدرو.

يفقد لقب مقاطعة مورثيا؛ يعين عليها ديبغو لوبث دي هارو.

دانتي: عن الملكية De Monarchita.

مجلس فيينا يعلن جامعة شلمنقة Salamanca واحدة من بين أهم أربع جامعات أوروبية.

1313 سينودو دي ثامورا Zamora: إجراءات ضد اليهود.

ولادة بوكاشيو Boccaccio.

1314 وفات فليبه الجميل و كليمنته الخامس.

1315 بلاط بورغوس.

تنظيم الأخوة العامة للدفاع عن المدن والضيع من جور النبلاء.

وفاة رامون لول.

يُدرس إرخارت Erckhart في مدرسة الدومنيكان في كولونيا.

1318 هرطقة فالدينس في بوهيميا و بولونيا.

منمنمات جيوتو Giotto الزجاجية في كنيسة سانتا كورث في فلورنسا.

1319 وفاة دون خوان و دون بيدرو في غرناطة.

تواجه ماريا دي مولينا أطماع النبلاء.

يُعين متولياً على قشتالة.

1320 مجازر اليهود في نابارا (1320-1328).

حرب أهلية في إنكلترا.

ما بين 1320-1325 ينهي تحرير كتاب التاريخ المختصر.

كتاب تاريخ عشرون ملكاً.

1321 وفاة ماريا مولينا.

ينسق زواج ابنته كونستانثا مع الملك، زواج لن يتم إطلاقاً.

وفاة دانتي.

1322 بيان البابا خوان الثاني والعشرين حول الفن الجديد Ars Nova.

1323 درجة القداسة لسان توماس.

1324 وفاة ماركو بولو.

رواية أماديس بنسختها الأولى.

1325 وصول ألفونسو الحادي عشر إلى سن الرشد.

وفاة دون ديونيس ملك البرتغال.

الأزتيك يؤسسون مدينة تينوتشيتشلا. Tenochtitlan.

بلاط بلد الوليد يوافق على زواج ابنته على ألفونسو الحادي عشر.

بين 1325-1326: كتاب القنص.

مونتانيير Montaner: كتاب التاريخ (1325-1332).

جامعة باريس تقوم برفع حكمها على التوماوية Tomismo.

1326 بين 1326-1328: كتاب الفارس وتابعه.

1327 وفاة خايمه الثاني.

ألفونسو الرابع ملكاً على أراغون (1327-1336).

حرب وبعدها فترة سلام مع ألفونسو الحادي عشر.

يتزوج بدونيا بلانكا نونيث لارا، التي سيرزق منها بولد هو دون فرناندو.

يبدأ بتدوين كتاب الأحوال.

ولادة فرانسيس أكسيمينيس Eiximenis.

وفاة أرخارت.

يتعرف بترارك إلى لاورا.

1328 نهاية سلالة كابيتا Capeta.-

وصول فليبه دي فالوي السادس Felipe de Valois - إلى عرش فرنسا.

لويس دي بافيرا Baviera - إمبراطوراً.

1329 ينتهي تشييد كاتدرائية ريمز Reims.

1330 أوائل الغزاة الأتراك لأوروبا.

يفتح معرض مدينة ديل كامبو.

يسترد مقاطعة مورثيا.

قبل هذا العام يدون كتاب الفروسية، العمل المفقود.

آ. هيتا Hita أول تحرير لكتاب الحب الطيب.

يبدأ بترارك بكتابة الأشعار بالعامية.

1331 ولادة الحاكم لوبث دي آيالا.

1332 مدينة آلبا Alava - تلتحق بقشتالة.

ينهي كتاب الأحوال.

1333 بني ميرين يحتلون جبل طارق.

مراجعة في كتالونيا.

1334 بنديكتو الثاني عشر، بابا الكنيسة (1334-1342).

حرب مع ملك قشتالة. ألفونسو الحادي عشر يهاجم دون خوان مانويل

بعد أن رفض هذا مساعدته بحصار جبل طارق.

ينسق زواج ابنته بولي عهد العرش البرتغالي.

بناء جنان العريف وتوسيع الحمراء.

أجراس ديل دومو (Campanile del Duomo) مدينة البندقية من عمل جيوتو.

1335 يتغرب من جديد. الملك يهاجم بينيفيل، ودون خوان يلجأ إلى فالنسيه. في 12 من

تموز

ينهي كتاب الكوندي لوكاتور.

1336 وفاة ألفونسو الحادي عشر.

بيدرو الرابع ملكاً على أراغون وكاتلونيا (1336-1387).

توحيد أراضي العرش الأراغوني والتحالف مع قشتالة.

من هذا العام أو قبله يدون كتاب الأسلحة، وأيضاً كتاب الأبد (ما بين 1334-1340).

وفاة ر. مونتانيير.

دون خل دي ألبرنوث، مطران طليطلة.

بوكاشيو يبدأ بكتابة Filocolo.

1337 قطيعة بين فليبه دي فالويس السادس وأدواردو الثالث ملك إنكلترا: بداية حرب المائة

سنة.

حالة سلام من جديد مع ألفونسو الحادي عشر.

وفاة جيوتو.

ولادة فرويسارت Froissart.

1339 ولادة ابنته خوانا مانويل والتي ستتزوج عام 1350 مع أنريكه تراستامارا.

.Trastamara

تشبيد الكرملين.

1340 معركة السلاو- Salado: ألفونسو الحادي عشر يهزم بني ميرين. يشارك في

معركة السلاو.

زواج ابنته كونستانثا بالأمير إنفانتي دون بيدرو.

ولادة ج. شاوسر. Chaucer.

ولادة ألفونسو ألباريث دي بياساندينو Villasandino.

1341 الطاعون الأسود يجتاح آسيا.

ولادة إي. ديشامب Deschamps.

1341 تدوين المدخل العام.

قبل هذا العام يدون تفسير ارتقاء مريم العذراء.

بترارك: كتاب أفريقيا.

1343 بيدرو الرابع ملك آراغون يضم جزر البليار.

خوان رويث دي هيتا ينتهي من تدوين كتاب الحب الطيب.

بوكاشيو: كتاب- Fiamentta.

1344 ألفونسو الحادي عشر يحتل الجزيرة الخضراء.

يدخل منتصراً إلى الجزيرة الخضراء بجانب الملك.

كتاب تاريخ الفونسو الحادي عشر الكبير.

1345 ينسق زواج ابنه فرناندو.

غارثيا كاستروخيريث: فوج أمراء أخيديو كولومنا (1344-1345).

1347 جامعة براغ.

1348 الطاعون الأسود (1348-1351).

وفاته يوم 13 تموز. ينقل جثمانه إلى دير بينافييل.

بوكاشيو: كتاب الديكاميرون.

1349 يوسف الأول يؤسس جامعة غرناطة.

1350 وفاة ألفونسو الحادي عشر. بداية حكم بيدرو الطاغية Pedro El cruel

والصراعات الداخلية في قشتالة.

Notes

[1←]

الكوندي: أو (الكونت) باللفظ الإنكليزي ونحن تركناها كما هي لأنها عنوان الكتاب واللقب المُعرف بها. والكوندي أو الكونت لقب تشريفي يُمنح لأرقى العوائل النبيلة ذات الصلة بعلية القوم وملوكها. والعديد من الكوندات وصلوا إلى الحكم كملوك في تاريخ إسبانيا أو دول العالم الأخرى. (المترجم).

[2←]

كما وتمت معانيته سابقاً، فهي كلمات أساسية في كتاب دون خوان مانويل. (hacienda العمل والفعل) هو مجموع الأعمال والأحداث التي تشكل حياة الإنسان في مظهره الخارجي. أما (estado الحال والوضع) فهو الشرط القضائي والاجتماعي للشخص، أو «الطريقة التي يعيشها البشر أو يكونون فيها». (Partidas, t, xxiii, lib,4).

[3←]

تظهر الملاحظة ذاتها أيضاً في (المدخل العام) لأعماله وفي (كتاب العقاب)، ص 32-33 وص 147، عمل مذكور (بليكو Blecua)، الكليشة التقليدية تتكرر في الأسفل: المؤلف يتقدم بتواضع لكسب تعاطف القارئ.

[4←]

سبق تعريفها: لغة العامة التي تنشق من اللاتينية والتي أصبحت اللغة القشتالية الإسبانية فيما بعد. (المترجم)

[5←]

حاكم سياسي عسكري للأراضي الحدودية المتاخمة للمسلمين.

[6←]

الدوبلات: عملة نقدية ذهبية صكها ألفونسو العاشر.

[7←]

حكاية: صورة أو رسم أو تخطيط، ففي طبعة غايانغوس (BAE، 41، 231، ملاحظة رقم 5) أشار إلى أن «الطبعة الرئيسية لكتاب باترونيو كانت مزخرفة بالرسوم». وهذه الجملة التي تتكرر تقريباً في ختام كل مثال، لا بد وأنها تعرف بإحدى الرسومات الموجودة في المجلد الأصلي. راجع: خ. م. بليكو في طبعته للعمل، مدريد، كاستاليا، 1969، ص 61، ملاحظة 100. من الآن ولاحقاً سنحذف هذه الجملة الأخيرة التي تنتهي، دون تغيير معين، كل الأمثلة.

[8←]

المسلمون (Moros) المستخدمة بكثرة في كل النصوص تشير إلى العرب المسلمين أو بقاياهم من الموريسكيين في شبه الجزيرة الإيبيرية أو الأندلس. (المترجم)

[9←]

لا ترد من الأنجيل، بل في حزقيال 33، 11.

[10←]

أطيان Solares هي كل تلك الأراضي التي يضع يده عليها في القرى والضياع.

[11←]

المسيحية تعتبر من يسقط في المعارك ضد المسلمين من الشهداء «أولئك الذين يموتون وبلا شك هم من القديسين والشهداء الأحقاق، ولا ذنب لهم غير تلك الميتة نفسها». وهم أيضاً «حتى لو لم يموتوا بالسلاح، وقد أمضوا حياتهم بالحرب ضد المسلمين، ومن لم يسقطوا موتاً بسلاح، فالجهد والأعمال والخوف والنية الصالحة والإرادة القوية تجعل منهم شهداء»، يقول الشيء نفسه دون خوان مانويل في كتاب الأحوال.

[12←]

جنوا مدينة إيطالية (المترجم)

[13←]

أنثى الثعلب، وسماها العرب ثعالة وأم عويل، ونحن أبقينا عليها باللفظ المفهوم في الوقت المعاصر (ثعلبية).
(المترجم)

[14←]

الأمير الإنفانتي أنريكة (1230-1303) ابن فرناندو الثالث وعم دون خوان مانويل. تواجه مع شقيقه ألفونسو العاشر الذي هزمه ونفاه من إسبانيا عام 1259. عاش في تونس وفي إيطاليا، حيث أمضاها سجيناً لمدة 21 عاماً. في عام 1295 عاد إلى مملكة قشتالة، حيث تبوأ منصب الوصي على الملك فرناندو الرابع خلال فترة عمره القاصر ما بين 1295 و1303.

[15←]

قصيدة كيبودو Quevedo العشارية الأبيات المشهورة التي تقول: «يحكى أن حكيماً ذات يوم...» (في عمله الحياة حلم، فص 1، مش 2) مستلهمة من هذا المثال.

[16←]

الثُرمس: كلمة من أصل عربي وترد هكذا في النص، وهي من البقوليات الرخيصة المعروفة (المترجم).

[17←]

Dean من اللاتينية وتعني حرفياً: الزعيم أو رأس جماعة تتألف من عشرة أشخاص (رهبان في دير). وهو الذي يترأس الجماعة في الكنائس الكاتدرائيات، ويكون الثاني في التسلسل بعد رئيس الرهبان.

[18←]

القيمة الفنية للقطعة، التي يتكرر موقعها الرائد في النقد، وتأثيرها في الأدبي المتشعب (ينظر من ضمن نماذج أخرى؛ كتاب تجربة الوعود لـ خ. رويث آلاركون، والصيغة المعاصرة من اقتباس خ. ل. بورخيس التي ضمنها في كتابه تاريخ الخزي العالمي، مدريد، دار آليانثا، 1997 (1975)، ص 119.. أو القصيدة الجميلة التي أهداها له آثورين في (القيم الأدبية)، الأعمال الكاملة، ج2، مدريد، 1947، ص 1040.)، قد جعل من هذا المثال أن يكون الأكثر شهرة من نماذج الكتاب الأخرى. ينظر أيضاً؛ قصة إي. أندرسون إمبرت التي ضمنها في كتابه بيدرو الخفيف، مدريد، دار آليانثا، 1976، ص 110-114.

[19←]

Nigromancia أي السحر الأسود، وأصلها من الكلمة الإغريقية نكرومانتيا «التنبؤ عن طريق الموتى»، متأثرة باللفظ اللاتيني Niger- (أسود) المسببة للسحر الأسود، فغلب عليها المعنى. «الفن البغيض لإحداث أشياء غريبة وبالعكس من الأمور الطبيعية عبر استدعاء الشيطان والاتفاق معه». (Dic Aut).

[20←]

من الشعوب الجرمانية في شمال أوروبا. (المترجم)

[21←]

سانتو دومنغو (1170-1221) مؤسس الطريقة الدومنيكانية، ولد في كالاهورا ووعظ في الناس ومات في المدينة الإيطالية بولونيا. حضور القديس يمنح الحكاية عنصراً واقعياً ويقربها من القارئ. يجب ألا ننسى، من جانب آخر، صلة المؤلف بالطريقة الدومنيكانية.

[22←]

عن هؤلاء الفرسان الثلاثة، لاحظ كيف يعلن المؤلف الأفضلية للأول. (لاحظ المثال 28 أيضاً). أما ثالث الفرسان، فعلى ما يبدو أنه حاكم كاثورلا بايو دي كورياً.

[23←]

سكان مملكتي ليون ونابارا (المترجم)

[24←]

في عنوان المثال يتحدث عن جماعة أما في محتواه فالدعوة تتم من شخص واحد. (المترجم)

[25←]

Fulano فلان: الكلمة عربية الأصل (المترجم)

[26←]

الخيمياء هو ذلك الفن الذي كانوا يسعون عبره بتحويل كل شيء إلى ذهب. - (وهو غير علوم الكيمياء المعروفة). «المترجم».

[27←]

Pícaro- الشاطر والعيار والحيال نفسه الذي جاء في المقامات العربية وهو (الصعلوك/ البيكاريسك) المعروف عالمياً. (المترجم)

[28←]

قطع نقدية من الذهب.

[29←]

اسم على ما يبدو قد ابتكره دون خوان، وربما يكون من أصل عربي.

[30←]

Aljuba ثوب عربي، نوع من العبان بأكمام قصيرة وضيقة يصلح للرجال والنساء من كل المراكز الاجتماعية لأنه يمكن خياطته من نسيج رخيص أو من أقمشة غالية.

[31←]

عباءة من الحرير أو أي نسيج دقيق وثمانين.

[32←]

لقد تم التأكيد بشكل متتابع حول الموقع المركزي لهذا المثال. إذ ينسج فيه الدون خوان سيرة حياة رجل متزن وكامل الأوصاف عبر حكاية الشاب النبيل، وفي الوقت نفسه عبر مثال الحكمة والطيبة التي تتجسد في السلطان العربي يوسف صلاح الدين (الأيوبي) كمثال للمستشار. وصلاح الدين نفسه يظهر أيضاً في المثال رقم 40، وقد كان سلطاناً على مصر وسوريا وتدخل في الحروب الصليبية. وقد وصلت شهرته إلى درجة أن بثوا عنه في أوروبا العديد من الأساطير التي جعلت منه أو يكاد بطلاً مسيحياً ورمزاً للحكمة.

[33←]

إيسكار وكويار: بلدتان قريبتان، الواحدة في مدينة بلد الوليد والأخرى في شقوبية.

[34←]

إشارة غير مباشرة إلى أنه يتبول في فراشه (المترجم).

[35←]

راهب لا يختلف عن البقية سوى بكونه يقوم أول الجميع بالصلاة والقداس. (المترجم)

[36←]

مرض انتفاخ الأصابع، ورم طفيلي (المترجم).

[37←]

المُعتمد: ملك إشبيلية وشاعرها (1040-1095)، جعل من بلاطه مركزاً للقاء الشعراء ورجال الأدب، وقد هُزم من قبل المرابطين، ونُفي ومات في الصحراء. ودون خوان مانويل ينعتة بابن عباد لانتمائه لبني عباد، وزوجته

الرميكية، كانت جارية لرميك، والتي ستسمى فيما بعد بـ اعتماد بعد أن تقيم علاقتها بالمُعتمد. وهذه الملاحظة يرد ذكرها في أخبار المقرري (ربما يعني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، «المترجم»). وترد في كتاب دوزي Dozy المعنون كتاب مسلمي الأندلس، مدريد، منشورات ترنر، 1982، مج4، خاصة الصفحة 118 وما يليها.

[38←]

الجملة ترد بالعربية. (المترجم)

[39←]

في هذا المثال يتضح حجم التنافس ما بين الدومنيكان والفرنسيسكان، خاصة حضوره في الحقل الجامعي في باريس. ودون خوان مانويل يشير بوضوح انحيازه للدومنيكان في مواضع عديدة من الكتاب. وفي الفصل 51 من كتاب الأحوال، يقول: «على الرغم من أن الفرق والأديان كثيرة، قديمة جداً ومقدسة، لتعلموا أن فريقين اثنين لا غيرهما الصالحان لإنقاذ الأرواح وبوفاق مع الإيمان الكاثوليكي المقدس (...). وهما فرقة الرهبان المبشرين وفرقة الرهبان الصغار «الفرنسيسكان» (...). ولتعلموا أنه على الرغم من وجود العديد من الطرائق الجيدة المقدسة في العالم، إلا أنني أعتقد أنها تكمن في (الرهبان المبشرين) وليس في أي فرقة أخرى. >مصدر
مذكور، ص 493<

[40←]

الأوقات المنسية، الأجزاء المختلفة من المهنة الربانية التي اعتادت الكنيسة أن تقيم صلواتها على اختلاف أوقات اليوم.

[41←]

يعتبر واحداً من أمثلة الكتاب المعروفة جداً. ومن المحتمل أن يكون البذرة المؤسسة لمسرحية ثربانتس القصيرة (مسرح العجائب).

[42←]

يسترعي الانتباه من وجهة نظر أسلوبية، تدخل الراوي في تعداد ما يراه وأفياً وما يعلمنا بمعرفته بنوعية الحكاية عندما يؤثر الاهتمام دون نتيجة، لهذا، يسهب بالحديث. انظر المثال 27.

[43←]

نوع من الصقور المدربة على صيد طيور مالك الحزين. وعنها يتحدث المؤلف في الفصل السادس من كتاب القنص، طبعة مذكورة، ص 519.

[44←]

الكلمة ترد بالعربية sacre، أي صقر وهو الشاهين المعروف (المترجم).- وفي الهامش الإسباني يرد التالي: نوع من النسور المعروفة بريشها الأشقر تقريباً والمنقار والأرجل بلون مزرق. موصوف في الفصل الثالث من العمل المذكور سابقاً.

[45←]

تمت الإشارة بشكل دائم لنقاط الاشتراك مع عمل شكسبير (ترويض المتوحشة)، اما الرأي عموماً اليوم فهو أن التشابهات ما بين النصين مصادفة بحتة (المترجم).

[46←]

يفهم من لقب المُعلم على أنه حكيم زمانه (المترجم)

[47←]

قطعة نقدية من آثار العرب في الأندلس (المترجم)

[48←]

على الرغم من أنه يذكر فيها معركة هاثيناس Hacinas- التي يرد ذكرها في التاريخ العام الأول في قصيدة فرنان غونثالث، فالحكاية على ما يبدو من صنع خيال المؤلف.

[49←]

Sensecal: السركال أو القهرمان أو من ينوب عن الملك (الزعيم أو النبيل الرئيس في القرية، وهو الذي يحكمها خاصة في وقت الحرب).

[50←]

الحكم الثاني، خليفة قرطبة ما بين 961 و 976.

[51←]

قيود تتحكم في الأرجل وبرائن طيور القنص. تذكر أن دون خوان مانويل هو مؤلف كتاب القنص.

- (والغماء: عصابة تحجب النظر «المترجم»)

[52←]

آلة موسيقية تشبه المزمار. (الكلمة ترد بأصلها العربي: بوق «المترجم»)

[53←]

العبارة يضعها المؤلف بالعربية تماماً. (Wa hadi ziyadat al-Hakam)

[54←]

في عام 1236.

[55←]

ترد في النص (Beguina) من ينتمي إلى هذه الفرقة الدينية التي أنشأها لامبرت لبيغي (القرن الثاني عشر) ومنه جاء اسم الفرقة. إضافة إلى المعنى التاريخي للمصطلح، فعند دون خوان تعني معنى أخلاقياً وهو «الزائف الإيمان والمنافق»، في كتاب (القطط المتدنية) «تعني النفاق» ينظر؛ المثال 41 من كتاب الأبد، فصل 1».

[56←]

متي، 7، 16.

[57←]

الحصاة أو نتاج ما يخرج من الأغنام أو الأرض.

[58←]

يُذكر بليكو بأن: «بيدرو نونيث دي فوينتي الميخر قد حاز لقب الوفي لأنه أنقذ ألفونسو الثامن، وهو ما يزال طفلاً، بالهرب معه إلى آتينتا من سوريا؛ أما غوثيرث رويث دي بلاغيو فقد كان على صلة قرابة مع الأول ومع رودريغو غونثالث دي لارا، الصريح، حيث كان كوندياً على أستورياس سانتيانا في زمن ألفونسو السابع. وحوالي عام 1141 كان في أورشليم القدس». (عمل مذكور سابقاً، 1962، ص 217).

[59←]

معاصران للمؤلف. لقد حصل أبار نونيث دي كاسترو على سلطة كبيرة من الملك ألفونسو الحادي عشر لكي يضمن تأييده في نزاعه ضد دون خوان مانويل. الذي سيلتحق فيما بعد بهذا وسيقاتل معه ضد الملك، دافعاً حياته ثمناً لتمرده. أما غارثيلاسو دي بيغا فقد أرسله ألفونسو الحادي عشر لقتال دون خوان مانويل. وبخروجه من قرطبة عام 1326، أكد أن التتجيم قد أعلن موته قريباً، وهو ما حدث بعد دخوله إلى مدينة صُوريا بوقت قصير.

[60←]

الجملة كاملة ترد في النص باللغة العربية. (المترجم)

[61←]

هذا المثال بأصوله الدومنيكانية المحتملة، بالإضافة إلى المثال السابق يعتبران المثالان الوحيدان من الكتاب بجانبه الحكائي يتضمنان كلمات نهائية بتحليل روحاني من قبل باترونيو، وهي في تمثيل متوازي مع ما يجيء من أشعار ختامية.

[62←]

Juglares المنشدون أو الشعراء الجواله، وهي مهنة كانت شائعة في تلك العصور الوسيطة. (المترجم)

[63←]

من هذه الجملة يعتقد النقاد أن المثال التالي رقم 51 مضاف لاحقاً لطبعات الكتاب. (المترجم)

[64←]

النقد بصورة عامة لم يتقيد بوجهة نظر موحدة حول أصالة هذا المثال. انظر ديفوتو و بليكو في الاعمال الكاملة المذكورة سابقاً ص 462 و 121 على التوالي.

[65←]

[66←]

حزقيال/33، 11.

[67←]

حول أسلوب هذه الأجزاء الأخيرة من الكتاب، تصنفها ماريا غويري Maria Goyri - (مقال في طبعة كنوست، في مجلة Romania، 29، 1900، 600-602) بكونها «إجراء طفولي حقيقة»، بينما تقول ماريا روسا ليدا Maria rosa Lida «التنويغات العبقريّة- المشغولة بالمنطق والشرح- تظهر بداهة في التجريب الأسلوبي غير معتاد في آداب القرن الوسيط الإسباني، الذي يفصح أحياناً للأديب عن البلاغة اللاتينية» (1969، ص 131). دون شك فإن هدف دون خوان مانويل «يتمظهر في الإجراء الأسلوبي الذي لا يُضاهى، إذ إنه ليس حالة جمالية خالصة، بل وأخلاقية. إذ يستند على إجراء محدد ليوصل لنا خبرته ومعرفته، لكن هذا الإجراء يجيب عن شيء أكثر من مجرد إرادة تشييدية، لأنه موضوع من نفس المادة الناقلة، بالثمن الذي يقوله لنا، ولأنه يُدرج إلى ما قيل بالصعوبة المنتهية.» (D. Devoto، -1972،468)

[68←]

نبيل من أراغون، كانت أراضيها مجاورة لأراضي دون خوان مانويل الذي ساعده في معاهدات مختلفة مع ملك أراغون.

[69←]

العديد من الأحكام والشذرات التي يضمها هذا الجزء والجزآن التاليان مستلة في أغلبها من مجاميع ظهرت في إسبانيا خلال القرن الثالث عشر. وهي تلك التي تنطوي تحت ما يسمى (أزهار الفلسفة وسر الأسرار)، اليونيوم أو لقيمت الذهب وهذه الأخيرة الأكثر تأثيراً. ينظر أيضاً ملاحظات كنوست Knust، 1900، ص 418، و ديفوتو Devoto، 1972، ص 469.

[70←]

كل الأمثلة التي ستجيء لاحقاً لم نعلم لها مقارنة مع الأمثال العربية، ولم نُعربها بالبحث عن مقارباتها في الأمثال العربية احتراماً منا للمثل الإسباني وللكتاب ولكي يجد الباحث فيه في المستقبل أوجه التشابه والاختلاف مع أمثالنا العربية، وهذا من حصة بحث ومكان آخر لا علاقة له بترجمتنا. (الترجم)

[71←]

مضاد للسعات السامة ويستخلص من الأفعى نفسها.

[72←]

الأخذ بنظر الاعتبار دراسة د. أ. فلوري- D.A. Flory المذكورة في Studies، ص 87- 89.

[73←]

[84←]

سبق تعريفه: يقصد اللغة القشتالية الإسبانية الأولى، لغة العوام آنذاك تفريقها عن اللاتينية لغة المثقفين. (المترجم)

[85←]

لوقا، 10، 42.

[86←]

قلعة في أراضي مورثيا تم الظفر بها من المسلمين.

[87←]

يرجع لعام 1335. يجب الأخذ بنظر الاعتبار فرق 38 عاماً المثبتة ما بين التسلسل التاريخي لعصره وبين زمننا الحاضر.